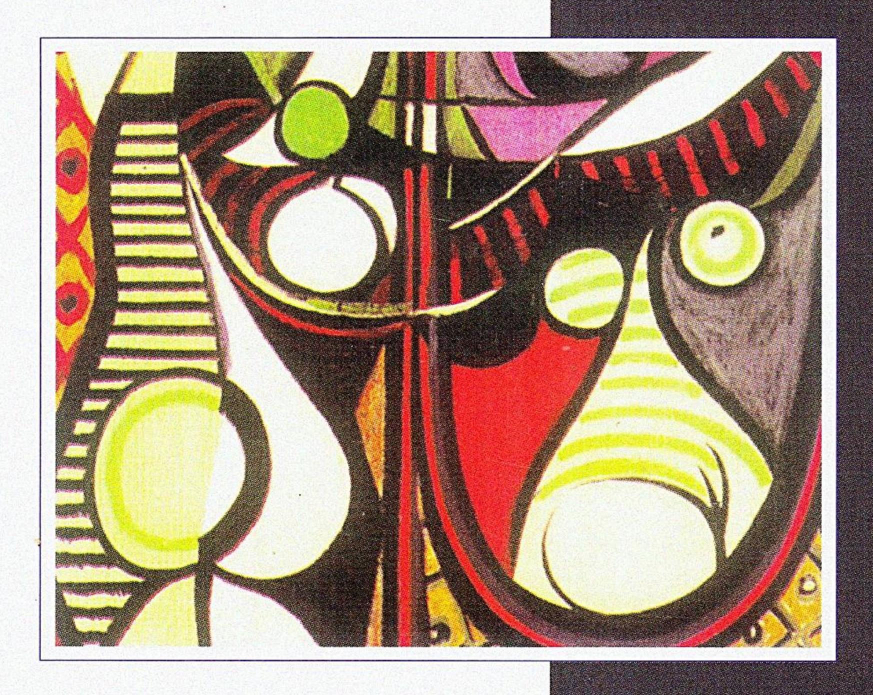
مدرسة فرانكفورت

توم بوتومور



ترجمة سعد هجرس

مراجعة
د. محمد حافظ دياب



علي مولا



مدرسة فرانكفورت



توم بوتومور

مدرسة فرانكفورت

ترجمة

سعد هجرس

مراجعة

د. محمد حافظ دياب

دار أويـــا

جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أو استنساخه باي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopyings, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher.

الطبعة الثانية

حزيران/يونيو/الصيف 2004 إفرنجي

رقم الإيداع المحلي 4692/ 1999
ردمك (رقم الإيداع الدولي) ISBN 9959-29-026-3
دار الكتب الوطنية/ بنغازي ـ ليبيا

تصميم الغلاف: نقوش

دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية

زاوية الدهماني، السوق الأخضر، ص.ب: 13498، هاتف: 4448750 ـ 4449903 ـ 3338571. 21 . 00218 ـ
فاكس: 4442758 . 21 . 00218، طرابلس ـ الجماهيرية العظمى ـ oeabooks@yahoo.com

توزيع دار الكتاب الجديد المتحدة أوتوستراد شاتيلا ـ الطيونة، شارع هادي نصر الله ـ بناية فرحات وحجيج، طابق 5، خليوي: 933989 ـ 03 ـ هاتف وفاكس: 542778 ـ 1 ـ 00961
بريد إلكتروني: szrekany@inco.com.lb – ص.ب. 14/6703 ـ بيروت ـ لبنان
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

بطاقة تعريف

مؤلف الكتاب

هو عالم اجتماع بريطاني معاصر، مثلت أعماله المترجمة مصدرا مهما في المكتبة العربية لعلم الاجتماع، حين ترجمت (جماعة علم الاجتماع المعاصر) في مصر بعضا منها منذ مطلع السبعينيات.

ولد عام 1920، وتخرج من جامعة لندن عام 1943، حيث حصل على بكالوريوس في العلوم الاقتصادية، ثم ماجستير في علم الاجتماع عام 1949.

قام بعد أن أنهى تعليمه، بإجراء دراسات عن هوبهوس، كما قدم بعد ذلك بعض البحوث عن موظفي الادارة العليا في فرنسا، بوصفه زميلا بمؤسسة روكفلر.

عين عام 1952 عضوا بهيئة التدريس بجامعة لندن، ورُقي أستاذا في علم الاجتماع عام 1957 بمدرسة الاقتصاد التابعة لنفس الجامعة، ثم أستاذا ورئيسا لقسم العلوم السياسية والاجتماع والأنثروبولوجيا بجامعة سيمون فريزر Simon Fraser بمدينة ڤانكوفر Vancouver منذ عام 1965، وأخيرا أستاذا لعلم الاجتماع بجامعة سوسكس Sussex University في مدينة برايتون Brighton منذ عام 1968.

شغل منصب رئيس الجمعية البريطانية لعلم الاجتماع في الفترة مابين عامي 1969–1971، وأمينا عاما للجمعية الدولية لعلم الاجتماع، ثم رئيسا لها في الفترة مابين 1974–1978.

علي مولا

من أعماله :

* Karl Marx - Selected Writings in Sociology and Social Philosophy (with M. Robel), Watts , London , 1956.
* Karl Marx - Early Writings (editor) , Watts , London , 1963.
* Elites and Society , Watts , London , 1964.
* Classes in Modern Society , Allen and Unwin Ltd. , London, 1965.
* Critics of Society - Radical Thought in North America, Pantheon Books , N. Y., 1966.
* Sociology - A Guide to Problems and Literature, Allen and Unwin Ltd., London, 1974.
* Sociology as Social Criticism, Allen and Unwin Ltd., London, 1974.
* Austro - Marxism : Its Conception (with P. Goode), Oxford University press , 1978.
* A History of Sociological Analysis (with R. Nisbet), Allen and Unwin Ltd., London, 1979.
* Sociology - The State of the Art (with S. Nowak and M. Sokolowska), Sage Publications , London and Beverly Hills, 1982.
* Dictionary of Marxist Thought (editor), Blackwell, Oxford University press, 1983.
* Sociology and Socialism, Harvester press , Brighton , 1984.
* The Farnkfurt School, Ellis Horwood Ltd. and Tavistock Publications Ltd., 1984, Routledge and Kegan Paul, London and New York, 1989.
* Reading in Marxist Theory (With P. Goode), Blackwell, Oxford, 1985.

ترجم له الى العربية:

* تمهيد في علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهري وآخرون، سلسلة علم الاجتماع المعاصر، الكتاب الرابع، دار المعارف، القاهرة، 1972.
* الصفوة والمجتمع، ترجمة محمد الجوهري، وآخرون، سلسلة علم الاجتماع المعاصر، الكتاب السادس، دار المعارف، القاهرة، 1972.
* الطبقات في المجتمع الحديث، ترجمة محمد الجوهري وآخرون، سلسلة علم الاجتماع المعاصر، الكتاب السابع، دار المعارف، القاهرة، 1979.
* علم الاجتماع والنقد الاجتماعي، ترجمة محمد الجوهري وآخرون، سلسلة علم الاجتماع المعاصر، الكتاب الرابع والأربعون، القاهرة، 1981.
* نقد علم الاجتماع الماركسي، ترجمة محمد علي محمد وعلي عبد الرزاق جلبي، سلسلة علم الاجتماع المعاصر، الكتاب التاسع والخمسون، دار المعارفة الجامعية، الاسكندرية، 1983.
* علم الاجتماع. منظور اجتماعي نقدي، ترجمة د. عادل مختار الهواري، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1985.



هذه الترجمة:

ليست الترجمة مجرد نشاط لغوي، بل هي فعل مثاقفة، يقوم على إعادة التأهيل الواعي للثقافة الانسانية، استنادا الى حرية التعبير عن الذات، وحرية التعرف إلى الآخر. وهي بهذه الكيفية، لابد أن تتسع لتشمل أبعادا ثلاثة متداخلة: البعد الأول معرفي، يتصل بدقة اختيار النصوص الأجنبية، والوقوف على مكوناتها ومرجعياتها، حتى نستطيع الحكم على مدى قابلية الافادة منها، وتقييم حصيلتها في إتاحة الفرصة للتفاعل الايجابي. والبعد الثاني لغوي، يرتبط بالتقاء معقد لحقول علم اللغة المختلفة: الصوتية والنحوية والصرفية والأسلوبية والدلالية والمعجمية، تحقيقا لسلامة اجراءات الترجمة، وإن كان الخلاف قائم في هذا الصدد مابين مبدأ الشيوع والحجة اللغوية، أو مبدأ الايجاز والحجة الصرفية، أو مبدأ الملاءمة والاستعمال، أو مبدأ التوليد والنماء المصطلحي، أما البعد الثالث فتأصيلي، يقوم على تخصيب النصوص المترجمة بالشروح والتعليقات التي تقف على كفايتها وفعالياتها، ومن ثم تتجاوز روايتها الى الدراية الناقدة، المحرّضة على الابداع.

وفي هذا الاطار، كانت ترجمتنا لهذا الكتاب:

فمن ناحية البعد المعرفي، يَغْدو التعرف إلى تاريخ وأفكار مدرسة فرانكفورت ضرورة أساسية لتكوين وعي نقدي يحتاجه الواقع الراهن، خاصة وأن هذه المدرسة لم تأخذ حظّها الواجب من الدراسة والبحث في

الكتابة العربية، إن على مستوى الحقل الفلسفي أو السوسيولوجي.

ولعل مايزيد من أهمية ترجمة هذا الكتاب، أن صاحبه، توم بوتومور، له وجهة نظر خاصة فيما قدمته هذه المدرسة، حين اعتبر نظريتها النقدية، شكلا من أشكال النظرية الاجتماعية المنفصلة بالتدريج عن الماركسية، وأنها مثلت تيارا واحدا فقط من الفكر، في إطار حركة التجديد النقدي العريض للنظريات الماركسية والراديكالية، وأن مكانها في التطور اللاحق لمثل هذه النظريات، موضع جدال.

ومن ناحية البعد اللغوي، فقد حاولنا في هذه الترجمة تحقيق التكافؤ بين النص الأصلي والنص المترجم من حيث المعنى والأسلوب، مبتعدين عن الصياغات الفضفاضة أو النقل الحرفي، اللذين من شأنهما إجهاض الدلالات الدقيقة التحديد للنص.

وقد واجهتنا مشكلة تزايد الأقواس وعلامات التنقيط والفواصل والربط على نحو ملحوظ في النص الأصلي، فكانت محاولتنا التقليل منها في النص المترجم الى حدّ كبير، بغيرما اخلال بتنظيم التقطيع الجُملي والترابط النصّي، واضعين في الاعتبار اختلاف هذه العلامات بين اللغتين، حيث في حين يكون الرابط بين الجمل في العربية ذهنيا، فهو في الانجليزية يكون بأدوات تصل الجمل ببعضها.

كذلك لم ننقل الهوامش بحالها، كما وردت في النص الأصلي، بل قمنا بتوضيحها، خاصة مع ملاحظة تكرار البعض من المراجع، أو ورودها ناقصة، بإغفالها تاريخ النشر أو جهته أو رقم صفحة الإحالة.

ومن ناحية البعد التأصيلي، فقد توسعنا في الملاحق التي وردت في نهاية الكتاب:

ففي الملحق الخاص بأعلام المدرسة، لم نكتف بمجرد تقديم نبذة مختصرة عنهم، بمثل ماجاء في النص الأصلي، بل أضفنا مزيدا من التفاصيل، شملت جوانب من سيرتهم الذاتية، وأعمالهم، سواء منها

المترجم الى الانجليزية أو الفرنسية أو العربية، أو ما يتصل بمزيد من القراءة حولهم.

والملاحظ أن الكتابات تتباين حول تحديد هؤلاء الأعلام، حيث هناك من يقصرهم على المؤسسين الرئيسيين: ماكس هوركايمر، وتيودور أدورنو، فيما آخرون يضيفون من يطلقون عليهم (رفاق الطريق)، وهي الشخصيات التي ارتبطت بصلة وثيقة بالمدرسة، وأسهمت في التطوير النظري لمبادئها ومنهاجها، انطلاقا من طموحات مغايرة. ويُشار في هذا الصدد الى هربرت ماركيوز تحديدا، اضافة الى ڤالتر بنيامين، وإريك فروم، المنضويين تاريخيا في مشروع المدرسة دون أن ينتموا اليها تماما. وهؤلاء الرفاق يتميزون عن معاوني معهد البحوث الاجتماعية منذ تأسيسه، من أمثال: ليو لوڤُنتال، وفيلكس فايل، وكارل فيتفوجيل. ويضاف أخيرا ورثة النظرية النقدية، ممن يشكلون الجيل الثاني من المدرسة، وأهمهم يورجين هابرماس.

على أننا التزمنا في هذا الملحق بما أورده بوتومور، حين ذكر أعضاء خمسة أساسيين للمدرسة، وهم: أدورنو، وهوركايمر، وماركيوز، وفردريك بولوك، وهابرماس.

وفي الملحق الخاص بالقراءات المقترحة ، زودناه بالاسهامات الجديدة التي قدمت حول المدرسة، إن منها الأجنبية أو العربية.

وفي الملحق الخاص بالمصطلحات المستخدمة، أضفنا مصطلحات أخرى وجدناها تتصل بالتوجهات النظرية والمنهجية لفكر هذه المدرسة.

وأضفنا من عندنا ملحقا رابعا ، يتعلق بمعجم مختصر حول هذه المصطلحات، أفدنا في مادته بالعديد من الكتابات الأجنبية والعربية التي تصدت لأعمال هذه المدرسة، وهو معجم يمكن أن نسعى الى تطويره مستقبلاً في شكل مستقل.

وقد قام سعد هجرس بالترجمة، وهو صحفي مصري يعمل مديرا

لتحرير جريدة (العالم اليوم) القاهرة اليومية، وله تجربة عريضة في الترجمة.
وتكفل د. محمد حافظ دياب بالمراجعة والتقديم وضبط المصطلح.

واننا لنأمل، أن تعود ترجمة هذا الكتاب بالفائدة على القارىء المهتم بقضايا الفلسفة وعلم الاجتماع، وعلى دارس هذه القضايا معا.

مقدمة الطبعة العربية

درس فرانكفورت

د. محمد حافظ دياب

قد تبدو الكتابة عن مدرسة فرانكفورت مهمة صعبة، بالنظر الى غزارة إسهاماتها، وتباين وجهات النظر حولها:

فهي عند مارتن جاي M. Jay : "تحولت من (نادي ماركس) قبل هجرتها من فرانكفورت، الى (نادي ماكس) بعد عودتها، وحيث هناك في المهجر، فُقد الحرف (R) الذي تبدأ به كلمة (الثورة) Revolution "[1].

ولدى جان ماري ڤانسان J. M. Vincent تمثل: "مواصلة نحو التقليد العظيم للفلسفة الألمانية، ونقدا صارما للثقافة البورجوازية الحالية"[2].

أما الباحث الأمريكي ترنت شروير T. Schroyer، فيري: "أن النتيجة التي انتهت اليها هذه المدرسة تبدو متناقضة مع بداياتها"[3]، وهو ما يعد قريبا مما أورده عالم الاجتماع الانجليزي توم بوتومور

---

(1) Jay , M.: The Dialectical Imagination - A History of the frankfurt school and the Institute of social Research (1923-1950) , Little and Brown, Boston, 1973, p. 11.

(2) Vincent , Jean - Marie: La Théorie Critique de l'école de Frankfort, Editions Galillée ,Paris , 1976, p. 9.

(3) Schroyer, T.: Critique de la Domination, Payot, Paris, 1979, p. 136.

T. Bottomore، حين ذكر أنها: "تمثل ظاهرة مركبة، جرى شرح وتفسير نمط الفكر الاجتماعي الذي ارتبط بها في المقام الأول، أي النظرية النقدية، بطرق شتى"[4]، فيما يعتبرها جان جراندان J. Grandin: "آخر معقل مع الفن لعالم انساني، يكتفي برسم أسود للتشيؤ الغربي"[5].

ويزيد من صعوبة هذه المهمة، تلك التسميات العديدة التي أطلقت على هذه المدرسة، من مثل: النظرية النقدية Critical theory اشارة الى مجموعة أعضائها من المثقفين الألمان الذين اتخذوا من الفلسفة النقدية رؤية لهم، والماركسية الأوربية Euro marxism تمييزا لفكرها عن التفسيرات التي قدمها منظرو الأممية الثانية والثالثة للماركسية، وفكر الهجرة Migration thought، ومدرسة فرانكفورتFrankfurt School وهو الاسم الذي خلعوه عليها بعد عودتها من المهجر، اضافة الى (فندق الهاوية الكبير) كما أطلق عليها جورج لوكاش .G. Lukacs دلالة على تعدد الأطر النظرية والمنهجية لدى مفكريها[6]، ناهيك عن توالي أكثر من جيل، بالمعنى الكرونولوجي، لممثليها، أهمهم من الجيل المؤسس: ماكس هوركايمر .M Horkheimer، وتيودر أدورنو Th. Adorno، وفردريك بولوك .F Pollock، هربرت ماركيوز H. Marcuse ، وإريك فروم E. Fromm، ولوفينتال L. Lowenthal، وفالتر بنيامين W. Benjamin. ومن الجيل الثاني: ألفريد شميت A. Schmidt، وكلاوس أوفي C. Offe، ويورجين هابرماس J. Habermas، وأولبرخت فيلمر A. Wellmer.

وربما لهذا التداخل، تصوّر بعض الباحثين أن المدرسة لا تمثل وحدة

---

(4) Bottomore , T.: The Frankfurt School , Routledge and Kegan paul, London, 1989 , p. ll.

(5) Grandin, J.: Rationalité et Agir Communi-cationnel Chez Habermas in (Revue Critique), N 464-465, Paris, 1986, p. 519.

(6) Ibid., p. 523.

فكرية منشقة، فيما عاينوه من اختلافات بين بعض من ممثليها في طرحهم لعدد من المسائل، من مثل الاختلاف بين هوركايمر من ناحية، وأدورنو وفرانز نيومان F. Neuwmann من ناحية أخرى، حول التفسير الماركسي القيبري الذي قدمه هذا الآخير للفاشية، أو التصنيفات التي صاغوها لتنوع أفكارهم، حين رأوها تأخذ عند ماركيوز اتجاها طوباويا، وتشكل لدى أدورنو جدلية سلبية، وتقدم كنظرية للمعرفة مع هابرماس، وتمثل مع هوركايمر حاجزا أمام الفكر التعريفي والعالم المسيّر[7]، أو في التأكيد على ارتباطهم بمصادر متباينة، حيث رغم انطلاقهم من الاطار الفكري للنظرية الماركسية، فإن منهم مثل فروم وماركيوز من تأثر بالفرويدية والتحليل النفسي، وآخرون تأثروا بإنسانيات بعض الروائيين كفرانز كافكا F. Kafka ، وهرمان هسّة H. Hesse ، ومارسيل بروست M. Proust، حيث إن المشكلات التي تصدت لها نظريتهم النقدية على المستوى الاجتماعي، تكلم عنها هؤلاء الروائيون بصيغ أدبية وجمالية، وهو ما حاولوا إثباته في تأثير كافكا على بنيامين وأدورنو، وتأثير هسّة على ماركيوز[8].

والواقع أن الأعمال التي قدمها ممثلو مدرسة فرانكفورت تطرح اهتماما مشتركا، تجسّد في محاولة صوغ فلسفة نقدية بديلة، تقف بإزاء التيارات النظرية البورجوازية، التي مارست، ولم تزل، صنوفا من السلطة الفكرية، وهدفت الى تقويض الفصل بين النظرية والممارسة.

وتمثل مرمى هذه الفلسفة النقدية البديلة في تحرير المشروع الثقافي الغربي ، وهو ما استتبعه بالضرورة تنوعا في أنساقها ومسالكها، وهو ما يوضح أن أصحابها: "لايمثلون مدرسة، بقدر ما يبدون كحركة ترغب في

(7) Abensour, M.: «Théorie Critique - Une pensée de L'éxil» in (Archives de Philosophie) , N 45, Paris, 1982, p. 314.

(8) Zima, P. : L'école de Frankfort , Editions Universitaires, Paris, 1974, P. 81.

التعدد، لكن عبر إطار اهتمام مشترك"[9].

إضاءة تاريخية:

ولقد يمكن الحديث حول بداية المشروع العلمي لمدرسة فرانكفوت مع نشأة معهد البحوث الاجتماعية، الذي مارس نشاطه بهذه المدينة في بداية فبراير 1923، وافتتح رسميا في يونيه 1924، وتكوَّن كحلقة فكرية أو حركة طلائعية، عبر المناقشات الجماعية لمؤسسيه، ممن شكلوا إحدى فصائل الموجة الراديكالية، وعايشوا صعود اليسار الألماني وانتكاسته، وتشاركوا في همّ رفض المشروع الثقافي الغربي، ورغبوا في القيام بنقد جذري لعصرهم.

وتجربة تكوين مثل هذا (الحزب الفلسفي) أو التجمع الفكري، ليس أمرا مستحدثا في ألمانيا، اذْ وجدت قبْلا لدى البعض من أصحاب الاتجاه المثالي عبر مشروعهم (معهد النقد)، الذي أسسه فردريش شلينج F. W. Shelling ويوهان فيخته J. G. Fichte عام 1977، وكذلك لدى (الهيجليين الشبان) في أربعينيات القرن الماضي، وبرزت بشكل أوضح خلال عشرينيات القرن الحالي في (جمعية برلين للفلسفة العلمية)، وكان من أعضائها هانز رايشنباخ H. Reichenbach وكارل همبل C. J. Humbel، وفي (حلقة ڤيينا) التي مثلت المركز التنظيمي والأيديولوجي للوضعية المنطقية، وكذلك مع نشاط الحلقات الماركسية والراديكالية التي ظهرت عقب إخفاق الثورة الألمانية في ثلاثينيات القرن الحالي، وأبرزها حلقات (أسبوع الأعمال الماركسية) التي نظمها فيلكس ڤايل F. Weil صيف 1922 بمدينة تيرنج، وشارك فيها كارل كورش K. Korsch، وجورج لوكاش[10]، وريتشارد سورج R. Sorge، وبولوك، وكارل ڤيتفوجل K.

---

(9) Abensour, M. , Op. Cit., p. 318.

(10) كاد لوكاش أن يكون واحدا من أعضاء مدرسة فرانكفورت، غير أن ما أبعده عن ذلك هو توزعه بين الالتزام السياسي الأيديولوجي المباشر، وبين الاخلاص

Wittfogel وغيرهم، والتي ما لبثت، في بحثها عن صيغة مؤسسيّه داخل المرفق الجامعي، أن وفّقت في انشاء معهد البحوث الاجتماعية بجامعة جوتة في مدينة فرانكفورت، بفرض تنظيم الجهود البحثية الفردية، وتعميق دراسة بعض من الموضوعات والقضايا الاجتماعية والسياسية(11).

قبل التكوين الرسمي للمعهد، رأس كيرت جيرلاخ K. Gerlach هذا التجمع الفكري، لكنه توفي قبل افتتاحه بقليل، فاختير لإدارته المؤرخ كارل جرونبرج K. Grenberg ما بين عامي 1923 - 1929، والذي كرّس توجهات بحوث المعهد نحو أطروحات الماركسية الأورثوذكسية، ونحو أنشطة الحركة العمالية الأوربية، وكان عضوا منخرطا في صفوفها.

وفي يناير 1931 خلفه هوركايمر، وانضم اليه معظم المفكرين المشهورين فيما بعد: فروم، وماركيوز، وأدورنو.

وقد شاء هوركايمر أن ينفتح المعهد في عهده على آفاق معرفية أخرى كالفرويدية والظاهراتية Phenomenology، وعلى مزيد من الاهتمام بالجوانب الثقافية والأيديولوجية، اتساقا مع التغيرات الاجتماعية التي انتابت ألمانيا وأوربا والغرب خلال تلك الفترة، وهو ما يشير اليه مارتن

للبحث الجاد الذي أتاح له أن يقدم بعض أهم الأعمال الفكرية في هذا العصر. أنظر:

مطاع صفدي: "الرسالة بين الأيديولوجيا واليوثوبيا" في مجلة (الفكر العربي المعاصر)، العددين 14-15، آب = أيلول 1981، مركز الانماء العربي، بيروت، ص 13.

(11) تجدر الاشارة هنا إلى أن تأسيس هذا المعهد قد اعتمد على الاعانات المالية التي قدمها له آباء مؤسسيه، ممن كانوا يمارسون الأعمال الحرة، خاصة إعانات هيرمان ڤايل، والد فيلكس ڤايل، وهو ما مثل عاملا مهما في استقلال هذا المعهد.

والملاحظ أنه حين انتقل المعهد الى خارج ألمانيا، وجد أعضاؤه مساعدات مادية ومعنوية من قبل أصدقائهم، أعانتهم على مواصلة العمل.

جاي بقوله، أنه: "اذا كان من الممكن الحديث بأن المعهد قد اهتم أساسا خلال سنوات تكوينه الأولى بتحليل البنى الاجتماعية الاقتصادية للمجتمع البورجوازي، فقد وجّه اهتمامه بعد عام 1930 إلى بناه الفوقية الثقافية"[12].

ومع استيلاء هتلر على الحكم في ألمانيا، أغلق المعهد وصودرت مكتبته، وغادر أعضاؤه، معظمهم من اليهود، عام 1933 إلى بعض العواصم الأوربية، وأنشأوا فرعا له في جنيف أطلقوا عليه (المؤسسة العالمية للبحث الاجتماعي)، وكوّنوا له ادارة جماعية، اضافة إلى فرعين آخرين له في لندن وباريس.

وبسبب التوسّع النازي، اضطر هؤلاء المفكرون ثانية الى مغادرة أوربا عام 1934، متوجهين الى الولايات المتحدة، ونقلوا المعهد معهم الى نيويورك باسم (المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي)، ليستقر بعد ذلك في الحرم الجامعي لجامعة كولومبيا. ثم ما لبثوا أن انتقلوا عام 1941 الى لوس أنجلوس.

ولاشك أن هجرة أعضاء المعهد الى الولايات المتحدة قد أثّرت الى هذا الحدّ أو ذاك في أعمالهم. لذلك فإنهم، ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية، وغروب النظم الفاشية والنازية، بدأوا تحليلا جدّيا للمجتمع الرأسمالي، الذي رأوا نمط صعوده الجديد في الولايات المتحدة، خاصة مع تنامي (المعجزة الاقتصادية) التي كوّنت رأسمالية قوية، حالت دون فعالية الطبقة العاملة في تحقيق أهدافها، وهو ما يفسّر توجه بحوث المعهد هناك الى قضايا عديدة في هذا المجتمع، كقضية السيطرة الشاملة، والقضاء على قيمة الفردية، والقهر التقني، وصناعة الثقافة.

ثم ان حصار الغُرْبة، وعدم اندماجهم مع البنى الاجتماعية الأمريكية، واعتماد اليسار الجديد وحركة تحرير السّود هناك لسياسات براجماتية

---

(12) Jay, M., Op. Cit., p. 21.

محسوسة أكثر من اهتمامهم بالتنظير، تضافرت جميعها في ابتعادهم عن الممارسة، وانكفائهم في عزلة (الفخّ) الأكاديمي، رغم انتقادهم لهذا السلوك، مما أدى الى ابتعادهم عن فكرة الوحدة بين النظرية والممارسة، والتزامهم أكثر بالتجديد النظري، وهو ما رآه البعض سببا مهما في خصوبة أعمالهم النظرية[13].

على أية حال، فقد عاد معهد البحوث الاجتماعية مرة أخرى عام 1951 الى موقعه الأصلي في مدينة فرانكفورت، حيث عُرف لأول مرة باسم (مدرسة فرانكفورت)، تحديدا لتكوينه الجديد كمدرسة نقدية، ليشهد عام 1960 حلّه ونهايته.

منطلقات فكرية:

يتعلق الأمر هنا بعدم مجيء المشروع العلمي الذي قدمته هذه المدرسة من فراغ، حيث آزرت ظهوره وتطوره ملابسات موضوعية، مثّلتها شروط مادية، وانتاج نظري مواكب لتلك الشروط، ومعبّر عن قضاياها.

فلقد تواكبت وقائع مادية بعينها على التأثير في مشروع هذه المدرسة ، منها اندلاع الحرب العالمية الأولى، وقيام الثورة البولشفية، وإخفاق الثورة في ألمانيا، وعدم نجاح الحركات الاشتراكية الراديكالية في أوربا الغربية، وظهور الستالينية في الاتحاد السوفيتي، والنظم الفاشية والنازية في إيطاليا وألمانيا، وهيمنة النظم الرأسمالية وتعزيز سيطرتها الاقتصادية والأيديولوجية، خاصة بعد خروجها من الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي مّرت بها الثلاثينيات.

وفي إهاب هذه الوقائع، تبلورت استراتيجيات نظرية، عبّرت عن الطموح الفكري لفئاتها، وتبدت في قيام تيارات نظرية متنوعة، أعادت الاهتمام بالفلسفة الهيجلية، وفي التحولات التي طرأت على الأحزاب

---

(13) Soulez, p h. : «L'école de Frankfort» in (L'Homme et La Société, N 45-46, Juillet - Décembre, Paris, 1977, p. 169.

الشيوعية في أوربا الغربية ابتداء من المؤتمر السابع للكومنترن عام 1937، والذي أدى بها الى اتباع سياسة تعاون طبقي مع البورجوازية، وكذلك في التفسيرات الأورثوذكسية للماركسية التي طرحت في ظل تعاظم الستالينية، وبزوغ فكرة (دولة الرفاهية) في الغرب. وكافة هذه الوقائع والاستراتيجيات النظرية تؤكد أن: "تفكير مدرسة فرانكفورت النقدي هو تفكير أزمة، بحسب المعنى الموضوعي للكلمة، وفي نفس الوقت، تفكير ضد القطعية dogmatism والعقائدية بالمعنى الكانطي"[14].

من هنا وجدت هذه المدرسة نفسها تضطلع بمهمة رئيسية، تخايلت لدى مفكريها أقرب الى الشهوة العارمة، هي الرغبة في صوغ أساس لنظرية وممارسة أكثر قدرة وفاعلية على تفسير الظروف التاريخية المستجدة والتعامل معها، بواسطة ممارسة نمط من النقد السلبي، يتجاوز أفكار كانط التي ساهمت في تأسيس العقلانية الحديثة، وأفكار الماركسية الأورثوذكسية التي استبعدت الذات الانسانية من حساباتها.

وهكذا اتجهت أطروحات المدرسة الى محاولة البرهنة على أن عقلانية المشروع الثقافي الغربي في جوانبه الثلاثة: كنتاج فلسفي نظري علمي، ونظم اجتماعية تاريخية، ونسق قيمي سلوكي، تؤلف جميعها أيديولوجيا شمولية متكاملة ومتماسكة، تهدف الى تبرير التسلط، وجعله عقيدة وحيدة تغطي أواليات القمع المتحققة كواقع مستمر يجمع مختلف فعاليات هذا المشروع[15].

وقد صبّ هوركايمر، المنظر الأول لفلسفة النقد، اهتمامه في الأساس على الجانب المعرفي لهذه الفلسفة، من منطلق أن العقلانية كأيديولوجيا، تستند الى يقين معرفي محدّد، يجب التصدي له واكتشاف تهافته وتسلطه، وهو ما دعاه الى اقتراح مهام أربع أساسية لهذه الفلسفة، هي:

---

(14) Abensour, M. , Op. Cit., p. 320.

(15) مطاع صفدي، مرجع سابق، ص 10.

1 ـ الكشف في كل نظرية عن المصلحة الاجتماعية التي ولّدتها، عن طريق استخدام التحليل الناقد، من أجل النفاذ الى أعماقها، في العلاقات الاجتماعية التي تتضمنها.

2 ـ تأسيس فهم جدلي للذات الانسانية، لا يتوقف عند وصف الصيرورة التاريخية للحاضر فحسب، بل ويقوم أيضا على إدراك قوتها الحقيقية المتحولة، وتأثيرها في الصراعات الواقعية لعصرنا الراهن.

3ـ والمهمة الثالثة لنظرية النقد عند هوركايمر، هي أن تظل هذه النظرية على وعي بكونها لا تمثل مذهبا خارج التطور الاجتماعي التاريخي.

فهي لا تطرح نفسها باعتبارها مبدأً اطلاقيا، أو أنها تعكس أي مبدأ إطلاقي خارج صيرورة الواقع. والمقياس الأساس والوحيد الذي تلتزم به هو أن تعكس مصلحة الأغلبية الاجتماعية وسعي الفئات المقهورة في تنظيم علاقات للانتاج، بما يحقق تطابق العقل مع الواقع، بواسطة ربط النظرية بالممارسة، في إطار نقد أيديولوجي، يتيح للانسان الكشف عن قدراته اللامحدودة، وتقديم الحلول التي تساعده على تكوين وجود حقيقي.

4ـ أما المهمة الأخيرة، فتكمن في التصدي لمختلف الأشكال اللاعقلانية التي حاولت المصالح الطبقية السائدة أن تلبسها للعقل، وأن تؤسس اليقين بها على اعتبار أنها هي التي تجسّده، في حين أن هذه الأشكال من العقلانية المزيّفة ليست سوى أدوات لاستخدام العقل في تدعيم النظم الاجتماعية القائمة(16).

وقد وجّهت هذه المهام رؤية مدرسة فرانكفورت، كما وجّهت أشكال البحث الاجتماعي التي تبنّتها وأيّدتها، انطلاقا من مناهضة الوضعية Positivism وإزاحة تصوراتها كمذهب وثقافة وأيديولوجية مسيطرة في المجتمع الصناعي المتقدم، حيث في محاولات الوضعية تشبيء الوعي الانساني واغفالها القيم باعتبارها، لديها، غير قابلة للتحقق من صحتها

---

(16) Horkheimer, M. : Théorie Critique, Payot, paris, 1981, pp. 45-59.

امبيريقيا، ومن ثم ضبطها للسلوك البشري، لا تغتصب فحسب محاولات التفكير الناقد، بل تعمل باضطراد على دعم سياسات النظم في هذا المجتمع.

تجسيدا لهذه المهام، تتالت أعمال مفكري المدرسة، حين حاول هوركايمر مع زميله أدورنو، بلورة مشروع تنوير آخر يختلف عن المشروع الأول الذي ظهر في أوربا منتصف القرن الثامن عشر(17)، حيث من رأيهما أن هذا المشروع الأول يتماثل في قسماته النهائية مع المشروع الثقافي الغربي المعاصر، في هيمنة النظم الشمولية عند كليهما، برغم مفاهيم الحرية والإخاء والمساواة والعقلانية التي قدمها(18).

أما ماركيوز، فقد ذهب بعيدا عن التمسك الحرفي بالماركسية، وأعاد طرح الهمّ المعرفي من خلال المعاناة الحضارية والثقافية، على ضوء تحولات النصف الثاني من هذا القرن، وظهور أعلى مراحل المدّ التقني، فيما اصطلح على تسميته بالعصر مابعد الصناعي Post - industrial age، نسبة الى التغير الهائل الذي أحدثته الثورة الالكترونية والمعلوماتية، وقياسا الى التقنية التقليدية السابقة. وقام بفضح وسائل السيطرة والهيمنة الجديدة داخل المجتمعات الصناعية المتقدمة، يستوي في ذلك كلا النظامين الرأسمالي والاشتراكي، كاشفا عن العقلانية التي تجسّدها هذه المجتمعات، باعتبارها وهماً يخفي لاعقلانية مستشرية، تستخدم القمع وسيلة لتقنين

---

(17) يمثل عصر التنوير منظومة أفكار الحرية والإخاء والمساوة والعقلانية والكونية والوفاق بين الشعوب، التي نمت وتطورت أساسا في فرنسا وألمانيا طيلة منتصف القرن الثامن عشر، وطبعت عصرها وما تلاه، ولعبت، خاصة في فرنسا، دورا نضاليا في التمهيد لثورتها. أنظر :
Mornet, D. : Les Origines Intellectuelles de la Révolution Française, Paris, 1984, pp. 267 - 269.

(18) Horkheimer, M. et Th. Adorno : La Dialectique de la Raison, Payot, Paris, 1983, pp. 51 - 57.

حرية الانسان والجماعة والفرد.

وحاول فروم كمحلل نفسي، المزاوجة في بحوثه بين الفرويدية و الماركسية، إثراءً للتصور الماركسي عن الطبيعة الانسانية، واستجلاءً للعلاقة بين الأساس الاقتصادي للمجتمع وبنيته الثقافية الفوقية، وان بدا أقرب الى النزعة المتفائلة، حين رأى أن المجتمع الحديث قد حرّر العلاقات الانسانية من مختلف أشكال الإرغام القرابية والعنصرية والدينية التقليدية، رغم أنه لم يقْض عليها جميعها[19].

وفي الأدب، قدم ڤالتر بنيامين واحدة من أفضل الصيغ المطروحة حتى الأن في الفكر النقدي، والتي أسست بعد ذلك الاتجاه البنيوي التوليدي في أعمال لوسيان جولدمان Gold L. mann، حين دعا بنيامين الى تجاوز ثنائية القيمة الفنية والنزعة الأيديولوجية في العمل الأدبي، باقتراح صيغة توحّد بينهما، من منطلق إدراج القيمة الفنية ضمن الموقف الأيديولوجي، عبر مفهوم (الاعتماد الوظيفي) أو (التبعية الوظيفية)[20].

وفي الفن، صك أدورنو مفهوم (محتوى الصدق truth content) باعتباره معيارا لتحديد القيمة الجمالية للأثر الفني، وأعاد إنتاج المفاهيم الماركسية في علم الجمال، ومقاييس فحص هذا الأثر، وطاقة النفي والسلب فيه وامتداداتها، ووظائفه الراديكالية داخل النظم الشمولية بأجهزتها الاعلامية وثقافتها الجماهيرية.

على أن هذه الأطروحات قد اتخذت تضاريسها في تتالي أعمال هؤلاء المفكرين، عبر محطات أربع متميزة: الأولى حتى عام 1930 في فترة تولى جرونبرج ادارة المعهد، واتسمت بطابع ماركسي ثوري، والاهتمام بنقد الاقتصاد السياسي كما تبدت في أعمال هنريش جروسمان .H

---

(19) Fromm, E. : La Crise de la Psychanalyse, Anthropos paris, 1971, p. 211.
(20) Benjamin, W.: Understanding Brecht, English translation by A. Bostock, NLB, London, 1973, pp. 85-88.

Grossmann، والثانية مع هوركايمر، وتميزت بنقد الوضعية والتأثير الأيديولوجي للعلم والتكنولوجيا، ونقد قراءات الفكر الماركسي الأورثوذكسية وممارساته التطبيقية. والثالثة في المهجر، وأولوا خلالها جلّ اهتمامهم للقضايا الثقافية المختلفة ومحاور الحياة اليومية المتباينة، بوصفها حلقات جديدة، يتم بواسطتها، وفي ثناياها، السيطرة على الانسان من قبل النظم المتقدمة.

أما المحطة الرابعة، فتتحدد بانتهاء الحرب العالمية الثانية، وعودة المعهد الى فرانكفورت، حيث بدأت المدرسة تمارس تأثيرا مهما على الفكر في أوربا والولايات المتحدة، وتثير حماسا في حركات الشباب التي تفجرت نهاية الستينيات، مع زيادة اهتمامها بقضايا التسلُّط والهيمنة، ونقد النظم السياسية والثقافية، خاصة في المجتمعات الرأسمالية، وهو ما بدا وقتها متّسقا مع التغيرات التي طرأت على هذه المجتمعات، ودورها في تهميش فعاليات الطبقة العاملة، والهيكلية التنظيمية لكافة شؤون الحياة فيها، وسطوة وسائل الاتصال، وقسر الأفراد على الانسجام المرغم مع مسلماتها الضمنية، وما ارتبط بهذه التغيرات من صراعات وقوى مستجدة.

على أنه يمكن، وبدءا من نهاية السبعينيات، ملاحظة محطة خامسة يجسّدها يورجين هابرماس، الذي حاول بلورة مشروع جديد للتنوير والعقلانية الأوربية، يستعيد به أفكار عصر التنوير الأولى التي استأصلتها النظم الكلية الغربية، بسحقها القوى المضادة لها من عمال وفقراء ومهمشين، والحضارات الأخرى التي استعمرتها في الخارج.

وقدم هابرماس هذه المحاولة عن طريق إعادة استكشاف مسار العقلانية في آفاقها النظرية، وإلغاء مركزية الفهم الذاتي Ethnologocentrism للعالم، والتي تقيم من نفسها نموذجا مطلقا تقاس عليه النمادج غير المعترف بها خارج المشروع الثقافي الغربي، وإبقاء الباب مفتوحا أمام ما يسميه بزيادة (العقل التواصلي) Communication action بين الأفراد والجماعات، كسبيل الى إكساب الديموقراطية مضمونا حياتيا ايجابيا،

يطلقها من أسْر الاعلام الموّجة والاستثمارات الطبقية والبيروقراطية. "لذلك يظل هابرماس الوحيذ الذي يعي قدرة النقد الذاتي للماركسية، وهو ما كانت مدرسة فرانكفورت قد أسسته، فاستحق انتاجه التقديرات المخلصة التي أغدقها عليه جورج ليختايم G. Lichtheim عندما قارنه عن حق بهيجل"[21].

بين النقدية والماركسية:

وثمة مسألة مهمة تطرح عادة لدى الحديث عن مدرسة فرانكفورت ونظريتها النقدية، هي علاقتها بالماركسية: ما هي طبيعة هذه العلاقة ؟ وما هي حدودها ؟ ذلك أن كتابات بعينها توحي بعد قراءتها أنها علاقة نقيضة، وأخرى تراها قوية، وثالثة تنظر اليها على أنها دعوة لإعادة بناء الماركسية، كي تتمكن من التعامل مع تغيرات استجدت، ورابعة صوّرتها على هيئة خروج من شرنقة الماركسية، خاصة وأن التعامل معها في البداية كان راسخا. فماذا تراها حقيقة هذه العلاقة ؟

تاريخيا، يمكن القول بأن النظرية النقدية تمدّ بجذورها الى الماركسية، عبر حلقات أسبوع الأعمال الماركسية، التي انبثقت منها فكرة تكوين معهد البحوث الاجتماعية.

كذلك يمكن الاشارة الى أنه خلال مرحلة التكوين، عقد المعهد علاقات قوية مع لوكاش، وكورش، حيث أخذ عنهما أعضاؤه تحليلهما لفكرة حتمية تخطي النظام الرأسمالي، التي احتلت لبّ النظرية النقدية، خاصة خلال ادارة جرونبرج للمعهد[22].

ومن الواضح أيضا أن المعهد كان مواكباً لكافة التطورات في (الاتحاد السوفيتي) بعد ثورة 1917، وأن هوركايمر حوال أن يطبق الماركسية

---

(21) Schroyer, T., Op. Cit., p. 130

(22) Zima, p., Op. Cit., p. 101.

باعتبارها فلسفة نقدية على صعيد نظرية المعرفة، واهتم مع زملائه، وبالذات بعد وصول ستالين الى الحكم، وعقد المعاهدة النازية - السوفيتية، بتوسيع الأطروحات الماركسية وتنميتها في الأصعدة النظرية والاجتماعية والنفسية، وبقدر مختلف عن التفسيرات التي قدمها لها منظّرو الأممية الثانية والثالثة، وان تم ذلك دون بلوغ حدّ التعارض معها.

من هنا يمكن الاشارة الى أن العلاقة الأولى لمفكري مدرسة فرانكفورت مع الماركسية، لم تكن انخراطا في عقيدة هلّت من الخارج، أو أنهم دخلوا الماركسية مستسلمين لكل أفكارها وممارساتها لدى النظم التي اتخذتها، بل مثلت أعمالهم نوعا من (التدخل الهجومي) في أزمة الماركسية الأورثوذكسية. هذا التدخل الذي فسّره كورش على أنه: "أخذ في الاعتبار أسباب الأزمة، دون إخفاء عمقها وتناقضاتها. فمثلما رفض هؤلاء المفكرون أطروحات الاشتراكية الاصلاحية، رفضوا كذاك أطروحات اللينينية، ولم يسقطوا في وهم إعادة بناء عقيدة أصيلة وواضحة، ولا يوجد أي عضو منهم ذهب ضحية التصور السائد بأن الاتحاد السوفيتي قد حقق الاشتراكية"(23).

هذه الملابسات أدت بمفكري فرانكفورت الى محاولة توسيع مجال النظر الى الماركسية، بواسطة إجراء مقابلات بين ماركس ومفكرين آخرين، ليس فقط بهدف توضيح مرونة أفكاره، ولكن أيضا للحصول على تعددية في الماركسية تتفادى بها الانغلاق على نفسها، وهو ما لوحظ في جمع هوركايمر بين ماركس وشوبنهور، أو مقابلة فروم بين ماركس وفرويد، أو مقابلة ماركيوز بين ماركس وهوسيرل. المهم مقارنة ماركس بآخرين اعتنوا هم أيضا بالتحرير الانساني، قصد (تنشيط) الماركسية دون السقوط في موقف عقيم، ودون تعدّ حدود ماركس نفسه(24).

---

(23) Ibid., P. 122.

(24) Abensour, B., Op. Cit., p. 320.

كذلك اتخذت هذه العلاقة شكلا آخر، في محاولة مفكري فرانكفورت البحث عن (سمات مشتركة) بين النظامين الرأسمالي والسوفيتي، وهو ما يبدو لدى هوركايمر في حديثه عن فقدان الحرية في النظام الرأسمالي، وانتشار البيروقراطية في النظام السوفيتي، باعتبارهما يحرمان الفرد من حريته الطبيعية، ويجسّدان في الوقت نفسه استبداد الدولة، وينتجان ما يطلق عليه (الدولتية الكاملة)، وهو ما يبدو في قوله: "إن الشكل الأكثر تماسكا للدولة الاستبدادية... يكمن في (الدولتية الكاملة) أو (اشتراكية الدولة)، والذي يظهر جليا في نظامي النازية والفاشية، وفي نظام النيوديل New Deol الاصلاحي، وفي الاشتراكية الستالينية على حدّ سواء"[25].

على أن هذا الشكل من العلاقة، بالغ فيه ماركيوز، حين جمع بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي، عبر ما أطلق عليه (المجتمعات الصناعية المتقدمة)، دون محاولة منه للتفريق بين نمط الانتاج الرأسمالي الذي يتغير استلاب أفراده، ونمط الانتاج الاشتراكي الذي قد يسقط، خلال الممارسة، في جانب من بنائه فترة في صرامة التفكير، ومن ثم وجب تصحيح الأمر بالنقد[26].

تنويعات:

ان تأمل العلاقة بين تطور مسار المشروع العلمي لمدرسة فرانكفورت ومحاولات تأويلها بعيدا عن الماركسية، يحمل قدرا غير قليل من المخاطرة، ولا يوفر إمكانية حكم أدق على هذا المشروع، وذلك برغم ما يقال عن أن محاولات هوركايمر الأخيرة في إرجاع قدر من الاستقلال والأهمية للبنية الثقافية الفوقية، تفسر على أنها تراجع الى نحو ما يشبه التناقض، إن لم تكن هي التناقض بعينه مع الماركسية[27]، أو أن اقتراب الكتابات

---

(25) Horkheimer, M., Op. Cit., p. 335.

(26) MacIntyre, A. : Marcuse, Fontana Books, London, 1970, p. 12.

(27) عبّر شروير عن هذا الموقف بقوله: "ان النتيجة التي انتهت اليها مدرسة

الحديثة التي أنجزتها المرحلة الأخيرة لهذا المشروع من اهتمامات الهيجليين الشبان، هي هروب من الماركسية والعودة الى (حظيرة) الفلسفة المثالية الألمانية.

ذلك أن هذا الاقتراب جاء استجابة لمظاهر الشك الذي ساور أصحاب هذه الكتابات (هابرماس، وفيلمر) في الأساس النظري للممارسة الثورية، وعبر الظروف السياسية التي ظهرت في مجرى النصف الثاني للقرن الحالي، وعبر المحاولات الدائبة لتحييد وتهميش فعاليات الطبقة العاملة، "والتي تتمثل اليوم في عدم قدرتها على أن تسمع بآذانها ما لم يسمح لها بأن تسمعه، وأن تمسك بيدها ما لم يتح لها أن تمسك"[28]، ومن ثم حاولت هذه الكتابات الرجوع الى ما يسبق الفكر الماركسي عن هذه الممارسة، باعتبارها نتاجا لوعي نقدي ثوري، وهي محاولات عنت بأن الصراع والنضال من أجل تحقيق مجتمع متحرر، يجب أن يحل على المستوى الفكري كمنطلق للممارسة، وليس من خلال النضال بالوسائل التقليدية التي تبنتها الماركسية الأورثوذكسية.

قد تختلف التفاصيل في هذه المحاولات وتتعدد الاجتهادات، لكنها، لاشك، تشير الى اهتمام مفكري المرحلة الأخيرة من مدرسة فرانكفورت

فرانكفورت تبدو متناقضة، اذ بينما يتبنى هوركايمر وأدورنو أسس النظرية النقدية، فإنهما يتراجعان في النهاية الى الصيغة الفلسفية الهيجلية للنظرية، ويتخليان عن اتجاه ماركس نحو بناء علم نقدي، أي التحليل العياني للتغيير الاجتماعي. وفي حين أنتج أدورنو خاصة، نظرية حول الأشكال الموضوعية والأنطولوجية لفلسفة الهوية، أي التطابق المنطقي بين العقلي والواقعي، فإن ماركيوز، الذي يعتبر حليف الأعضاء الآخرين للمدرسة، أي الأقرب للاتجاه الفرويدي التحليلي، أعاد انتاج صيغة أنطولوجية للنقد".

أنظر:

Schroyer, T., Op. Cit., p. 129.

(28) Habermas, J. : La Téchnique et La Science Comme Idéologie, Payot, Paris, 1983, p. 47.

بقضية علاقة النظرية والممارسة في ملابسات غروب شمس هذا القرن الخصوصية، وهو ما أشار اليه ليختايم حين رأى: "أن ارتباط الجيل الجديد من ممثلي هذه المدرسة بأتباع هيجل.. الى أن علاقة النظرية بالممارسة ماتزال معقدة، لم يستطيع الفكر الاجتماعي حسمها على مدى قرن من الزمن"[29].

وهكذا فإن تأكيد الأطروحات الأخيرة لممثلي فرانكفورت على دور الجانب الذاتي في النشاط الانساني، وإرجاعها قدرا من الاستقلال والأهمية للبنية الفوقية الثقافية، وتكريس جهودها في بلورة نمط من (النقد النقدي) Critical Critique يتجاوز الوقائع اليومية، والذي كان ماركس وإنجلز قد سخرا منه في كتابهما المشهور (العائلة المقدسة)، وفي محاولة فك (معضلة) العلاقة بين النظرية والممارسة.. كل هذا لا يعني هروبا من الماركسية، أو الارتماء في أحضان المثالية، كما صورت بعض الأقلام.

والحال أنه اذا كانت مدرسة فرانكفورت قد اكتسبت هويتها بالأساس من الفكر الماركسي، فان التطورات التالية التي جاء بها الجيل الثاني من هذه المدرسة قد أبرزت تقاسيم وتفصيلات لهذا الفكر، وكثفت حضوره لإمكان استيعاب ملابسات مستجدة، وهو ما يتضح بالأخص لدى هابرماس، الذي يبدو في أحدث دراساته (مابعدماركس) أنه لا يغمط الماركسية حقها، ولكنه يرى فيها دعوة دائمة لدراسة المتغيرات بين العامل المادي الذي أسماه (المصلحة التقنية)، والخطاب السياسي والثقافي العام الذي يلازمها[30].

لقد لعبت مدرسة فرانكفورت دورا مرموقا في تقليص هيمنة المثالية، والوضعية، والامبيريقية، وخالفت من أعطوا الماركسية بعداً ثبوتيا ونهائيا، حين رصدت علامات ثرائها، حملتها طاقة استيعاب ملابسات مستجدة،

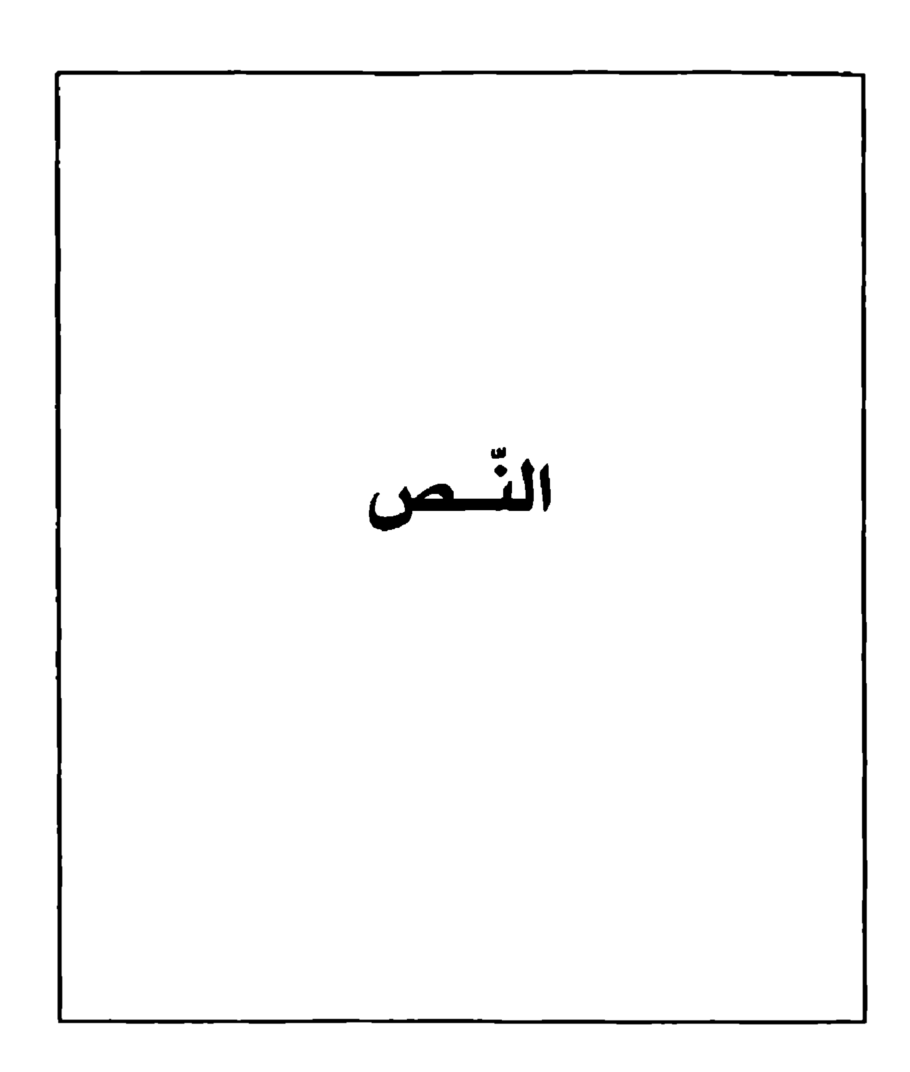
---

(29) Bottomore, T., Op. Cit., P. 20.

(30) Habermas, J. : Après Marx, Editions Fayard, Paris, 1983, pp. 58-69.

ورسّخت عبر مشروعها، تقاليد مهمة في الفلسفة النقدية، وعلم اجتماع المعرفة، والتربية، واللغة، والأدب والفن، وعلم النفس.

فالفكر، كالحرية، لايتلوّن. تلك مقولة سيّارة، ولكن رحلة هذا المشروع منذ كتابات هوركايمر وأدورنو الى تنويعاتها في أعمال اللاحقين، تقول أنها تحافظ، ولم تزل، على فاعلياتها، وأننا، من ثم، بحاجة الى قراءتها قراءة متبصرة وناقدة.



النّـص

تصدير

خلال الجيلين الماضيين، مارست مدرسة فرانكفورت في النظرية الاجتماعية الألمانية تأثيرا واضحا على علم الاجتماع. وقد كانت المدرسة في الأصل مركزا لدراسة النظرية الماركسية، ظهر الى حيز الوجود في السنوات الأولى لجمهورية ڤايمار Weimar الألمانية. ومع ذلك فإن مؤلفات أعلامها البارزة ظلت لها دائما علاقة غامضة إلى حد ما بالاتجاه السائد في الماركسية الغربية بدءا من الكتابات الاولى لماكس هوركايمر M. Horkheimer في الثلاثينيات وحتى أحدث أعمال يورجين هابرماس J. Habermas ورغم ذلك فإن تطوير "نظرية نقدية" متميزة حول المجتمع على يدي هوركايمر وتيودور أدورنو Th. Adorno، وتنقيحها بواسطة منظّري فرانكفورت اللاحقين، ألّف خيطاً من الأفكار والمفاهيم، وإن تكن غير واضحة المعالم في أحيان، مما أعطى لمدرسة فرانكفورت دورا مهما في تنامي علم الاجتماع الحديث. اذْ رغم رفض العديد من أعلام هذه المدرسة للمفاهيم الماركسية، بطريقة تنطوي الى حدّ ما على المفارقة، فإن المدرسة كانت مفيدة، خاصة في نهضة المنظور الماركسي لعلم الاجتماع الذي ترسخ أواخر الستينيات.

ومع ملاحظة الهوّة التي تفصل الكثير من أعمال مدرسة فرانكفورت عن الاتجاه السائد في النظرية الماركسية، فإنه من المثير كذلك ملاحظة

التطابقات الملفتة للنظر بين النزعة التشاؤمية الثقافية العميقة في أعمال ماكس ڤيبر M. Weber السوسيولوجية، وبالذات ما يتصل بمعالجته لعمليات ترشيد المجتمعات الحديثة، وبين النقد المتطرف للثقافة والفكر العقلاني البورجوازي الذي قدمه كل من هوركايمر وأدورنو وهربرت ماركيوز H. Marcuse، باعتباره عنصرا أساسيا في نظرية نقدية، بدءا من الثلاثينيات وحتى الستينيات.

وكما أوضح توم بوتومور عند إشارته لهذا التوافق، فإن تلك النزعة التشاؤمية قد حدث بمفكري مدرسة فرانكفورت الى التراجع عن النظرية الاجتماعية الماركسية، والاتجاه من ثم نحو نقد فلسفي وهيجلي جديد بالأساس للأيديولوجيا. وكان هوركايمر وماركيوز وأدورنو، ممن يجدر النظر اليهم على أنهم "راديكاليون يائسون"، مهتمون بتقديم نظرية حول المجتمع الرأسمالي، أكدت على ظواهره الثقافية أكثر من كافة الظواهر الأخرى. فخلال فترة صعود الفاشية Fascism في ألمانيا، وما ارتبط بها من مناخ الضياع والانحطاط الثقافي، اهتمت النظرية النقدية التي طورها هؤلاء المفكرون بظواهر اللاعقلانية المتصاعدة بشكل غامر في القيم الاجتماعية والثقافية، وبانعكاساتها في أفكار المذهب الوضعي والنزعة العلمية المغالية Scientism.

وتشارك صياغة ماركيوز للنظرية النقدية في العديد من هذه الأوجه ذات الصلة بالنقد الأيديولوجي Ideologie kritik، والمستمدة لا من الملاحظة الامبيريقية بل من التأمل الفلسفي، رغم أنه فضّل البقاء في الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن عادت المدرسة من منفاها هناك عام 1950، وكانت لديه الفرصة للانفتاح على التقاليد الامبيريقية القوية السائدة في الفكر الاجتماعي الأمريكي. وهكذا ظل كتابه (انسان البعد الواحد) One - Dimensional man، وهو بالتأكيد أشهر أعماله، يدور داخل نطاق القالب التأملي لأعمال مدرسة فرانكفورت، حيث لم تؤد طبيعته كنقد فلسفي للرأسمالية المتطورة، تلك الطبيعة التي ربما تفسر سبب شعبيته

الكبيرة، الى أية محاولات ذات مغزى في التوسع أو البرهنة الامبيريقية على الفرضية التي اشتمل عليها.

ولئن أعطى كتاب بوتومور انطباعا بأن أعمال منظري مدرسة فرانكفورت غير ذات جدوى الى حدّ بعيد بالنسبة لكل من الماركسية وعلم الاجتماع، فإنه يشير أيضا الى بعض من أسباب تعثر الأفكار التي حظيت بمثل هذا الاهتمام البحثي الجلي بأفكار هؤلاء المنظرين، حيث مثلت أعمالهم بوضوح ضربا على الوتر الحساس، في وقت كانت التفسيرات الفلسفية للمفاهيم الماركسية في أوج شعبيتها. وليس مصادفة أن الاهتمام بأعمال المدرسة قد انطلق، إن جاز التعبير، بعد عام 1968 في البلدان الناطقة بالانجليزية، حين أصبحت هناك جاذبية لا محل لإنكارها نحو التطلع الى شبه ماركسية ذات طابع فكري وثقافي متطور.

واذا كانت النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت قد وصلت الى حدّ ظهرت فيه كشكل من أشكال النظرية الاجتماعية المنفصلة أكثر فأكثر عن الماركسية منذ الستينيات، فإن هذا يرجع جزئيا الى تقاليد العودة للمفاهيم البنيوية والتاريخية للنظرية الماركسية ذاتها، تلك التي تمت صياغتها بغرض مواجهة النزعة الفلسفية المفرطة للنظرية النقدية.

وكما يوضح بوتومور في هذا الكتاب الممتاز، فإنه مع هذه العملية تنامي اتجاه متزايد لدى المنظرين النقديين الأحدث، مثل هابرماس، لوضع أعمالهم بصراحة في موقع بين الفلسفة وعلم الاجتماع، وإن جاز القول إن إمكانية نجاح مثل هذه الاستراتيجية في أن تكون فعالة تظل مسألة قابلة للنقاش، سيّما وأنها تتضمن إعطاء اهتمام أوفى للعمليات التاريخية، أو الى اختبار امبيريقي لمبادئ النظرية النقدية الجوهرية.

ان بوتومور يقدم لنا في هذا الكتاب عرضا وافيا، بطريقة أخاذة، للقسمات الأساسية التي سادت صعود وهبوط مدرسة فرانكفورت، عبر تقويم نقدي لإسهامات منظريها الكبار في النظرية النقدية.

ولاشك أن الاستنتاجات التي خلص اليها من هذا التقويم النقدي

سوف تظل مثيرة للجدل في بعض مناحيها. لكنه بتحديده أن مكمن فشل مدرسة فرانكفورت يتواجد في رفض شخصياتها البارزة الهبوط من سماء التأمل الفلسفي الى المياه الجارية للتاريخ والحقائق الامبيريقية فإن بوتومور يلمس كبد الحقيقة بكل تأكيد.

بيتر هاملتون P. Hamilton

محرر سلسلة «أعلام علم الاجتماع»

مفتتح

تمثل مدرسة فرانكفورت ظاهرة مركبة، وقد جرى شرح وتفسير نمط الفكر الاجتماعي الذي ارتبط بها في المقام الأول، أي النظرية النقدية بطرق شتى.

والأساس التنظيمي الذي تطورت هذه المدرسة بناء عليه هو معهد البحوث الاجتماعية ، الذي أنشيء رسميا بتاريخ 3 فبراير من عام 1923 بموجب مرسوم من وزارة التعليم قضى بإلحاقه ضمن جامعة فرانكفورت.

لكن هذا المعهد كان الثمرة الكبرى الباقية من مشروعات راديكالية عديدة، اضطلع بها منذ العشرينيات فيلكس ڤايل F. Weil نجل أحد تجار الحبوب الأثرياء. فقد قام صيف عام 1922 بتنظيم "أسبوع الأعمال الماركسية الأول First marxist work week" ، وكان من بين المشاركين فيه: جورج لوكاش G. Lukács وكارل كورش K. Korsch، وفردريك بولوك F. Pollock، وكارل فيتفوجيل K. Wittfogel، وتم تكريس الجانب الأكبر من أعماله لمناقشة كتاب كورش الوشيك الصدور وقتها (الماركسية والفلسفة) Marxism and philosophy. وعزم ڤايل على تنظيم مزيد من هذه الاجتماعات، لكنه عندما ظهرت فكرة إنشاء مركز أكثر استقرارا للدراسات الماركسية، أعاد توجيه جهوده وموارده المالية الى هذا

المشروع[1].

وقد جرى إنشاء المعهد في الظروف الخاصة التي خلفها انتصار الثورة البلشفية في روسيا وانتكاسة ثورات وسط أوربا، وضمنا في ألمانيا. ويمكن النظر الى هذا المعهد على أنه أحد أشكال الاستجابة للحاجة التي استشعرها الجناح اليساري من المثقفين نحو إعادة تقويم النظرية الماركسية، وبخاصة ما يتصل بتقويم العلاقة بين النظرية والممارسة في تلك الظروف المستجدة.

وبهذا المعنى، شكل المعهد جزءا من حركة فكرية أعرض، أخذت تعرف بوصفها "الماركسية الغربية" Western marxism، التي تتميز من ناحية أخرى بنظرة نقدية لتطور المجتمع والدولة في الاتحاد السوڤيتي[2].

على أن المعهد لم يؤلف مدرسة متميزة في هذه المرحلة المبكرة، اذ

---

(1) للحصول على معلومات أكثر تفصيلا عن تأسيس المعهد، يراجع:
Martin Jay : The dialectical imagination, little Brown and Company, Boston, 1973, Chapter I.

(2) عوملت الماركسية الغربية عموما باعتبارها هيكل من الفكر الذي ظهر في العشرينيات، ومارس تأثيره الأوضح في الستينيات. وتوجد مصادره في كتابات كورش ولوكاش وجرامشي وبعض من أعضاء معهد البحوث الاجتماعية في فرانكفورت، وبخاصة هوركايمر وأدورنو وماركيوز منذ العام 1950 فصاعدا.
لمزيد من الشروح المتنوعة لها، يراجع:
Andrew Arato and Paul Breines : The young Lukacs and the origins of western Marxism, Seabury press, N. Y., 1979.
- Perry Anderson : Considerations on western Marxism, New Left Books, London, 1976.
ومع ذلك ينبغي ايلاء اهتمام أكبر بشكل عام الى أن الماركسية الغربية تضم أشكالا أخرى متباعدة من الفكر الماركسي، نخص منها بالذكر المدرسة الماركسية النمسوية التي ازدهرت منذ بداية القرن حتى عام 1934، وجذبت مؤخرا اهتماما متجددا. يراجع:
-Tom Bottomore and Patrick Goode (eds.) : Austro Marxism, Oxford university press, 1978, Introduction.

علي مولا

يلاحظ مارتن جاي M. JAY، أن فكرة إنشاء مدرسة متميزة لم تظهر إلا بعد إجبار المعهد على مغادرة مدينة فرانكفورت.

بل ان مصطلح (مدرسة فرانكفورت) نفسه لم يستخدم إلا بعد عودة المعهد الى ألمانيا عام 1950[3].

ويمكن التمييز في الواقع بين مراحل أربع واضحة المعالم في تاريخ "المعهد" و"مدرسة فرانكفورت":

المرحلة الأولى، وتقع ما بين عامي 1923 - 1933 حين كانت البحوث المنوطة بالمعهد متنوعة للغاية، ولم يكن المعهد يستوحي أثناءها مفهوما معينا للفكر الماركسي كما تجسد بعدها في النظرية النقدية. ذلك أن جزءا هاما من عمل المعهد كان يحمل السمة الامبيريقية بقوة، في ظل مديره الأول كارل جرينبرج C. Grünberg الذي كان مؤرخا اقتصاديا واجتماعيا وثيق الصلة بوجهة نظر الماركسيين النمسويين[4].

وقد لخص جرينبرج بنفسه مفهومه للماركسية، كعلم اجتماعي، في خطاب تنصيبه عام 1924، ودلّل فيه على ان: "المفهوم المادي للتاريخ ليس ولا يستهدف أن يكون نسقا فلسفيا. ذلك أن هذا المفهوم ليس المجردات وانما العالم المحسوس المعطى في عملية تطوره وتغيره". ومثّل ذلك في الحقيقة المجرى الذي سار فيه العديد من باحثي المعهد في ظل ادارة جرونبرج، وحتى تقاعده عام 1929 عقب اصابته بجلطة في المخ. فعلى سبيل المثال، انخرط فيتفوجيل في دراسته حول نمط الانتاج الآسيوي، ونشر جزءا منه عام 1931 تحت عنوان (الاقتصاد والمجتمع في الصين)، كما قدم هنريش جروسمان H. Grossman تحليله عن الاتجاهات الاقتصادية للرأسمالية، نشر عام 1929 بعنوان (قانون التراكم والانهيار في النظام الرأسمالي)، واضطلع بولوك بدراسة الانتقال من اقتصاد السوق إلى

(3) Martin Jay, Op. Cit., p.XV.

(4) لمزيد من المعلومات الموجزة عن جرونبرج، يراجع:
Bottomore and Goode, Op. Cit. Introduction, pp. 9-10.

اقتصاد مخطط في الاتحاد السوفيتي نشرت عام 1929 بعنوان (تجارب في التخطيط الاقتصادي بالاتحاد السوفيتي مابين عامي 1917 -1927).

المرحلة الثانية، هي مرحلة المنفى في أمريكا الشمالية ما بين عامي 1933 - 1950 والتي ترسخت فيها بشكل حاسم الأفكار المميزة للنظرية النقدية الهيجلية الجديدة، بوصفها المبدأ الموجه لنشاطات المعهد. وكان هذا التوجه الجديد للأفكار والاهتمامات البحثية قد بدأ بالفعل قبل ذلك ببضع سنوات، خاصة تحت تأثير تعيين هوركايمر مديرا للمعهد في يوليو عام 1930.لاحظ جاي، استنادا الى خطاب تنصيب هوركايمر وعنوانه "الوضع الراهن للفلسفة الاجتماعية والواجبات المنوطة بمعهد للبحوث الاجتماعية" عام 1931 أن: "الاختلافات بين منهجه ومنهج سلفه كانت واضحة منذ الوهلة الأولى"[5]. فقد جاءت الفلسفة الآن، أكثر من التاريخ أو الاقتصاد، لتحتل المكانة الأرفع شأنا في عمل المعهد.

وتعزّز هذا الاتجاه عندما انضم الى عضويته كل من ماركيوز عام 1932 وأدورنو عام 1938، في أعقاب ارتباط فضفاض وأقل تحديدا منذ عام 1931، وفي الوقت نفسه أبدى المعهد اهتماما أكبر بالتحليل النفسي، ليظل بعد ذلك مبدأ سائدا في أعماله اللاحقة[6]. وأثناء المنفى، بدأ الأعضاء البارزين به، وبتوجيه من هوركايمر، في تمحيض آرائهم النظرية بطريقة أكثر منهجية، لتتشكل بالتدريج معالم مدرسة فكرية متميزة.

وحين عاد المعهد الى فرانكفورت عام 1950، بدأت تتضح الأفكار الرئيسية لنظرية نقدية، من خلال عدد من الكتابات المهمة، وأضحت مدرسة فرانكفورت تمارس تأثيرا جليا على الفكر الاجتماعي الألماني.

---

(5) Martin Jay, Op. Cit., p. 25.

(6) أصبح إريك فروم معاونا وثيقا مع بداية الثلاثينيات، لكن رؤيته النقدية المبالغ فيها لنظرية فرويد، ومحاولته اعطاء التحليل النفسي بُعْدا سوسيولوجيا أكبر، كانت مثار خلافات، أدت به الى قطع علاقته بالمعهد عام 1939.

وانتشر تأثيرها بعد ذلك في معظم أنحاء أوربا، خاصة بعد عام 1956، بظهور اليسار الجديد، كما امتد تأثيرها الى الولايات المتحدة حيث ظل بها عديد من أعضاء المعهد، وبخاصة ماركيوز. وشكلت هذه الملابسات معالم المرحلة الثالثة لتلك المدرسة، وهي مرحلة التأثير الفكري والسياسي الأكبر، والتي وصلت الى ذروتها أواخر الستينيات، مع النمو المتسارع لحركة الطلبة الراديكالية، رغم أن ماركيوز، أكثر من هوركايمر الذي تقاعد في سويسرا أو من أدورنو الذي أضحى أقل راديكالية بشكل ملحوظ خلال غربته في أمريكا الشمالية وفي ظل الظروف المتغيرة لألمانيا فيما بعد الحرب العالمية الثانية، هو الذي ظهر عندئذ بوصفه الممثل البارز لشكل جديد من الفكر النقدي الماركسي.

ومع بداية السبعينيات، والتي يمكن اعتبارها المرحلة الرابعة، انحسر تأثير مدرسة فرانكفورت ببطء. والحقيقة أنها كفّت أن تتواجد كمدرسة، بموت أدورنو عام 1969 وهوركايمر عام 1973. كما أنها حادت في سنواتها الأخيرة بعيدا عن الماركسية التي وهبتها الحياة في الأصل، مما جعلها، وبتعبير جاي: "تفقد الحق في أن تكون من بين فروعها المتعددة"[7].

كذلك أخذ تناولها الاجمالي للنظرية الاجتماعية في الابتعاد بشكل متزايد عن الأشكال الجديدة أو المتجددة من الفكر الماركسي. ومع ذلك شقت بعض المفاهيم الرئيسية لهذه المدرسة طريقها الى مؤلفات الكثيرين من المشتغلين بعلم الاجتماع، سواء من الماركسيين أو غير الماركسيين، كما أنها تطورت بطريقة مبدعة على يد هابرماس، فيما يتصل بنقد متجدد لشروط امكانية المعرفة الاجتماعية، وفي اعادة تقويم نظرية ماركس عن التاريخ والرأسمالية الحديثة.

من هنا سوف أهتم عبر الفصول القادمة، بالمراحل الثلاث الأخيرة من

---

(7) Martin Jay, Op.Cit., p. 296.

المراحل الأربع التي قمت بالتمييز بينها، مبتدءا بدراسة هيكل الأفكار التي كونت مدرسة فرانكفورت أصلا، لأتبعها بمقارنة تطور وانتشار هذه الأفكار في عصر مابعد فرانكفورت، بما سوف يفضي الى تقديم بعض من التأملات المستخلصة حول أهمية هذه المدرسة، ومشتقاتها، بالنسبة للنظرية السوسيولوجية في الوقت الراهن، وكذلك في علاقتها بأي منظور ماركسي لعلم الاجتماع، يمكن تصوره مستقبلا.

الفصل الأول

تكوين المدرسة

هوركايمر

في الخطاب الذي ألقاه هوركايمر بمناسبة تنصيبه الرسمي كمدير للمعهد بداية عام 1931، وفي معرض تقديمه التحية الى نشاط سلفه، أشار الى أن المعهد على وشك أن يتخذ اتجاها جديدا. فقد بدت الفلسفة الاجتماعية وقتها باعتبارها شاغله الأساسي، ولكن ليس بوصفها نظرية فلسفية في القيمة تقدم استبصارا متفوقا في معنى الحياة الاجتماعية، ولا بوصفها نوعا من تركيب النتائج لعلوم اجتماعية متخصصة، وانما باعتبارها منبعا لتساؤلات تبحثها هذه العلوم، وكإطار "لايغيب فيه الكلّ عن النظر"[1].

وعقب الثلاثينيات، طوّر هوركايمر في بحوثه التالية، مفهومه عن دور الفلسفة، مبتدءا بنقد المذهب الوضعي الحديث modern positivism والمذهب الامبيريقي empiricism، مع ملاحظة أن كلا هذين المصطلحين يستخدمان بشكل قابل للتبادل، وبخاصة حين ظهر في حلقة ڤيينا. بعدها تتابعت مساجلاته التي وردت في واحدة من مقالاته المهمة عام 1937 وعنوانها "الهجوم الأخير على الميتافيزيقا" وذلك عبر مستويين:

---

(1) Die gegenyrtige Lage der Sozialphilosophie und die Aufgaben eines Instituts für Sozialforschung.

المستوى الأول، يؤكد فيه الارتباط بين أسلوب التفكير وموقف الجماعة الاجتماعية، من خلال اطار الأفكار المشتقة من علم اجتماع المعرفة Sociology of Knowledge ومع ذلك فإنه، وخلافا لمقولات كارل مانهايم K. Mannheim مثلا، لايحاول أن يحلل العلاقة العضوية الوثيقة بين الفكر وشروطه الاجتماعية التاريخية، بل ينحو الى تبسيط هذه العلاقة وهو ما يتضح في قوله: "ان الميتافيزيقا الرومانسية الجديدة والوضعية الراديكالية على حدّ سواء، توجد جذورهما في الحالة الكئيبة الراهنة للطبقة المتوسطة"[2]، أو عندما يذكر: "ان النظام الشامل للمذهب الامبيريقي الحديث ينتمي الى عالم الليبرالية الذي ولّى"[3].

وفي المستوى الآخر، يشرع هوركايمر في نقد الوضعية بوصفها نظرية في المعرفة أو فلسفة للعلوم، خاصة فيما يتصل بالعلوم الاجتماعية، ويقدم هذا النقد عبر نقاط ثلاث أساسية:

1- أنها تعامل البشر المفْعمين بالحيوية والنشاط، بوصفهم حقائق وأشياء مجردة، داخل نطاق محدود ومخطط من الحتمية الميكانيكية.

2- أنها تتصور العالم كمعطى بشكل مباشر في التجربة فقط، مما حدا بها ألا تميز بين الجوهر والمظهر.

3- أنها تقيم تمييزا مطلقا بين الحقيقة والقيمة، ومن ثم فانها تفصل المعرفة عن المصالح البشرية.

وهكذا فإنه، ومقابل الوضعية وعلى النقيض منها، يقدم هوركايمر نظرية جدلية: "تظهر فيها الحقائق الفردية القائمة بذاتها في ترابط لا لبس فيه دائما" و"تسعى لأن تعكس الواقع في كليته". فضلا عن ذلك، فان الفكر الجدلي"، يوحّد المكونات الامبيريقية في تركيبات من الخبرة..

---

(2) Horkheimer, M.: Critical theory - Selected essays, Herder and Herder, N. Y., 1972, p.140.

(3) Ibid., p. 147.

المهمة للمصالح التاريخية التي يرتبط بها الفكر الجدلي. . فعندما يعي فرد فعال من ذوي الحس السليم Common Sense الوضع الكريه للعالم، فان الرغبة في تغييره تصبح هي المبدأ المرشد الذي ينظم به الحقائق المعطاة ويشكل منها نظرية. . وبقدر ما يعتمد التفكير الصائب على ارادة قويمة، بقدر ما تعتمد الارادة القويمة على التفكير الصائب"[4].

ويتابع هوركايمر هذه المساجلة في أشهر مقال له ظهر عام 1937، وعنوانه "النظرية التقليدية والنظرية النقدية"، وهو مقال ربما يتعين اعتباره الوثيقة التأسيسية أو الميثاق الخاص بمدرسة فرانكفورت. ففي هذا المقال يقوم بتفسير النظرية التقليدية على أنها النظرة الضمنية أو الصريحة للعلوم الطبيعية الحديثة، التي تجد التعبير عنها في بعض مذاهب الفلسفة الحديثة مثل الوضعية أو الامبيريقية. ويهتم هوركايمر قبل كل شيء بانتشار هذا المفهوم للنظرية التقليدية في علوم الانسان والمجتمع التي حاولت السير خلف قيادة العلوم الطبيعية[5].

أما النوع المضاد من الفكر الاجتماعي أي النظرية النقدية، فيرفض النهج التقليدي في تحديد الحقائق الموضوعية بمساعدة الأنساق المفاهيمية من وجهة نظر خارجية خالصة، ويدافع بالمقابل عن أن: "الحقائق في نشأتها من فعل المجتمع، ليست كلها عرضية بنفس الدرجة، حيث أنها بالنسبة للتفكير النقدي. . العالم الواسع المعرفة. . مدفوعة اليوم بالجهد المبذول حقا من أجل التفوق على التوتر والغاء التعارض بين أهداف الفرد، وعفويته، وعقلانيته، وبين هذه العلاقات المعتملة التي يقوم عليها المجتمع"[6].

---

(4) Ibid., pp. 161 - 162.

وبالطبع فإن نقد هوركايمر للوضعية، وصياغته لنظرية بديلة، هما أنفسهما عرضة لنقد أساسي، وسأتقصى هذه الانتقادات من وجهة النظر هذه في الفصول التالية.

(5) Ibid., p. 190.

(6) Ibid., pp. 209-210.

لكن كيف يرتبط الفكر النقدي في هذه الحال بالخبرة ؟ وهل هو شيء آخر أكثر من "الشعر المفاهيمي "conceptual poetry، أو التعبير العاجز عن حالات العقل ؟

لقد أرسى كارل ماركس K. Marx وفردريك انجلز F. Engels نظريتهما النقدية على وضع البروليتاريا، التي تناضل بالضرورة من أجل الانعتاق.

لكن هوركايمر، شأنه شأن لوكاش في كتابه (التاريخ والوعي الطبقي)، يؤكد بأنه حتى وضع البروليتاريا هذا: "ليس ضمانا لمعرفة صحيحة"، لأنه "حتى بالنسبة للبروليتاريا، فإن العالم، بصورة سطحية، يبدو مختلفا تماما عما هو في الحقيقة"[7]. لكنه لا يصل الى النتيجة التي استخلصها لوكاش المشارك بنشاط في الحياة السياسية، تلك النتيجة القائلة بأن الحزب الثوري يجب أن يقدم وعيا طبقيا صحيحا، أي معرفة صحيحة، الى الطبقة العاملة من خارجها.

ورغم ذلك، فثم بعض من التماثل بين آرائهما، لأنه إن أمكن استخلاص نتيجة محددة من مناقشة هوركايمر، فهي أن هناك عاملا خارجيا آخر، هو المفكر النقدي أو المدرسة النقدية في التفكير، يتعين عليه واجب تقديم هذا الوعي الى الطبقة العاملة.

وينبغي بشكل خاص ملاحظة وجهين من صياغة هوركايمر الجديدة للنظرية النقدية، والتي سيجري بحثها بتدقيق أوضح في الفصل الثالث:

الوجه الأول: أن تقويمه المهتز والمتشكك، نوعا ما، لدور الطبقة العاملة، أعطى بالفعل أساسا لتشاؤميته العميقة اللاحقة، بصدد وجود أي قوة تحررية حقيقية في المجتمع الحديث. أما الوجه الثاني، فيكمن في أن الأهمية السياسية التي عزاها الى عمل المفكرين النقديين، ارتدادا الى ما قبل المفهوم الماركسي لعمليات التغير الاجتماعي، بشكل يشبه الى حد كبير

---

(7) Ibid., pp. 213-214.

نظرة الهيجليين الشبان، من أصحاب اتجاه "النقد النقدي" في آواخر ثلاثينيات وأوائل أربعينيات القرن الماضي، تلك النظرة التي كانت موضع سخرية ماركس في كتابه "العائلة المقدسة"[8].

وعلى ما سنرى، فإن قسمات مماثلة تبدو في أعمال ماركيوز، المساهم المهم الآخر في تكوين النظرية النقدية خلال مراحلها الأولى. فقد قدم ماركيوز أيضا عبر العديد من مقالاته في الثلاثينيات، وبخاصة في كتابه (العقل والثورة) عام 1941، نظرية اجتماعية جدلية مناقضة للعلم الاجتماعي الوضعي، وبرهن كذلك، مثلما فعل هوركايمر، على أن: "الفلسفة الوضعية نزعت الى المساواة بين دراسة المجتمع ودراسة الطبيعة.. فاستوجبت أن تكون الدراسة الاجتماعية علما يسعى الى التوصل لقوانين اجتماعية، واشترطت أن تكون صحة هذه القوانين الاجتماعية مشابهة لصحة القوانين الطبيعية.

وبهذه الكيفية، اختنقت الممارسة الاجتماعية بلا رحمة، وبخاصة مسألة تغيير النظام الاجتماعي"[9].

أما نقاط الاختلاف بين ماركيوز وهوركايمر، فتبدت في تأسيس ماركيوز النظرية الجدلية، وبشكل أكثر مباشرة، على فلسفة فردريش هيجل H. Hegel التي شكلت لب أعماله كلها، اضافة إلى أن ماركيوز عمل بصورة أكبر على تحويل فكر ماركس تماما الى الهيجلية الراديكالية، ناهينا عن أنه قصر اهتمامه على أصول الفلسفة الوضعية والعلم الاجتماعي كما وردت في أعمال أوجست كونت A. Conte و شتال Stahl و ڤون شتاين Von stein خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، فيما تجاهل

---

(8) هذا ما لاحظه جورج ليختايم في عنوان مقاله، يراجع:
Lichtheim, G. : From Marx to Hegel, Orbach and Chambers, London, 1971.

(9) Marcuse, H. : Reason and Revolution - Hegel and the rise of Social Theory, Oxford university press, N. Y., 1941, p. 343.

الأشكال الحديثة للوضعية وما ارتبط بها من فلسفات للعلم ومن علوم اجتماعية حديثة.

أما إسهام أدورنو في تكوين مدرسة للنظرية النقدية، فكان غامضا ومبهماً بدرجة أكبر. فلقد كانت علاقته بالمعهد، حتى عام 1938، علاقة غير رسمية، وكانت اهتماماته الرئيسية منصّبة على مجال الثقافة وبخاصة الموسيقى، والتحليل النفسي، ونظرية علم الجمال متأثرا بما قدمه عنها ڤالتر بنيامين W. Benjamin[10]. ولم تكن النظرة الفلسفية التي طورها خلال هذه الفترة أدخل الى نظرية اجتماعية جدلية، وأنما كانت أقرب لما أطلق عليه بعد ذلك "الجدل السلبي" negative dialectics، ذلك الجدل الذي يعد نقدا لكافة النظريات الفلسفية والنظريات الاجتماعية. وتبدو هذه الأفكار لتكون شكلا من أشكال مذاهب النسبية أو مذاهب الشك، التي تنكر امكانية وجود أية نقطة بدء مطلقة أو أي أساس أولي للفكر البشري، وذلك رغم أن أدورنو حاول أن يتملص من هذه النتيجة[11]. وعلى أية حال، فان موقفه الفلسفي مختلف تماما عن موقف هوركايمر أو موقف ماركيوز، حيث حاول كل منهما صياغة نظرية اجتماعية ايجابية على أساس من التصور الهيجلي للعقل. كما كان أدورنو بعيدا عن الماركسية بدرجة أكبر من بُعد زملائه عنها. وقد عرض رأيه، عبر محاضرته الافتتاحية بجامعة فرانكفورت "واقع الفلسفة" عام 1931 في الفلسفة التي ادعى أنها جدلية ومادية في آن معا، لكنها وبتعبير بك مورس B. Morss: "لم تكن مادية جدلية بأي معنى قويم.. واختلف عن

---

(10) تراجع دراسة سوزان بك مورس:
Susan Buck - Morss : The origin of negative dialectics- Theodor W. Adorno, Walter Benjamin and the Frankfurt School Harvester press, Brighton, 1977.

(11) للحصول على نقد قوي لكتابات أدورنو الفلسفية، أنظر
Leszek Kolakowski : Main Currents of Marxism (vol. 3),Oxford University Press, Oxford, 1978, pp. 357 - 369.

ماركس طوال حياته بشكل أساسي في أن فلسفته لم تشتمل على نظرية للفعل السياسي"[12].

وفضلا عن ذلك، وعلى عكس هوركايمر وماركيوز اللذين تخليا فقط عن ايمانهما المسوّغ بالامكانية الثورية للطبقة العاملة، يبدو أن أدورنو لم يول أي اهتمام جدي على الاطلاق لتحليل ماركس الاقتصادي وعلاقته بنظريته عن الطبقات، كما رفض بشكل كامل فكرة نظرية للتاريخ أو علم للتاريخ، وهو الأمر الذي يشكل واحدا من العناصر الأساسية في فكر ماركس. ولم يستبق أدورنو، منذ اتصاله المبكر بكتابات لوكاش، سوى: "المستوى السلبي من النقد الأيديولوجي، نقد الوعي الطبقي البورجوازي"[13]، بينما لم يحتفظ ببرنامج الفعل السياسي المرتكز على تفسير هيجلي ماركسي للتاريخ.

والحقيقة أن النقد الثقافي يمثل الاسهام الرئيسي لأدورنو في النظرية النقدية، وهو ما يوضحه في المقام الأول البحث الذي كتبه مع هوركايمر، ونشر بعنوان (جدل التنوير) عام 1944[14].

والفكرة الأساسية لهذا الكتاب، والتي تمت صياغتها في مقدمته، هي التدمير الذاتي للتنوير، أي التدمير الذاتي للعقل مُدْرَكاً باعتباره معالجة نفي نقدي للحقائق، من خلال الوضوح الزائف المتعين في الفكر العلمي والفلسفة الوضعية للعلم، وحيث يظل هذا الوعي العلمي الحديث بمثابة المصدر الرئيسي للانحطاط الثقافي، وكنتيجة له: "تغرق البشرية في نوع جديد من البربرية بدل أن تدخل الى حالة انسانية حقيقية". وهكذا يستمر نقد الوضعية في الجزء الأول من الكتاب، فيربطه بنقد العلم والتكنولوجيا، وهو النقد الذي ينذر بالتعامل اللاحق معهما بوصفهما

---

(12) Susan Buck - Morss, Op. Cit., p. 24.
(13) Ibid., p.26
(14) English edition, Herder and Herder, N. Y., 1972.

أيديولوجيات، تجعل من الممكن تكوين أشكال جديدة من الهيمنة وتساعد على نموها. أما نقيض الفكر العلمي، فيقدمه الفن الذي "يطرح حق المطالبة بجلال المطلق.. بوصفه تعبيرا عن الكلية"[15].

والمقال الثاني المهم في الكتاب، مكرّس لموضوع أضحى واحدا من الشواغل الرئيسية لمدرسة فرانكفورت، وأعني به "صناعة الثقافة" culture industry أو "التنوير كخداع للجماهير". والمحاجّة المقدّمة هنا ليست هي فرضية ماركس القائلة بأن "الأفكار السائدة في كل عصر هي أفكار الطبقة السائدة، وأن التكنولوجيا الحديثة يجب النظر اليها على أنها زادت التأثير الذي غرست به هذه الأفكار في المجتمع ككل"، وتلك فرضية ينبغي التحقق منها بالدراسات الامبيريقية. ففي مقابل هذه النظرة الماركسية، يرى أدورنو، بالأحرى، أن التكنولوجيا والوعي التكنولوجي قد أنتجتهما ذاتهما ظاهرة جديدة في شكل ثقافة جماهيرية mass culture نمطية ومنحطة، تجهض النزعة النقدية وتخرسها، ويتناقض مفهوم أدورنو عن هذه الثقافة الجماهيرية بشكل لافت مع رأي بنيامين، الذي اثرت أعماله بعمق على نظرية علم الجمال في مرحلة أسبق.

اذ اعتبر بنيامين أن "إعادة الانتاج الآلي" كان له مغزى ثوريا بقدر ما اتجه الى تحطيم الهالة النخبوية للفن، وبقدر ما أدى الى التحطيم الهائل للعرف.

وقد كان جذر الخلاف الذي تطور في الثلاثينيات بين أدورنو وبنيامين جذرا سياسيا كما أوضح بك مورس، حين ذكر أن: "بنيامين عبّر، بتأثير من برتولد بريخت B. Brecht، عن التضامن مع الطبقة العاملة ومع الحزب الشيوعي، بتأكيده على مفهوم الذات الثورية الجمعية"[16]، وهو

---

(15) Ibid., p. 19.

(16) Susen Busk-Morss, ob. Cit., chepters 9 - 10.

ويراجع أيضا الحوار مع والتر بنيامين حول علاقته بمدرسة فرانكفورت في كتاب ديف لانج، خاصة الفصل السادس:

المفهوم الذي عارضه أدورنو بعد ذلك تماما.

والاهتمام الطاغي لمدرسة فرانكفورت بالظواهر الثقافية، أي بتجليات ومنتجات الوعي البشري، تضمن أيضا اهتماما خاصا بالفرد كمركز للفكر والعمل، وحوى كذلك الاهتمام بعلم النفس، سيما التحليل النفسي.

ووفقا لرأي جاي: "فإن هوركايمر استمد من دراساته المبكرة لإمانويل كانط E. Kant ، حساسية بإزاء أهمية الفردية، كقيمة لا ينبغي طمسها على الاطلاق تحت متطلبات الجماعة"، وقدم "إشادة مسوغة بالتأكيد على الفردية، والتي ظهرت في أعمال كل من فيلهلم ديلثي W. Dilthy وفردريك نيتشه F Nietzsche"[17].

ويمكن القول بصورة أكثر عمومية أن هوركايمر كان متعاطفا مع بعض أوجه فلسفة الحياة Lebenphilosophie كما كانت تسمى في ألمانيا، والتي أصبح أحد أشكالها معروفا على نطاق واسع بعد ذلك باسم الوجودية Existentialism التي كانت تتشكل في ذلك الوقت، خاصة في فكر جان بول سارتر Jean - paul Sartre، بتأكيدها المماثل على الفردية.

وثمة أيضا صلة قوية ملحوظة مع الانشغال المبكر الذي أبداه ماكس فيبر بمصير الفرد في المجتمع الرأسمالي الحديث[18]، وان كان من غير الواضح أن هوركايمر أو الأعضاء الآخرين بمدرسة فرانكفورت، قد أبدوا اهتماما خاصا بأعمال فيبر قبل الستينيات، رغم أنهم قد تأثروا به دون شك[19].

Dave laing : The marxist theory of Art, Harvester press, Brighton, 1978.

(17) Martin jay : dialectical Imagination, little Brown and Company, Boston, 1973, pp 46, 49.

(18) لمزيد من التفاصيل، يراجع عمال كارل لويس:
Karl löwith : Max Weber and karl marx, Allen and Unwin, London, 1982.

(19) المناقشة النقدية الرئيسية لفيبر، من جانب آخر تماما، هي تلك التي أجراها

وقد برهن هوركايمر أيضا، في مقال له عن التاريخ وعلم النفس، نشر في العدد الأول من صحيفة المعهد (Zeitchrift für Sozial forschung)، على أن علم نفس الفرد يكتسب أهمية متعاظمة في فهم التاريخ [20].

وفي نفس المسألة، صدر مقال آخر لإريك فروم E. Fromm[21]، يشرع في انشاء علاقة بين التحليل النفسي والماركسية، عن طريق توسيع تفسيرات سيجموند فرويد S. Freud فيما يتعلق بالفرد، لتشمل الموقع الطبقي للأسرة والوضع التاريخي للطبقات الاجتماعية. وتابع فروم في أعماله اللاحقة هذا الهدف الرامي الى اقامة علم نفس اجتماعي ماركسي، يمكن أن تندمج فيه نظرية فرويدية معدّلة، وبخاصة في نموذجه عن "الشخصية الاجتماعية"، التي صاغها في ملحق كتابه (الخوف من الحرية)[21]. ومع ذلك توقف فروم في ذلك الوقت عن اقامة أية علاقات مع المعهد. فقد كان تفسيره السوسيولوجي الجديد، والذي يعد أكثر امبيريقية وأكثر ماركسية للتحليل النفسي، موضع نقد كل من أدورنو وماركيوز بعد فترة وجيزة[22].

وهكذا ظل الاهتمام الرئيسي لمدرسة فرانكفورت منصبّا على مجال علم النفس الفردي. ومع صعود الاشتراكية الوطنية في ألمانيا، تركز هذا

ماركيوز في مقاله الصادر عام 1964 عن "التصنيع والرأسمالية. يراجع:
Otto Stammer (ed.) : Max weber and Sociology Today, Blackwell, Oxford, 1971.

أنظر أيضا: ص ص 36-37 في هذا الكتاب.

(20) Horkheimer, M.: «Geschichte und Psychologie» in (Zeitschrifd für Sozialforschung), vol. I, N. 1-2, 1932.

(21) Erich Fromm : «The method and function of an analytic social Psychology- Notes on Psychoanalysis and Historical Materialism» in (The crisis of Psychoanalysis),Holt, Rinehart and. Winston, N.y., 1970.

(22) Erich Fromm: The fear of freedom, Routledge and Kegan Paul, London, 1942, pp. 239-253.

الاهتمام على مسألتين محددتين: سمات الشخصية فيما يتعلق بالسلطة، ومعاداة السامية. وبدأ المعهد بالفعل، بالنسبة للمجال الأول، بصوغ مشروع بحثي عن مواقف العمال في بداية الثلاثينيات، تحت ادارة فروم. لكن هذا البحث لم يقدر له الظهور، وان تم نشر احدى دراساته حول موضوع "الشخصية الاستبدادية"، قدمت كعمل جماعي عام 1936[23].

يتألف القسم الأول لهذه الدراسة من ثلاثة مقالات نظرية طويلة، قدمها هوركايمر وفروم وماركيوز، ويتضمن القسم الثاني سلسلة من الدراسات الامبيريقية المنفصلة. ويبدو الخلاف ملحوظا بين هذه المقالات الثلاثة، حيث أن مقال ماركيوز، الذي كان اطلاعه على التحليل النفسي في ذلك الوقت محدوداً للغاية، يدور في اطار المناقشة التاريخية الفلسفية لأفكار الحرية والسلطة. لكن هوركايمر عبّر عن النهج العام للكتاب بوضوح، في المقدمة وفي مقاله، حيث عرض لأسباب التركز على الأوجه الثقافية للمجتمع الحديث، أي على تكوين الأفكار والمواقف، وبخاصة على دور الأسرة ثم مؤخرا وبدرجة أكثر على المؤسسات الاجتماعية الأخرى، في خلق شخصية استبدادية.

وفي المرحلة التالية من عمل المعهد في المنفى، اندمجت تلك التحليلات الخاصة بدراسة النزعة الاستبدادية في مشروع بحثي واسع النطاق عن معاداة السامية أساسا، أطلق عليه "درسات في التحيز". وقد أسفر هذا المشروع عن صدور خمس دراسات مترابطة، أشهرها دراسة (الشخصية

---

(23) لمزيد من التفصيل، يراجع:
-Theodor Adorno : «Social science and sociological tendencies in Psychoanalysis», 1946, unpublished paper.
-Max Horkheimer and Theodor W. Adorno (eds): «German Version in Sociologica II, Reden und Vorträge, Europaïsche Verlagsanstalt, 1962.
-Herbert marcuse : Eros and Civilization - A philosophical inquiry into Freud, Beacon press, Boston, 1955.

الاستبدادية) Authoritarian personality[24]. وكان لهذه الدراسة تأثير ملحوظ، أدى الى ظهور المزيد من البحوث. ورغم ذلك، فإن معظم هذه البحوث بدت قليلة الارتباط، أو لم تكن لها علاقة على الاطلاق بالنظرية النقدية[25].

وأحد القسمات البارزة لهذه الدراسات، هو الاهتمام الكلي تقريبا بالتفسيرات الذاتية والنفسية للتحيز، ومن ثم كان بامكان اثنين من نقاد دراسة الشخصية الاستبدادية الاعتراض على أن مؤلفيها: "نزعوا اللاعقلانية من سياقها الاجتماعي، وعزوها إلى المدّعى عليه"[26].

وقد ووجهت مثل هذه الانتقادات بردّ مفاده أن هوركايمر وأدورنو قدّما في موضع آخر تفسيرا يغلب عليه الطابع السوسيولوجي لظاهرة معاداة السامية، وبخاصة في مقال "عوامل معاداة السامية" المنشورة في كتاب (جدل التنوير)، حيث كتب فيه على سبيل المثال، أن: "معاداة السامية البورجوازية يكمن وراءها سبب اقتصادي محدد، هو اخفاء الهيمنة في الانتاج". لكنهما لم يتواصلا مع الموضوع بأي قدر من العمق، كما أن المقال اهتم بدرجة أكبر، بتشكل المفاهيم والمواقف التي يمكن تفسيرها بطريقة التحليل النفسي.

ومع ذلك فإن أكثر ما يلفت النظر في تحليل هوركايمر وأدورنو للفاشية وبشكل خاص وأوضح في تحليلهما للاشتراكية الوطنية في ألمانيا،

---

(24) Studien über Autoritat und familie, Felix Alcan,paris, 1936.

(25) Theodor W. Adorno, Else Frenkel - Brunswik, Daniel J. Levinson, and R. Nevitt Sandford : The Authoritarian Personality, Harper and Row, N.Y., 1950.

(26) للحصول على معلومات عن بعض هذه البحوث، بالاضافة إلى تعليقات نقدية على الدراسة الأصلية، يراجع:

Richard Christie and Marie Jahoda (eds) : Studies in the scope and method of «The Authoritarin Personality», The Free press, Glencoe, 1954.

هو أنهما أقاما علاقة تماثل وتطابق بينها فعليا وبين معاداة السامية، أو على الأقل أنهما ذهبا الى النظر اليها كلية من هذا المنظور الضيق. وبهذا الصدد، يتناقض بحثهما بصورة حادة مع الدراسة الماركسية الكلاسكية للاشتراكية الوطنية التي قام بها فرانز نيومان F. Neumann بعنوان (بيهموت) Behemoth، والتي خلصت الى أن: "الاقتصاد الألماني الحالي هو اقتصاد احتكاري واقتصاد سلطة، فهو اقتصاد رأسمالي خاضع للدولة الشمولية. ونقترح تسميته "الرأسمالية الاحتكارية الشمولية" كأحسن تسمية لوصفه"[27].

وقد جرى السّجال في بعض الأحيان على أن نيومان قدّم مدخلا ثانيا داخل نطاق مدرسة فرانكفورت لدراسة الفاشية. لكن هذا السجال مضلل، لأن نيومان كان باختصار عضوا في المعهد خلال الفترة مابين عامي 1936 - 1942 فقط، وكان بعيدا في توجهه النظري عن أفكار مدرسة النظرية النقدية الناشيءة. والواقع أنه انتقد في كتابه (بيهموت) بشكل صريح تحليل الاشتراكية الوطنية الذي قدمه بولوك المنتمي الى الحلقة الضيقة لمدرسة فرانكفورت، وهو التحليل الذي عرّف هذا النظام بوصفه أحد أشكال رأسمالية الدولة، حلّ فيه حافز السلطة محل حافز الربح[28]. ونظر اليه باعتباره نظاما جديدا أصبحت فيه العقلانية التقنية هي المبدأ الموجّه للمجتمع[29].

وعلى هذا النحو، وداخل نطاق هيكل من الفكر، كان ماركسيا بشكل

---

(27) Herbert H. Hyman and Paul B. Sheatsley : «The Authoritarian Personality - A methodological critique» in R. Christie and M. Jahoda, Op. Cit.

(28) Franz Neumann:Behemoth-The structure and practice of national Socialism, Oxford university press, N.Y. 1942 New Edition 1944, p. 261.

(29) Friedrich Pollock : «State Capitalism -Its possibilities and limitations» in (Studies in Philosophy and Social Science), Vol. IX, N. 2, 1941.

عام، أو على الأقل مشتقا من الماركسية، تمت صياغة تعريفين متباعدين تماما للاشتراكية الوطنية: أولهما، تعريف نيومان الذي نظر الى النظام الشمولي على أنه يتوافق مع مرحلة معينة من التطور الاقتصادي للرأسمالية، هي مرحلته الاحتكارية الأخيرة. وثانيهما، تعريف هوركايمر وبولوك الذي عالجه باعتباره نمطا جديدا للمجتمع، يتسم بأولوية السياسة على الاقتصاد، وبالهيمنة التي تتم ممارستها من خلال العقلانية التقنية، ومن خلال المشاعر والمواقف اللاعقلانية بين الجماهير، من معاداة السامية[30].

لقد كان كتاب (دراسات في التحيّز) بمثابة استقصاءات امبيريقية. وعلى ما رأينا، كان هوركايمر قد بدأ، مع توليه منصب مدير المعهد، دراسة امبيريقية عن مواقف العمال في ألمانيا. ووضحت في المنفى مسألة العلاقة بين النظرية النقدية والبحث الامبيريقي بصورة أكثر حدّة، حيث أن تطوير مدرسة متميزة في النظرية الاجتماعية، معادية للوضعية والامبيريقية، ظهر في محيط كانت العلوم الاجتماعية موجهة فيه، وبالأساس، الى الاستقصاءات الامبيريقية. لكن الأعضاء البارزين بالمعهد ظلوا بعيدين إلى حدّ كبير عن هذا التيار الرئيسي للعلم الاجتماعي الأمريكي، ويرجع الفضل في تمكنهم من ذلك الى استقلالهم المالي. ولهذا استمرت مثلا صحيفتهم في الصدور باللغة الألمانية أساسا حتى عام 1939، عندما تغير اسمها بعد ذلك إلى "دراسات في الفلسفة والعلم الاجتماعي"، كما حافظوا على علاقاتهم الوثيقة مع أوربا، وبخاصة ألمانيا، بقدر ما سمحت الظروف. ومع ذلك اشترك أعضاء المعهد آخر الأمر في البحث الامبيريقي بسبل شتى، وبالذات من خلال العلاقة مع بول لازارسفيلد P. Lazarsfeld، وكذلك من خلال مشروع (دراسات في التميز)[31]. وكانوا مجبرين أن يضعوا في اعتبارهم، بشكل مباشر وأكبر،

---

(30) Idem : «Is National Socialism a new order ?» in (Studies in Philosophy and Social Science), vol. IX, N. 3, 1941.

(31) بالطبع كانت هناك أيضا تحليلات ماركسية للفاشية، جذبت الانتباه الى عناصر

العلاقة بين النظرية والبحث، في اطار مخطط الفكر الذي أكد على أولوية النظرية.

على أنه يجوز القول بأن هذه المسألة لم تكن مستكشفة بتفصيل أَوْضح، أو بطريقة منهجية، من جانب أعضاء المدرسة خلال فترة تشكلها. فعلاوة على التمييز العابر، والذي لم يحظ بتوضيح خاص من جانب هوركايمر، بين المنهج الاستقرائي التقليدي والمنهج الملائم للنظرية النقدية، بما يوجب عليه أن يبحث عن الكلي ضمن نطاق الخاص[32]، كان هناك في الواقع محاولة محدودة لربط نظرية المجتمع، على النحو الذي عرضت به في (جدل التنوير)، بالبحث الامبيريقي للمعهد، الذي يبدو أنه تم تقييده في حدود مجال مستقل. وكان الدافع لهذا التقييد يكمن من جهة في الانشغال الغامر بمسألة معاداة السامية، ومن جهة أخرى في الأزمة المالية التي حتمت الحصول على منحة كي يستمر المعهد في الوجود[33]. وبعد ذلك بفترة، قام أدورنو، الذي لم تطرح اسهاماته في دراسة (الشخصية الاستبدادية) أية مسائل نظرية مهمة، بعرض موقفه بصورة أكثر اكتمالا حول البحث الامبيريقي، وبالذات في تأملاته عن خبراته كباحث أوربي في أمريكا[34]، وفي اسهاماته التي قدمها في عمله (الجدل حول المذهب الوضعي)[35] إلا

اضافية اشتملت عليها إبان صعودها، منها على سبيل المثال:

-Otto Bauear : «fascism», 1938, English translation in Bottomore and Good (Austro - Marxism), Oxford university press, Oxford, 1978.

(32) - Leon Trotsky : The struggle againest Fascism in Germany - Articles of 1930 - 1933, Pathfinder, N.Y., 1971.

للحصول على مزيد من المعلومات، يراجع

Martin Jay, Op. Cit., pp. 189 - 193 and Chapter 7.

(33) Max Horkheimer : «Notes on Institute Activities» in (Studies in philosophy and Social Science), vol. IX,N. I, 1941.

(34) Martin Jay, Op. Cit., pp. 220 - 221

(35) Theodor Adorno : «Scientific Experiences of a European scholar in America» in (The Intellectual Migration - Europe and America - 1930/

أن هذه الأعمال تنتمي الى المرحلة التالية، التي تمثل العصر الذهبي لمدرسة فرانكفورت، وهو ما سنقوم بدراسته في سياق أوسع في الفصل القادم.

ومع نهاية الأربعينيات، بدت تتضح قسمات نظرية اجتماعية جديدة، أو فلسفة اجتماعية جديدة، عبر نصّين مهمين، هما: (جدل التنوير)، وبحث ماركيوز (العقل والثورة)، اضافة الى عدد من المقالات التي أوضحنا اهتماماتها الرئيسية من قبل. ففي هذه الأعمال، احتل نقد ومعارضة الوضعية والامبيريقية، وبشكل أكثر عمومية، احتل نقد ومعارضة أي تعريف للعلم الاجتماعي، مكانا بارزا. ومقابل الوضعية، ظهرت مقولة "العقل "كفكرة فلسفية، باعتبار أن هذا العقل قادر على اكتشاف جوهر الظواهر، ذلك الجوهر الذي يختلف جذريا عن المظاهر السطحية المجردة. وتم تصور العقل بمعنى هيجلي خالص، بوصفه مرتبطا تماما بالحرية. ولهذا، ومن وجهة النظر تلك، تتطابق معرفة العالم من جهة، والتصميم على القيم الأصيلة من جهة أخرى، وهو التطابق الذي عبّر عنه هوركايمر بقوله إن "التفكير الصائب" و "الارادة القويمة" تربط بينهما علاقة مساندة متبادلة.

وهكذا اندمج نقد الوضعية، أو لنقلْ بصورة أفضل: نقد النزعة العلمية المغالية، مع التقويم النقدي للعقلانية العلمية والتقنية باعتبارها شكلا جديدا من أشكال الهيمنة التي ميزت الرأسمالية الأكثر تطورا، أو بشكل أوسع تلك المجتمعات الصناعية المتقدمة في القرن العشرين.

ومّثل ذلك جانبا واحدا من التأكيد المتزايد لمدرسة فرانكفورت على الأيديولوجيا كقوة كبرى، ان لم تكن القوة الأكبر التي تطيل من أمد

1960), Donald Fleming and Bernard Bailyn (eds) Harvard university press, Cambridge - Mass., 1969.

(36) Theodor Adorno et al. : The Positivist Dispute in German Sociology, 1969, English translation, Heinemann, London, 1976.

الهيمنة، ومن ثم التأكيد على نقد الأيديولوجيا كعامل هام في عملية الانعتاق.

أما الجانب الآخر لتأكيد المدرسة، فقد انصب على تحليل ونقد المعتقدات والمواقف اللاعقلانية في المجتمع الحديث، وبخاصة للشكل الذي اتخذته معاداة السامية. وعزّز الانشغال الفائض بتلك المسائل اهتمام المدرسة أيضا بعلم نفس الفرد، وبنظرية التحليل النفسي، كعنصر ضروري في أية دراسة للعلاقة بين الظروف الاجتماعية والحركات الاجتماعية، والاهتمام الأوضح بدراسة الظروف التي أدت الى فشل الطبقة العاملة بأوربا في أن تصبح قوة ثورية، وظهور الحركات الفاشية.

وعزلت مدرسة فرانكفورت نفسها بشكل متزايد، خلال مرحلة تشكّلها، وبدرجة أكبر في المراحل اللاحقة، عن نظرية ماركس وعن الماركسية الكلاسيكية، متخلّية بذلك عن أجزاء كبيرة وحاسمة من هذه النظرية، دون أن تخوض غمار مواجهة منهجية معها. ولم تخضع الماركسية إلا في تاريخ لاحق فقط، تمثل أساسا في أعمال هابرماس، لفحص دقيق واعادة بناء صارمين. لكن ذلك ينتمي الى مرحلة متميزة للنظرية النقدية، هي مرحلة مابعد الماركسية ومابعد مدرسة فرانكفورت، التي ستكون موضوع فصل قادم.

الفصل الثاني

ذروة ازدهار النظرية النقدية

مع عودة المعهد الى فرانكفورت عام 1950، سادته بشكل كامل أفكار هوركايمر وأدورنو، وبدرجة أكبر أدورنو على وجه الخصوص، بالنظر الى غياب هوركايمر المتكرر ما بين عامي 1954-1959. واتخذ المعهد في صورته المجدّدة سمة مدرسة فكرية واضحة المعالم، وبخاصة كمدرسة للفلسفة ونظرية علم الجمال، وهما المجالان اللذان شكّلا الاهتمام الأوْلى لأدورنو. ويتضح هذا التوجه المتميز للمعهد أيضا في أعمال الجيل الثاني من العلماء الذين انتسبوا اليه، وكان من أبرزهم يورجين هابرماس وألفريد شميت A. Schmidt وأولبرخت ڤيلمر A. Wellmer، وجميعهم يشتغلون بالفلسفة. ومن بين الأعضاء الأقدم في المعهد الذين استقروا في الولايات المتحدة الامريكية، يمكن على الأقل اعتبار ماركيوز الشخصية المرموقة في المدرسة الجديدة، برغم الخلافات التي ظهرت في وقت لاحق بين أتباعها الأوربيين والأمريكيين، وبالذات فيما يتعلق بالعمل السياسي.

وخلال الخمسينيات والستينيات، أصبحت الشخصية الفلسفية للمدرسة بارزة بشكل أكثر رسوخا، ورغم الحقيقة المتمثلة في أن أدورنو تبنى لدى عودته الأولى الى ألمانيا استخدام المناهج الامبيريقية، علما بأن ذلك لم يكن بهدف اختبار النظريات، وحاول البرهنة على أن علم الاجتماع لم يعد يتعين النظر اليه كعلم ثقافي Geistewissenschaft، ينبغي ملاحقته بتفسير

المعنى[1]. ومنذ الوقت الذي قدم فيه أدورنو بحثه الى المؤتمر الدولي الرابع لعلم الاجتماع عام 1959، فانه استأنف نقده لما أسماه علم الاجتماع "غير الفلسفي" و "غير النظري"، الذي: "يرفع اعادة الانتاج المبسّط لما هو موجود، في حدود بنيته المجردة من المقولات، الى مرتبة المثال.. حيث أن الوضعية موقف لا يتشبث فقط بما هو مُعطى، وانما يتخذ منه أيضا نظرة وضعية"[2]، كما أصبح الهجوم على الوضعية هو الفكرة المهيمنة على أعماله في العقد التالي.

ولم يؤد نقد الوضعية والامبيريقية، ومحاولة صوغ اطار معرفي ومنهجية بديلتان للنظرية الاجتماعية، الى توفير الأساس فقط لنظرية مدرسة فرانكفورت حول المجتمع، وانما أدى أيضا الى تقديم جزء كبير من جوهر هذه النظرية عبر ثلاثة عقود من الزمان، بدءا من مقال هوركايمر عن النظرية التقليدية والنظرية النقدية عام 1937 إلى السجال حول الوضعية عام 1969، وهو الجوهر الرئيسي لمذهبهم الذي يجب اختياره الآن بإحكام أوفى.

وبكلمات عامة، يمكن القول إن نقدهم كانت له ثلاثة أوجه متميزة سأتناولها تباعا:

أول هذه الأوجه، أن الوضعية نهج غير ملائم، ومضلّل، لا يحقق، ولا يمكنه أن يحقق، مفهوما أو فهما حقيقيا للحياة الاجتماعية.

وثانيها، أن الوضعية في إيلائها العناية لما هو موجود فقط، فإنها تقرّ النظام الاجتماعي القائم، وتعترض سبيل أي تغيير راديكالي له، بما يعني أنها تؤدي الى التصوّف السياسي.

---

(1) Adorno : «Zur gegenwrtigen stellung der empirischen sozialforschung in Deutschland», Empirische Sozialforschung, Frankfurt, 1952.

(2) Transactions of the fourth world congress of Sociology, International Sociological Association, London, 1959, Vol. I, pp. 38 - 39.

وثالثها، أن الوضعية ترتبط بشكل حميمي مع ابقاء أو انتاج شكل جديد من الهيمنة، هي الهيمنة التقنية، بل انها في الواقع بمثابة عامل هام من عوامل إبقاء أو انتاج هذا الشكل الجديد من أشكال الهيمنة.

والواقع أن مفكري مدرسة فرانكفورت استخدموا في نقد الوضعية بوصفها نظرية للمعرفة وفلسفة للمجتمع، مفهوما متقلبا وتعوزه الدقة لصالح نقدهم[3].

من هنا نجد أن ماركيوز في كتابه (العقل والثورة) قد ركز اهتمامه على وضعية كونت، ونظيرتها الألمانية التي ظهرت في أعمال شتال ولورنز ڤون شتاين، باعتبارها "ردّ فعل واع على الاتجاهات النقدية الهدامة للمذهب العقلاني الفرنسي والألماني"[4]، أو باختصار، باعتبارها مذهبا للثورة المضادة.

أما هوركايمر، فقد انتقد الوضعية بشكل أشمل كفلسفة للعلم، في مقاليه الهامين اللذين نشرا عام 1937[5]، وبخاصة "الوضعية المنطقية" logical positivism أو "المذهب الاميريقي المنطقي" الذي ظهر في حلقة ڤيينا. وكان نقده موجها بشكل عام الى كافة صور النزعة العلمية المغالية، أي ضد فكرة المنهج العلمي الشامل، الذي تشترك فيه العلوم

---

(3) كما لاحظ رسل كيت R. Keat، فانه: "على الرغم من الأهمية الكبرى التي علقها المنظّرون النقديون على نقد الوضعية، فان إحدى المهام القليلة التي ظهرت بوضوح من عملهم في هذا الصدد، هو غياب أي مفهوم واضح لمكونات الوضعية". يراجع:
Keat, R. : The politics of social theory, Basil Blackwell Oxford, 1981, p. 12.

(4) Marcuse, H. : Reason and Revolution - Hegel and the rise of social theory, Oxford university press, N. Y., 1941, P. 325.

(5) Horkheimer, M.: «The latest attack on Metaphysics and traditional and critical theory» in (Critical theory- Selected essays), Herder and Herder, N. Y., 1972.

الطبيعية والعلوم الاجتماعية على حدّ سواء، وهي الفكرة التي عبّر عنها أعضاء حلقة ڤيينا في مشروعهم "العلم الموحد" unified science[6]. كما كان نقده موجها بشكل خاص ضد ادعاء هذه النزعة العلمية المغالية بأن العلم هو "المعرفة والنظرية"، وضد انتقاصها من شأن الفلسفة: "أي انتقاصها من شأن كل موقف نقدي تجاه العلم". ومضى هوركايمر الى القول بأنه "صحيح أن أي موقف متضارب بوضوح مع الآراء العلمية المحددة ينبغي اعتباره موقفا زائفاً..

لكن الفكر البناء يجمع معا مفاهيم من مختلف فروع المعرفة، وينسجها داخل النموذج الصحيح للموقف المعْطى. والارتباط الايجابي بالعلم لا يعني أن لغة العلم هي الشكل الصحيح والمحكم للمعرفة.. فمن السذاجة والتعصب أن نفكر ونتكلم فقط بلغة العلم"[7].

والتناقض الذي يقيمه هوركايمر بين النظرية التقليدية والنظرية النقدية يبدأ من مفهوم عن العلم كنشاط اجتماعي. فالفكرة التقليدية عن النظرية تتطابق مع النشاط العلمي للباحث داخل تقسيم العمل، "الذي يجري بجانب النشاطات الأخرى للمجتمع، لكن دون ارتباط واضح فوري معها، ودون أن توضح الوظيفة الاجتماعية الحقيقية للعلم". وهذا "الوعي الزائف للباحث البورجوازي في العصر الليبرالي" يجد التعبير عنه في فلسفات شتى للعلم، وبخاصة لدى اتجاه الكانطية الجديدة لمدرسة ماربورج marburg school[8].

ومن جانب آخر، يعترف المفكرون الذين يتبنون موقفا نقديا: "بالسمة

---

(6) لمزيد من التفصيل، يراجع:
Neurath O. : «Unified science as Encyclopedic integration» in (Foundations of the unity of science), O. Neurath, R. Carnap and Ch. Morris (eds.), university of Chicago Press, Chicago, 1959, Vol. I, P.P 1-27.
Horkheimer, M., Op. Cit., p. 183.
(8) Ibid., pp. 197 - 198

المزدوجة للكلية الاجتماعية في صورتها الحالّة" ، وبالتناقضات الكائنة داخلها، وبخاصة ما يتصل بالصراعات الطبقية. وفي حين "يوحدون أنفسهم مع هذه الكلية ويعتبرونها حتمية ومعقولة" ، فإنهم أيضا "يتعلمون بالتجربة حقيقة أن المجتمع قابل للمقارنة بالعمليات الطبيعية غير الانسانية، وبالآليات البحتة، لأن الأشكال الثقافية التي تدعمها الحرب ويغذيها الاضطهاد ليست إبداعات إرادة موحدة واعية بذاتها"[9].

من هنا، فإن: "القبول النقدي بالمقولات التي تحكم الحياة الاجتماعية، يحتوي على ادانتها في وقت واحد"[10]. ويصبح هدف النظرية النقدية جليّا، ألا وهو تحويل المجتمع وتحقيق التحرر البشري. وهذه المحاولة للتأليف بين المعرفة والغاية، بين العقل النظري والعقل العملي، أضحت الموقف الفلسفي الأساس لمدرسة فرانكفورت، ولبّ نقدها للفصل الذي تقوم به الوضعية بين"الحقيقة"و"القيمة".

ويمضي هوركايمر الى النظر للعلاقة بين النظرية التقليدية والنظرية النقدية من جانب آخر حيث: "اذا لم يأخذ الاجراء النظري للنظرية النقدية شكل الحقائق الموضوعية الحاسمة بمساعدة أبسط الأنساق المفاهيمية المتاحة، وأكثرها تمايزا، فماذا بوسعه أن يكون سوى لعبة فكرية بلا هدف؟ وسوى نصف شعر مفاهيمي، ونصف تعبير عاجز عن حالات العقل؟"[11].

وطريقة هوركايمر في حل هذه المشكلة، والتي تتطابق مع طريقة لوكاش وفي تأثرها العميق بكتابه "التاريخ والوعي الطبقي" على طول أرجاء هذا القسم من المقال، ، تتمثل في البرهنة على أن الاهتمام التحرري للنظرية النقدية يجد أساسه في موقف بروليتاريا المجتمع الحديث. والتحفظ الذي يقدمه بأن موقف البروليتاريا ليس ضمانا لمعرفة صحيحة،

---

(9) Ibid., pp. 207- 208.

(10) Ibid., pp. 208.

(11) Ibid., pp. 209.

لا يشكل أيضا انحرافا عن رأي لوكاش، الذي ميّز بين "الوعي الطبقي الامبيريقي "للبروليتاريا الذي قد يكون زائفا وبين" الوعي الطبقي الصحيح" الذي يجب جلبه للبروليتاريا من خارجها. وقد عبّر هوركايمر عن هذه الفكرة بقوله إن الوظيفة الحقيقية للمنظّر النقدي تبدو عندما تجري رؤيته هو وعمله: "باعتبارهما يشكلان وحدة دينامية مع الطبقة التي يقع عليها الاضطهاد. وعلى هذا، فان عرضه للتناقضات المجتمعية لا يكون فحسب تعبيرا عن الوضع التاريخي الملموس، وانما يكون أيضا قوة داخل نطاق هذا الوضع لحفز التغيير"[12].

أما الخلاف الرئيسي بينه وبين لوكاش، فقد تمثل في أنه على حين حدد لوكاش الموقع الاجتماعي الدقيق لهذه الوحدة الدينامية في الحزب الثوري، وهو باعتراف الجميع حزب مثالي يتناقض بشكل صارخ مع واقع الحزب البلشفي الذي كان عضوا به، فإن هوركايمر لم يقدم أي مؤشر على الاطلاق عن الموقع الذي يمكن أن يجري فيه التفاعل بين الفكر والطبقة، ويقينا فان هذا الموقع ليس في الجامعة أو معاهد بحوثها.

وفي الخمسينيات، عندما فقد هوركايمر، شأنه شأن مفكري مدرسة فرانكفورت الآخرين، ما تبقى لديه من آثار الايمان بالطاقة الثورية للطبقة العاملة، ظهر افتقار النظرية النقدية لأية أرضية في الحياة الاجتماعية الواقعية، وانساق هو نفسه على ما سنرى الى تبني تبرير ديني لذلك.

وقد صاغ هوركايمر أيضا في هذه المقالات المبكرة، عددا من الانتقادات حول الوضعية المنطقية[13]، وهي الانتقادات التي أصبحت

---

(12) Ibid., pp. 210.

(13) Ibid., pp. 140-187

وقد انتقد بشكل خاص دراسة أوتو نيوارث (علم الاجتماع الامبيريقي).

لمزيد من التفصيل، يراجع:

Neurath, O. : Empirical Sociology, 1931, English translation in Empiricism and Sociology, M. Neurath and R. S. Cohen (eds.), D.

مبادئ جوهرية ثابتة لمدرسة فرانكفورت، وتتحدد في نقاط ثلاث: أولها، أن مبدأ التحقق من خلال الادراك الحسي، الذي يمثل البداية والنهاية بالنسبة للامبيريقية، مبدأ غير ملائم، يشير الى الضحالة المتزايدة للفكر البورجوازي. وثانيها، أن الوضعية تتضمن تكديسا لحقائق منعزلة ثم اختيارها بطريقة تزيد أو تقل في اعتباطيتها من عدد لانهائي يمثلها. وثالثها أن الوضعية لا تقيم أي تمييز بين المظهر السطحي للأشياء وبين لبّها أو جوهرها.

واستنتج هوركايمر أن: "حقائق العلم، والعلم ذاته، ليست سوى أجزاء من عملية حياة المجتمع، وأنه من أجل فهم مغزى الحقائق، أو العلم عموما، يتعين على المرء امتلاك مفتاح فهم الوضع التاريخي، أي النظرية الاجتماعية الصحيحة"[14]. وفضلا عن ذلك، فإن هذه النظرية الاجتماعية الصحيحة تعتمد بشكل حاسم، كما لاحظنا من قبل، على الارادة القويمة.

وطبيعي أن بعض الانتقادات التي وجهها هوركايمر للوضعية الحديثة، تم تطويرها أيضا بطريقة أشمل وأكثر منهجية في فلسفات أخرى للعلم، مثل فلسفة كارل بوبر K. Poppere ومؤخرا على يد البنيويين والواقعيين، لكن اسهام مدرسة فرانكفورت في هذه المجادلات الأخيرة كان اسهاما هزيلا، الى أن جاءت أعمال هابرماس التي سنناقشها في الفصل القادم.

وقد كرر أدورنو، وإلى حد كبير، الانتقادات التي صاغها هوركايمر بالفعل ضد الوضعية، وبخاصة تلك الانتقادات التي وجهت نحو انشغال الوضعية الزائد بالحقائق، أي الظواهر السطحية، ونحو

Reidel, Dordrecht, 1973.

وقد وصفت هذه الدراسة وضع الماركسية باعتبارها "علم اجتماع مرتكز على أساس مادي"، وان ذهب نيوارث أبعد من ذلك، حين دافع بشكل غير محتمل في رأيي عما أسماه "علم الاجتماع الطبيعي" Physicalist Sociology.

(14) Horkheimer, M., Op. Cit., p. 159.

تقويمها "الايجابي" المزعوم للحالة القائمة للمجتمع، وذلك في مقالاته التي كتبها في الخمسينيات والستينيات[15].

ومع ذلك، قدم أدورنو بعض الاضافات الجديدة الى النظرية النقدية في أحد النصوص الأخيرة، وتحديدا في مقدمته للجدل حول الوضعية[16]. ، وهو الجدل الذي كان مقرراً أن يدور بينه وبين بوبر[17]. فردّا على الاعتراض القوي الذي ذكر فيه بوبر أنه لم يكن وضعيا في يوم من الأيام، وأنه على العكس كان من نقاد وضعية حلقة ڤيينا، انطلاقا من وجهة نظر واقعية، اقترح أدورنو أن يشير الى موقفه بأنه علمي، لكنه لم يمض الى فحص الأشكال أو الحجج المختلفة من النزعة العلمية، وان لم يُبد في الحقيقة إلا قليلا من الاهتمام بأطروحات بوبر حول واجبات العلوم الاجتماعية النظرية. وبدلا من ذلك، شرع في مناقشة الأسس البحثية والمعرفية للعلم، بأكثر من مناقشة فلسفته أو منهجيته، وخاض هذه المناقشة انطلاقا من وجهة نظر واضحة عن الجدل السلبي[18].

---

(15) هذا ما ورد بشكل خاص في بحثه الذي قدمه الى المؤتمر الدولي الرابع لعلم الاجتماع. أنظر:
Horkheimer, M. : «Contemporary German Sociology and scientific experiences of a European scholar in America» in (The inteuectual migration - Europe and America, 1930 - 1960), D. Fleming and B. Bailyn (eds.), Harvard university press, Cambridge, 1969.

(16) Adorno, Th. : Introduction to the positivist dispute in German Sociology, 1969. English translation, Heinemann, London, 1976, Op. Cit., p. 131.

(17) مثلما أشار كارل بوبر في وقت لاحق، فانه لم يكن هناك سجال، ولم تتم مناقشة بحثه بصورة جدّية، لا في المؤتمر الأصلي، ولا في الكتاب الذي نشر في أعقاب ذلك. يراجع:
popper K. R. : «Reason or revolution ?» in (European Journal of Sociology) Vol. XI, N.2,1970.

(18) Adorno, Th.: Negativ Dialects, 1966. English translation, Seabury press, N. Y., 1973.

ولما كان مجال هذا الكتاب ليس مناقشة آراء أدورنو الفلسفية[19]، فسأتناولها هنا فقط من زاوية ارتباطها بفكرة النظرية النقدية للمجتمع. ومن هذه الزاوية نجد أن فكر أدورنو قد أدخل عدة تعديلات مهمة للغاية على نظرية مدرسة فرانكفورت على النحو الذي عرضها به هوركايمر.

فالنظرية النقدية أصبحت تفسّر الآن، وفي المقام الأول، كنظرية نقدية محضة، غير مؤهلة لصياغة أي مفاهيم ايجابية على الاطلاق، مثل صياغة بديل ايجابي للمجتمع القائم، نظرا لأن أي صياغة من هذا القبيل ستتضمن تفكيرا متمحورا حول الهوية، أي التأكيد على نقطة بدء مطلقة للفلسفة، وبخاصة أكثر فيما يتعلق بالابستمولوجيا، وعلى مفهوم عن العالم بوصفه مجموعة ثابتة من الأشياء الامبيريقية التي يمكن ادراكها على نحو كاف عن طريق تصورات ملائمة. أما التعديل الثاني، فقد طرأ على فكرة "الكلية" totality التي مثلت فكرة حاسمة لدى هوركايمر، حيث كانت أحد انتقادات هوركايمر للوضعية أنها لا تضع الحقائق الجزئية داخل نطاقها الكلي مثلما تفعل النظرية النقدية. فتم الآن رفض هذه الفكرة، على اعتبار أنها شكل آخر من أشكال تجليات التفكير المتمحور حول الهوية identity thinking، اذ حسب تعبير أدورنو، فإن "الكل غير صحيح".

على أن مجال البحث في هذا الكتاب ليس ما اذا كانت فلسفة أدورنو خالية من التناقض الذاتي أم لا[20]، لكن الواضح من جميع الحقائق أن هذه

---

(19) من الدراسات الرئيسية التي صدرت باللغة الانجليزية، ذلك التقويم النقدي الذي قدمه كولاكوفسكي بعنوان "التيارات الرئيسية للماركسية" يراجع:

-Kolakowski, L. : Main currents of Marxism, Oxford university press, Oxford, 1978, Vol. 3, pp. 357-369.

-Rose, G. : The melancholy science - An introduction to the thought of Theodor W. Adorno.

وهذا الكتاب الأخير يعد دراسة نقدية، بالرغم من أنه أكثر تعاطفاً مع أعمال أدورنو ككل.

(20) Kolakowski, Op. Cit., p. 381.

الفلسفة اتجهت صوب مذهب الشك scepticism، وأنها لم تتناقض فحسب مع الماركسية، حيث أن ماركس قد صاغ نظرية ايجابية في التاريخ ونظرية للمجتمع الرأسمالي إعتقد أنها مبنية على أساس متين، وانما تناقضت أيضا مع أي نوع من النظرية الاجتماعية المنهجية. ولذلك فإن فلسفة أدورنو الأخيرة كانت تشير الى بداية انحطاط مدرسة فرانكفورت.

أما الفكرة الثانية في نقد هذه المدرسة للوضعية، فتنصب على الربط بين فلسفة العلم الوضعية، أو بشكل أكثر عمومية النظرة الوضعية للعالم، وبين القبول بالوضع الراهن status quo. ومن الصعب تفصيل المساجلة حول هذه النقطة، لأن الادعاء بوجود هذه العلاقة اعتمد على تأكيدها أكثر من البرهنة عليها منذ الشروح الأولى للنظرية النقدية وحتى مرحلة نضجها. فهل يجب علينا مثلا أن نتناول هذه العلاقة كعلاقة منطقية، بمعنى أن العلم الاجتماعي الذي يتم تصوره على نحو وضعي يستلزم بالضرورة نظرة معينة، محافظة بنحو ما، للسياسة ؟

ان هذا السؤال لم يحظ بتوضيح أو تحليل من جانب مدرسة فرانكفورت، لكنه ليس من الصعب رؤية نقاط الضعف في مثل ذلك الزعم الذي ردّده ماركيوز عن أن: "علما يسعى للتوصل الى قوانين اجتماعية" سيخنق بلا رحمة "الممارسة الاجتماعية، وبخاصة مسألة تغيير النظام الاجتماعي"[21]. وذلك لأن ماركس لم يسع فقط، وانما صاغ أيضا قوانين اجتماعية حددت التناقضات الهيكلية والتناقضات الاجتماعية في المجتمع الرأسمالي، وفي الأشكال السابقة للمجتمع، بل وصاغ أيضا الاتجاهات المتأصلة للتغيير.

ومن هذه الزاوية، يمكن القول بأن الصلة بين النظرية النقدية وبين الماركسية أصبحت صلة واهية بشكل متزايد، لدرجة أن أحد الأعمال الأخيرة لمدرسة فرانكفورت عارض صراحة" الوضعية المستترة" لنظرية

---

(21) Marcuse, H., Reason and revolution, Op.Cit., p. 343.

ماركس[22]، وان كان من الصعوبة الادعاء بأن وضعية ماركس كانت مصحوبة بنظرة محافظة للسياسة، رغم أنه ربما أساء فهم منطق نظريته وتمسك بمعتقدات كانت متنافرة في الحقيقة.

وباستثناء الأحكام القيمية أو أي دراسة عن تفاوتات القوة، فما تمّ التشديد عليه في التطور اللاحق لمفهوم مدرسة فرانكفورت عن العلاقة بين الوضعية والسياسة، كان فكرة السياسة العلمية التي جرى الزعم بأن فلسفة العلم الوضعية تستلزمها. وجرى فحص اضفاء الصبغة العلمية scientization على السياسة، في عدة مقالات كتبها هابرماس في أواخر الستينيات[23]، لكنه عولج في هذه المقالات، بدرجة أكبر، بوصفه النتيجة المباشرة للأهمية الاجتماعية والاقتصادية للعلم والتكنولوجيا، أكثر من الأهمية التي تعُزى الى نظرية في العلم، وسأبحث هذه المسألة من وجهة النظر تلك فيما بعد.

لذلك لا يجدر البحث في الأعمال الرئيسية لمدرسة فرانكفورت في هذه الفترة عن التحليل الأكثر منهجية للصلة المفاهيمية بين الوضعية والسياسة العلمية، أو مفهوم الهندسة الاجتماعية للممارسة السياسية، وإنما يجدر البحث عن هذا التحليل في الدراسة اللاحقة التي كتبها براين فاي B. Fay[24] ، الذي حاول، رغم تعاطفه مع النظرية النقدية، أن يتبنى نموذجا مختلفا لعلم اجتماعي نقدي تندمج فيه بعض عناصر الوضعية التي تعتزم، كمثال، اكتشاف قوانين شبيهة بقوانين السببية. وتتلخص حجة فاي بايجاز شديد في أن: "امكانية التحكم التكنيكي، الذي لا

---

(22) Wellmer, A. : Critical theory of society, Herder and Herder, N. Y., 1971, Chapter 2.

(23) Habermas, J. : Towards a rational society, Beacon press, Boston, 1976.

(24) Fay, B. : Social theory and political practice, Allen and Unwin, London, 1975.

توجد على الاطلاق علاقة عارضة بينه وبين العلم، هو في الحقيقة جزء من الاطار العام الذي يشكل الامكانية الكاملة للنشاط العلمي"، ومن ثم فإن "المفهوم الوضعي عن معرفة الحياة الاجتماعية يحتوي داخله هو نفسه على مفهوم هندسي ذرائعي للعلاقة بين هذه المعرفة والعمل الاجتماعي"[25].

وقد تعرضت هذه المساجلة بدورها للنقد من جانب رسل كيت R. keat الذي قدم النظرة القائلة بأنه: "لا النزعة العلمية المغالية ولا النظرة الوضعية للعلم تستتبعان امكانية وجود سياسة علمية، حيث كلتيهما تتسقان مع المناداة بأن القرارات السياسية لا يمكن اتخاذها بالرجوع فقط الى معرفة علمية"[26].

ومع ذلك، فان هذه المساجلات الخلافية تنتمي الى عصر ما بعد مدرسة فرانكفورت حيث جرى فيه طرح فلسفات جديدة ومفاهيم مصقولة ومتميزة بدرجة أكبر، سندرسها بمزيد من الإحكام، وأيضا من حيث علاقتها بأعمال هابرماس في فصل تالٍ.

على أن ما ينبغي ملاحظته أكثر من ذلك في السياق الحالي، هو أنه في حين أن فكرة "السياسة العلمية" بوصفها نتيجة للوضعية، تمت مساواتها من جانب مفكري مدرسة فرانكفورت مع السياسة المحافظة، أو الدفاع عن الوضع الراهن فانه مما يثير الدهشة أنه كان بوسع منظّر محافظ مثل هايك F. A. Hayek أن يقدم نفس الفكرة، كشكل من أشكال السياسة الاشتراكية. فمقالات هايك التي كتبها ما بين عامي 1941–1944[27]، والتي كانت مسؤولة الى حد بعيد عن انتشار مصطلحات "النزعة العلمية

---

(25) Ibid., pp. 29 - 48.

(26) Keat, R. : The politics of social theory, p. 21.

(27) تم جمعها فيما بعد في مجلد. أنظر:
The counter - revolution of science, The Free press, Glencoe. 1952

المغالية" scientism و"العلمية" scientistic في دول العالم الناطقة بالانجليزية[28]، وجهت النقد الى موضوعية وجمعية وتاريخية النهج العلمي، ومضت إلى تناول المواقف العملية التي تنطلق من هذه الآراء النظرية، وبخاصة المطالبة بالسيطرة الواعية على العمليات الاجتماعية، من مثل "الهندسة الاجتماعية" و "التخطيط الاشتراكي"، التي اعتبرها متناقضة مع الابقاء على المجتمع الحر، وهو المجتمع الذي لا يمكن أن يكون له من أساس سوى فردية الاقتصاد الرأسمالي.

وليس مجال بحث هذا الكتاب هو ما اذا كان هايك قد حقق نجاحا أفضل من مدرسة فرانكفورت فيما يتعلق بإنشاء ارتباط منطقي بين فلسفة العلم والممارسة السياسية. فمن ناحية، فالواضح هو تنوع التفسيرات الممكنة لماهية ومضمون النزعة العلمية، ومن ناحية أخرى، وجود عناصر مشتركة معينة في فكرهم، وبخاصة الفكرة القائلة بأن نمطا جديدا من الهيمنة يظهر في المجتمعات الحديثة، وهو النمط الذي يرتبط بطريقة ما ببروز العلم والتكنولوجيا.

واذا لم تكن مدرسة فرانكفورت قد نجحت في اثبات وجود صلة مفاهيمية دقيقة بين النزعة العلمية والممارسة السياسية التي تولد المجتمع الحديث، فإنه يتعين لذلك أن نتناول أيضا ما اذا كانت هذه المدرسة قد استطاعت اظهار وجود ارتباط سيكولوجي وسوسيولوجي بينهما. وهذا يقتضي، في الحدود السيكولوجية، البرهنة على أن هؤلاء الذين يتبنون نظرة علمية هم أيضا ميالون الى أن يكونوا محافظين من الوجهة السياسية، أو ميالين للقبول والاذعان، أو العكس. لكن لم تبذل سوى محاولة صغيرة للبرهنة على وجود مثل هذه العلاقة. والواقع أن هذه الفرضية تبدو غير قابلة للتصديق. اذ من الضروري، في الحدود السوسيولوجية، تبيان أن

---

(28) يلاحظ هايك Hayek أنه جرى استعارتها من الفرنسية. أنظر:
Ibid. p. 15.

الموقع الاجتماعي لجماعات فكرية مختلفة نزع بهم الى أن يكونوا محافظين، ومن أنصار النظرية العلمية، أو العكس. لكننا نجد مرة ثانية أنه لم تجر محاولة للقيام بتحليل من هذا النوع إلا بقدر ضئيل. والحقيقة أن مدرسة فرانكفورت ذاتها هي التي تعرضت للاختبار من وجهة النظر هذه، وهو ما يتضح لدى جاي، حين قام بتشبيه أعضائها البارزين بالصفوة المثقفة الألمانية التي درسها رنجر Ringer[29] mandarins، ولاحظ أنهم، مثل نخبة المثقفين الألمان وعلى عكس الاشتراكيين التقليديين، كتبوا أعمالا يتخللها معنى الضياع والانحطاط، أكثر مما تحمل من أمل وتطلع الى المستقبل. كما أنهم شاركوا نخبة المثقفين الألمان أيضا في النفور من مجتمع الجماهير، ومن القيم النفعية والوضعية التي يشجعها[30].

وفي هذا الصدد، تتشابه مواقفهم مع المواقف التي اتخذها تونيز F. Tonnies وماكس فيبر إزاء الرأسمالية الصناعية.

وينبغي أن يقال أيضا عن ربط المدرسة بين النزعة العلمية و المحافظة السياسية أو نزعة الاذعان السياسي، أن مناهضتهم للنزعة العلمية لم يعصمهم غالبا من السلبية، التي اكتسبت أصداء محافظة بشكل متزايد. وقد وصف لوكاش موقفهم بقوله إن: "العديد من المفكرين الألمان البارزين، بما فيهم أدورنو، وضعوا أنفسهم في فندق الهاوية الكبير، الذي قمت بوصفه في مكان آخر بالنسبة لشوبنهاور A. Schopenhauer: فهو فندق مزوّد بكل وسائل الراحة الحديثة، لكنه يستقر عند حافة الهاوية، عند حافة العدم، عند حافة اللامعقول. والتأمل اليومي للهاوية، فيما بين الوجبات الفاخرة والتسليات الفنية، هو الذي يمكنه فقط أن يحقق

---

(29) Ringer, F. : The decline of the German Mandarins, Harvard university press, Cambridge, 1969.

(30) Jay, M. : The dialectical imagination, Little Brown and Company, Boston, 1973, p. 294.

متعة النزلاء بهذه الرفاهية المفرطة»[31].

ربما يكون هذا الحكم الذي أصدره لوكاش مفرطا في قسوته، لكن واقع الحال يؤكد أنه ما من أحد من الاعضاء البارزين في مدرسة فرانكفورت، باستثناء ماركيوز، قد شارك بأي دور في حركة سياسية راديكالية، أو ساندها، وأن كِلا من أدورنو وهوركايمر قد نأى بنفسه عن حركة الطلاب في أواخر الستينيات، التي يعتقد بأن كتاباتهما قد شجعتها. وبهذا شابهت مدرسة فرانكورت، كما يلاحظ جاي أيضا، المفكرين المتحررين من أي التزام في مدينة مانهايم، ممن ظلوا محلقين فوق النزاعات والمشكلات التي يطرحها الواقع، وغير مبالين بها[32].

وقد ظهر أول تقويم سوسيولوجي للنزعة العلمية المغالية بإيجاز في مقالات هوركايمر التي كتبها في الثلاثينيات. وتناولت هذه المقالات تلك النزعة العلمية المغالية بوصفها شكلا من أشكال الفكر البورجوازي، يتناظر على نحوها مع طرق الانتاج الحديثة. وفي هذا التقويم، كانت النظرية النقدية لاتزال من حيث المبدأ مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتحليل ماركس للاقتصاد والبنية الطبقية، باعتبارهما يشكلان الأساس الحقيقي للحياة الاجتماعية[33]، وأولت في نفس هذا الوقت اهتماما بالظواهر الأحدث، من مثل نمو الاحتكار وصعود المديرين الصناعيين وأرباب الصناعية، وهي الظواهر التي قام ماركسيون آخرون بدراستها بتوسع.

على أن هذه الاهتمامات بدأت تتغير بالتدريج، حيث في (جدل التنوير) لم تعد النزعة العلمية المغالية، كفلسفة علم وكعنصر في الفكر البورجوازي، هى التي يتم النظر اليها كعامل رئيسي في إبقاء الهيمنة، بل

---

(31) لمزيد من التفصيل، يراجع:
The theory of the novel, 1963. English translation, Merlin press, London, 1971.

(32) Jay, M., Op.Cit., p. 292.

(33) يراجع الجزء الأخير من دراسة هوركايمر «النظرية التقليدية والنقدية»

أصبحت هذه النظرة توجّه إلى العلم والتكنولوجيا ذاتهما، وإلى الوعي التقني أو العقل البراغماتي الذي انتشر في سائر أرجاء المجتمع، أو التي رافقت تطوره الى حدّ ما. وفي نفس الوقت، توقف النظر الى الهيمنة على أنها تسلط من جانب طبقة بعينها، حيث أن البنية الطبقية للمجتمع الرأسمالي والصراع بين الطبقات، كما صوّرها ماركس، لم تعد تعتبر قسمات هامة للمجتمعات الغربية الحديثة. وقد عبّر ماركيوز عن هذه الفكرة في كتابه (انسان البعد الواحد) بقوله: "تظل البورجوازية والبروليتاريا هما الطبقتان الأساسيتان في المجتمع الرأسمالي. ومع ذلك فان التطور الرأسمالي غيّر بنية ووظيفة هاتين الطبقتين على نحو يبدوان معه أنهما لم يعودا عاملين لتحول تاريخي. فالمصلحة المهيمنة في بقاء وتحسن وضع مؤسسي راهن يوحّد الخصمين السابقين في المجالات الأكثر تقدما للمجتمع المعاصر".

أما فكر أدورنو بإزاء هذا الموضوع، فهو أكثر التباساً وقصوراً. ففي مقال مبكر له عن نظرية الطبقات، قدّمه خلال مرحلة الاشتراكية الوطنية، ألحّ على القول بأن من يقع عليهم الاضطهاد لم يعد بوسعهم اكتشاف أنفسهم كطبقة، لأنه بدل أن تصبح طبيعة المجتمع الطبقي واضحة على نحو قاطع، فإن المجتمع الجماهيري الذي بلغ أوْجه جعلها غامضة، وأنه على عكس نظرية ماركس، أصبحت البروليتاريا عقيمة اجتماعيا[34].

ومن وجهة النظر هذه، فمن الجليّ أن الصراع الطبقي لا يمكنه أن يكون القوة الدافعة للتاريخ، والتاريخ الحديث بأي حال، وانما يجب البحث عن هذه القوة الدافعة في ذلك الذي جلب المجتمع الجماهيري mass society إلى حيز الوجود.

غير أن أدورنو يؤكد في مقال له في الستينيات أن المجتمعات الغربية

---

(34) Adorno,Th: «Reflexionen zur Klassentheorie» 1942, in (Gesammelte Schriften), Suhkamp, Frankfurt, 1972, Vol. 8, pp. 373 - 391.

الحالية، وأيضا مجتمعات أوربا الشرقية، لاتزال مجتمعات طبقية، وأن التناقضات القائمة داخلها يمكنها أن تدمر المجتمع المنظم في أي وقت، وأن تحيله الى كارثة كاملة[35]. ومع ذلك فانه في موضع لاحق من نفس المقال، يبدو كأنه ينفي هذه الامكانية، عندما يزعم أن البشر في هذه المجتمعات العقلانية، وتحت تأثير صناعة الثقافة culture industry ، قد وصلوا الى تحقيق التطابق بين أنفسهم وبين ما يحدث لهم حتى في أنماطهم السلوكية الأكثر عمقا، كمظهر لانتصار التكامل !.

وعاد أدورنو مرة أخرى في خطابه الافتتاحي لمؤتمر علم الاجتماع الألماني عام 1968حول موضوع ما اذا كان ينبغي وصف المجتمعات الحديثة بأنها في طور الرأسمالية المتأخرة capitalism late أو أنها مجتمع صناعي[36]. اذ بعد أن أبدى ملاحظته بأنه على حين تظل الطبقات موجودة، فانه لا يظهر وعي طبقي للطبقة العاملة، ذهب الى التشكيك في بعض مفاهيم ماركس الأساسية، من مثل فائض القيمة، وقانون الإفقار، وتأثير القوى المنتجة على علاقات الانتاج، وتابع من ثم مساجلاته التي أدت به الى استنتاج أن النظام أصبح مستقلا عن كل أعضاء المجتمع، بما في ذلك هؤلاء الذين يحوزون مواقع قيادية، وأن القوى اللاشخصانية impersonal forces للعقلانية التقنية هي قوته الدافعة.

ومع ذلك، فان هذه النظرة عن قوة العقلانية التقنية قد ظهرت أكثر اكتمالا وأوْفى منهجية في كتاب ماركيوز (انسان البعد الواحد)، وبخاصة في فصله السادس "منطق الهيمنة".

والمفهوم الأساس الذي أضحى مبدأً جوهريا مميّزاً لمدرسة فرانكفورت في أوج ازدهارها، هو أن السيطرة على الطبيعة من خلال العلم

---

(35) Adorno,Th: «Gesellschaft» in (Gesammelte Schiften), Vol. 8, pp. 9-19.

(36) Adorno,Th : «Spätkapitalismus oder Industrie - gesellschaft ?» in (Ibid), pp. 354 - 370.

والتكنولوجيا تنشيء بالضرورة شكلا جديدا من التسلط على البشر، وهو ما عبر عنه ماركيوز بقوله إن: "المجتمع يولد نفسه في مجموعة تقنية متناسقة ومتنامية من الأشياء والعلاقات التي تشتمل على الاستخدام التقني للبشر. وبكلمات أخرى، فان الصراع من أجل الوجود واستغلال الانسان والطبيعة أصبحا يكتسبان صبغة علمية وعقلانية أكبر دائما".

ويمضي ماركيوز الى البرهنة على أن "علم الطبيعة يتطور في ظل أسبقية تقنية technological a priori ، تتصور الطبيعة كمنفعة كامنة، وأن هذه الأسبقية هي اسبقية سياسية، بقدر ما يستلزم تحويل الطبيعة استخدام الانسان، وبقدر ما تنتج الابداعات التي صنعها الانسان نسقا مجتمعيا تعاود الدخول فيه". وفي النهاية فإن "العقلانية التقنية على هذا النحو تصون، بأكثر مما تبطل، شرعية التسلط"[37].

وثمة تشابه شديد لا تخطئه العين بين فكرة تسلط العقلانية التقنية وبين فكرة ماكس ڤيبر عن عملية ترشيد العالم الحديث. وقد لوحظ كثيرا أن مفكري مدرسة فرانكفورت تأثروا على نحو متزايد بفكر ڤيبر، رغم أنهم جميعا، باستثناء مقال ماركيوز عام 1964[38]، لم يشيروا الى أعماله إلا لماماً وباقتضاب.

والواقع أن البعض قد ذهبوا في تفسيرهم لتطور نظرية مدرسة فرانكفورت في الخمسينيات والستينيات الى مثل هذا المدى الذي قالوا فيه أن هذا التطور بمثابة انتقال من المنظور الماركسي الى منظور ڤيبر عن الاتجاهات التاريخية المتأصلة في المجتمعات الصناعية المتقدمة.

---

(37) تعرّض مفهوم ماركيوز عن "العقلانية التكنولوجية" لاعادة تقويم نقدية من جانب مفكري ما بعد فرانكفورت، وبخاصة لدى هابرماس وأوفي Offe، حيث سيجرى فحص اعادة بنائهم لهذا المفهوم في الفصل التالي.
وممن ناقشوا المفهوم أيضا وليام ليز. أنظر:
Leisse, W. : The Domination of Nature, George Braziller, N.Y. 1972.

(38) Marcuse, H., Industrialization and Capitalism, Op. Cit. p. 124.

ويمكن هنا أن نلاحظ وجهين رئيسيين للتشابه بين مدرسة فرانكفورت وشروح ڤيبر:

الوجه الأول، هو أن العقلانية التقنية أو الترشيد قد تم تصورهما كقوى مجردة تشكل مجتمعا يقع خارج نطاق التحكم البشري، حيث أن المنطق الداخلي للنظام الذي خلقه العلم والادارة العقلانية يقوم بعمله، على نحوٍ ما، من وراء ظهر الأفراد أو الجماعات الاجتماعية المعينة. وأنه يقوم بهذا العمل أيّا كان الشكل الظاهري للمجتمع، أي بصرف النظر عما اذا كان المجتمع رأسماليا أو اشتراكيا، شموليا أو ديموقراطيا[39]. وبهذا المعنى، يتم إحلال مفهوم "المجتمع الصناعي" محل مفهوم "المجتمع الرأسمالي". ويعتمد هذا، كما لاحظ ماكنتير Macintyre، على حتمية تقنية فجّة تماما[40].

وهكذا نجد أن ماركيوز يبرهن، في مقاله عن ڤيبر، بأنه: "ليس تطبيق التكنولوجيا فحسب، بل التكنولوجيا نفسها، هي التي تمثل تسلطا على الطبيعة والانسان بطريقة منهجية علمية ومحسوبة وماكرة. وأن الأهداف والمصالح المحددة لهذا التسلط لا يتم دسّها على التكنولوجيا فيما بعْد ومن الخارج، وانما لهذا يدخل في تصميم بناء الجهاز التقني"[41].

صحيح أن ماركيوز يواصل القول بأن: "التكنولوجيا هي دائما مشروع تاريخي اجتماعي، وما يُستهدف منها هو ما يعتزم المجتمع والمصالح السائدة أن تفعله بالناس والأشياء"[42]، إلا أن فكرة المصالح السائدة تم تركها مبهمة دون تحليل، بلا اشارة الى ما اذا كانت هذه

---

(39) قدم أليساندر ماكتير تعليقات نقدية حول هذه النقطة. أنظر:
Macintyre, A. and H. Marcuse, Fontana - Collins, London, 1970, pp. 67-69.

(40) Ibid., p. 66.

(41) Marcuse,H., Industrialisation and Capitalism,Op. Cit., p. 179.

(42) Ibid., p. 181.

مصالح البورجوازية، أي رأس المال، أم مصالح جماعة اجتماعية أخرى يمكن تعيينها.

أما الوجه الثاني للتشابه بين ڤيبر ومدرسة فرانكفورت، فيمكن العثور عليه في النزعة التشاؤمية الكئيبة التي تنشأ من تفسيراتهما للمجتمع الصناعي الحديث. فاذا كان ڤيبر "ليبرالي يائس"[43] على حد تعبير مومسن Mommsen، فان مفكري مدرسة فرانكفورت، أو ماركيوز على أي حال، يمكن وصفهم بأنهم "راديكاليون يائسون" ذلك أنه بالنسبة لڤيبر، فان التوسع الأكثر أو الأقل قسوة للترشيد rationalization والعقلنة intellectualization يعني أن المجتمع سيصبح عرضة للتسلط من جانب علاقات اجتماعية ذرائعية محضة، وسيضحى "قفصا حديديا" ودولة "للتحجر الآلي" تختنق فيه الابداعية الفردية والقيم الشخصية.

وفي مواجهة هذا التهديد، لم يجد ڤيبر من دفاع فعال وحقيقي سوى محاولة يائسة للحفاظ على بعض القيم الفردية في المجال الخاص المحض، واحتمال ظهور زعيم ذو شخصية كارزمية، يثبت قدرته على تحقيق اعادة التقويم لكل القيم بالمعنى النيتشوي، واقامة الحياة الاجتماعية عل درب جديد.

وبالطبع فان تشاؤمية ماركيوز، وكذلك تشاؤمية هوركايمر فيما يتعلق بمصير الفرد والتي ستجري مناقشتها في وقت لاحق، هي من نفس نوع تشاؤمية ڤيبر. فالعقلانية التقنية، أي العقل الذرائعي، هي التي تسود الحياة الاجتماعية، وان بقيت قوى قليلة تعارضها إذا ماكانت هناك أية قوة على الاطلاق. وهذا هو ما يخلص اليه ماركيوز في (انسان البعد الواحد) حين ذكر أن: "النظرية النقدية للمجتمع، كانت إبان نشأتها مواجهة بوجود قوى حقيقية في المجتمع الراسخ الذي تحرك، أو يمكن توجيهه للتحرك،

---

(43) Mommsen, W. : The age of Bureaucracy, Blackwell Oxford, 1974, Chapter V.

صوب مؤسسات أكثر عقلانية وأكثر حرية، وكانت هذه هي الأسس الامبيريقية التي قامت عليها النظرية. وبدون اظهار هذه القوى، فان الامكانات المتأصلة للتحرر لم تعد تعبر بنحو كاف عن البديل التاريخي"، إذا كان هناك بديل في الواقع.

فعلى عكس ڤيبر لا يرى ماركيوز إمكانية، ولو حتى بعيدة جدا، لمعارضة المجتمع المحكوم، واحتفاظ أعضائه بمجال خاص للقيم، رغم أن هوركايمر كان يميل الى هذا الرأي. فالفرصة الوحيدة لمعارضة ثورية، وهي فرصة ضعيفة للغاية، توجد في قاع المجتمع، في صفوف المنبوذين والغرباء والعاطلين وغير القادرين على العمل. ومع ذلك، فان ماركيوز أصبح في وقت لاحق خلال الستينات، مع صعود حركات راديكالية جديدة اكثر تفاؤلا الى حدّ ما، لأن القوى الثورية بدت وقتها أكبر، وتضم طلبة وأقليات عرقية مستغلّة وجماهير فلاّحي العالم الثالث.

واذا كانت النظرة اليائسة لمدرسة فرانكفورت إبان مرحلتها الأخيرة مستمدة أساساً من تحليل المجتمع الغربي الحديث، الا أنه يجب النظر اليها أيضا في ضوء رؤية أوسع للفكر الاجتماعي الراهن، سيما الذي برز في ألمانيا نهاية القرن التاسع عشر، والذي لم تعبر عنه فقط معارضة الوضعية كنظرية للعلم، وانما أيضا المعاداة العامة للعلم والتكنولوجيات في ذاتهما، وفي حدود عواقبهما الاجتماعية والثقافية.

وعلى هذا النحو، يلاحظ هيوجز Hughes في دراسته حول الفكر الأوربي بين عامي 1890–1930[44]، أن الثورة ضد الوضعية كانت مصحوبة بوضع عقيدة التقدم المادي موضع التساؤل، والاحتجاج على "ميكنة الحياة" الذي وجد أحد تعبيراته في النزعة الرومانسية الجديدة "فلسفة الحياة" Lebensphilosophie، واعادة تأكيد القيم الروحية

---

(44) Hughes, H. S.:Consciousness and Society, Alfred A. Knopf,N.Y., 1958, Chapter 2.

مرة أخرى في أفكار ماكس ڤيبر المتشائمة عن الترشيد العقلاني والتحرر من وهم العالم.

وفيما بعد ذلك، أدت الاضطرابات الشديدة والدمار الناجم عن الحرب العالمية الأولى، وتجربة النظام الاشتراكي الوطني في ألمانيا، وهيمنة القوى العظمى، المنغمسة على نحو متزايد في سباق التسلح النووي، على العالم وتقسيمه فيما بينها منذ عام 1945.. أدت كلها الى الاسهام بشكل متصاعد في الاحساس بالضياع والانحطاط الثقافي وباللاعقلانية المتنامية.

وقد مثلت مدرسة فرانكفورت جزءا لا يتجزأ من هذا الضرب من التفكير وكان تأثيرها المتصاعد في الستينيات مرتبطا بلا شك بالتجدد المتعدد الأشكال، وبخاصة في بعض من قطاعات الطبقة الوسطى، للنفور من العقلنة التقنية والبيروقراطية. وفي نفس الوقت، فان نقدها للمجتمع الحديث قام بشكل أساسي على تحليل لطبيعة هذا المجتمع، ثم التعبير عنه صراحة وبصورة أكمل في كتاب ماركيوز (انسان البعد الواحد). وما سعى هذا التحليل الى توضيحه، هو أن الطبقتين الرئيسيتين في المجتمع الرأسمالي، أي البورجوازية والبروليتاريا، قد اختفيتا بوصفهما وسائط تاريخية فعالة. فمن ناحية،، لا توجد طبقة سائدة، وانما يتم التسلط من جانب قوة لاشخصانية impersonal power، هي العقلانية العلمية التقنية، ومن ناحية أخرى، لا توجد طبقة معارضة، لأن الطبقة العاملة تم استيعابها واسترضاؤها، ليس فقط من خلال استهلاك ضخم، وانما أيضا في عملية الانتاج المرشَّدة ذاتها.

ومع ذلك، فأن ماركيوز لم يبْن تحليله على دراسة امبيريقية، أو على تقييم دقيق لشواهد متاحة، حين يشير بشكل مهم الى الأدبيات الضخمة في علم الاجتماع وعلم النفس. لكنه يخلص إلى أنه: "ربما كان أفضل شاهد يمكن الحصول عليه ببساطة، هو مشاهدة التلفزيون أو الاستماع الى الراديو لمدة ساعة متصلة على مدار يومين فقط، دون اغلاقه أثناء فقرات الاعلانات التجارية، مع تغيير محطة الاذاعة بين الحين والآخر".

ويتكون هذا الكتاب من تأملات فلسفية حول المجتمع الصناعي المتقدم في الولايات المتحدة الأمريكية، وتكرارا للحجج الواردة في كتابه (العقل والثورة) بصورة شعبية أوضح. ولم يحقق فيه أكثر مما أشار اليه هوركايمر بأنه "تعبير عقيم عن حالات العقل". وينبغي ملاحظته أن التعميمات الرئيسية في هذا الكتاب، اعتمدت بصورة كبيرة للغاية على تفسير لخصوصية الخبرة الأمريكية المتعلقة بالاذاعة والتلفزيون التجاري المنمط من الناحية الثقافية، وعلى غياب الطبقة العاملة المنظمة سياسيا منذ قبل الحرب العالمية الأولى[45].

ومع ذلك، فان أفكار ماركيوز أثارت استجابة سريعة لدى حركة الطلبة الأمريكية في أواخر الستينيات بمعارضتها للنظام، ولدى حركات طلابية أخرى في دول أوربية شتى إلى حدّ ما. لكن الحركات الاجتماعية في ذلك الوقت كانت جميعها واقعة تحت تأثير تحليلات متنوعة عن البنية الطبقية المتغيرة، وعن مغزى التكنوقواطية والبيروقراطية، التي قدم علماء الاجتماع اسهامات ملحوظة بصددها.

فبعد مفهوم فيبر عن الانتشار العنيد للانتاج المرشّد والادارة الرشيدة،

---

(45) يمكن العثور على تأثير مماثل للخبرة الأمريكية في نبْذ رايت ميلز لما أسماه "ميتافيزيقيا العمل"، أي فكرة الدور التاريخي للطبقة العاملة، وذلك في حديثه عن اليسار الجديد. يراجع:

Mills, W. : Power, politics and People, Oxford university press, N.Y., 1963, p. 256.

وحول غياب الحركة الاشتراكية في الولايات المتحدة الأمريكية، أنظر مقدمة الترجمة الانجليزية لكتاب ورنر سومبارت:

Sombart, W. : why is there no Socialism in the United States ? Macmillan, London, 1976.

وانظر أيضا:

Laslett, J. H. M and S.M. Lipset (eds) : Failure of a dream - Essays in the history of American Socialism, Anchor press - Doubleday, Garden city - New york, 1974.

ظهرت في البداية نظرية الثورة الادارية[46]، والمناقشات المبكرة عن التكنوقراطية[47]، تلتها دراسات أكثر شمولا عن المجتمع الصناعي والمجتمع ما بعد الصناعي. وقد أكد التفسير المحافظ لهذه الظواهر في كتابات ريمون آرون R. Aron ودانييل بل D. Bell كمثال[48]، على الالغاء التدريجي للفوارق الطبقية الهامة، تلك التي يمكن النظر اليها أيضا على أنها بمثابة ظهور للمجتمعات التي تسودها الطبقة المتوسطة، وخفوت حدة الصراع الطبقي أو حتى تصفيته فعليا، والانحطاط المصاحب للأيديولوجيات، التي هي بتعريف آرون "أنساق كلية في التفسير التاريخي والسياسي للعالم"، وبالطبع فان الماركسية هي المثال الرئيسي لمثل هذه الأيديولوجيا.

أما التفسير الراديكالي لهذه الظواهر، وبخاصة كما تبدو في كتابات آلن تورين A. Touraine، فانه على حين يرى أن البنية الطبقية لرأسمالية القرن التاسع عشر قد تحولت بعمق، فانه يبرهن على أن تصدعا أساسيا جديدا قد ظهر في المجتمعات الغربية بما فيها المجتمعات الاشتراكية في أوربا الشرقية مع مراعاة الفارق في السياق[49]، وأن أنماطاً جديدة من

---

(46) قدم جيمس برنهام ملاحظات في هذا الصدد. أنظر:
Burnham, J. : The Managerial Revolution, Putman and Company, London, 1943.

(47) أنظر أيضا جورج جيرفتش:
Gurvitch, G. (ed.) : Industrialisation et Technocratie, Armand Colin, Paris, 1949.

(48) أنظر أيضا ريمون آرون، ودانييل بل:
-Aron, R. : 18 Lectures on Industrial, Society, translation, Weidenfeld and Nicolson,London, 1961.
-Bell, D. : The coming of post - industrial society, Basic Books, N.Y., 1973.

(49) أنظر أيضا آلن تورين:
Touraine, A.: The post - industrial society, 1969.
English translation, Random House, N.Y., 1971.

الصراع، مثل ممارسات الحركات الاجتماعية، وردود الأفعال ضدها، منذ أواخر الستينيات، قد حلت جزئيا محل النمط القديم من الصراعات الطبقية، وأعادت تصنيفها جزئياً كذلك.

ولدى تورين، فان الجماعات الكبرى المشتركة في الصراع بالمجتمعات ما بعد الصناعية، والتي يمكن تسميتها أيضا بالمجتمعات التكنوقراطية أو المبرمجة، لم تعد البورجوازية والطبقة العاملة، وانما هم، من ناحية، أولئك الذين يقودون هياكل اتخاذ القرار السياسي والاقتصادي، ومن ناحية أخرى، هؤلاء الذين هبطوا الى حالة المساهمة التابعة، برغم أن الجماعة الأولى تشمل بالطبع الملاك الكبار لرأس المال، على حين تشمل الجماعة الثانية العمال الصناعيين.

وتتفرع أعمال علماء الاجتماع الماركسيين من كل من التفسيرات المحافظة والراديكالية للمجتمع ما بعد الصناعي، وكذلك من تحليل ماركيوز الذي يقترب الى حدّ كبير من النظرة المحافظة في العديد من النقاط، بتشديده على هيمنة رأس المال المستمرة، وبالأخص في صورة الشركات العملاقة والشركات متعددة الجنسية، وعلى الأهمية الكبرى لحركة العمل التقليدية كوسيلة للتحول الاجتماعي.

وطبيعي القول إن علماء الاجتماع هؤلاء يتناولون أيضا التغيرات الجوهرية التي طرأت على المجتمع الرأسمالي خلال القرن العشرين، سواء من خلال تركز وتمركز رأس المال وتزايد تدخل الدولة في الاقتصاد، أو من خلال التغيرات المرتبطة بها جزئيا في البنية الطبقية، والتي تتضمن بخاصة الوضع الاجتماعي للطبقة العاملة ووعيها الاجتماعي، ونمو الطبقة الوسطى[50].

وأنظر كذلك لتورين:

Touraine, A. : The self - production of Society, 1973.
English translation,university of Chicago press, Chicago ,1977.

(50) حول هذا الموضوع، أنظر بشكل خاص جورج كونراد وإيفان زيلني:

وثمّة خلافات عديدة في وجهات النظر بين الماركسيين حول تفسير عمليات التغير هذه داخل الرأسمالية[51]، وان تلمحنا في نفس الوقت أرضية مشتركة واسعة بينهم حول الاعتراف بالأهمية الحاسمة والمستمرة للعلاقة بين رأس المال والعمل، وتعبيرها السياسي في أشكال متنوعة من الصراع الطبقي، والنزاع بين الأحزاب، وممارسات الحركات الاجتماعية.

وعلى النقيض من هذه الدراسات الهائلة العدد للمجتمع الصناعي أو الرأسمالية في مرحلة تطورها الأخيرة، والتي قام بها علماء اجتماع ماركسيين وغير ماركسيين، فان غياب أي تحليل جدّي ومدروس للاقتصاد الرأسمالي، وللبنية الطبقية، ولتطور الأحزاب والحركات السياسية، هو ما يجعل دراسات مدرسة فرانكفورت عن المجتمع الحديث تبدو الآن قاصرة وهزيلة.

ننتقل بعد ذلك لنبحث الموضوع الثاني المهم في فكر مدرسة

Konrd, G. and I. Szelnyi : The intellectuals on the road to class power, Harvester press, Brighton, 1979.

(51) حول التغيرات الاقتصادية، أنظر على سبيل المثال دراسات كيث كونج وبوب جيسوب حول الرأسمالية الاحتكارية ورأسمالية الدولة الاحتكارية:

- Cowling, K. : Monopoly Capitalism, Macmillan, London, 1982.
- Jessop, B. : The Capitalist state, Martin Robertson, Oxford, 1982.

وأنظر أيضا تحليل هابرماس حول الرأسمالية المتطورة:

Habermas, J. : Legitimation Crisis, Heinemann, London, 1976.

وعن التحليلات المختلفة للبنية الطبقية، أنظر مقالاتنا عن الطبقة المجمعة في:

- Bottomore, T.: Sociology as Social Criticism, Allen and Unwin, London, 1975.
- Bottomore, T.: Sociolgy and Socialism, Harvestern press brighton, 1984.

أنظر كذلك ما قدمه نيكولاس أبركرومبي وجون أري:

Abercrombie, N. and J. Urry : Capital, Labour and the middle classes, Allen and Unwin, London, 1983.

فرانكفورت، ونعني به الانشغال الهائل بمصير الفرد في المجتمع الراهن، وهو الموضوع الذي ارتبط بشدة بفكرة تسلط العقلانية العلمية التقنية، وكانت له صلة قرابة واضحة باهتمامات ماكس ڤيبر في كتاباته الأخيرة.

وكما لاحظنا قبلا، فان هوركايمر ملتزم منذ البداية بقيمة الفردية، وأعاد تأكيد هذا الالتزام، رغم أن ذلك جاء متسما بمسحة تشاؤمية أكبر[52]، على نحو يذكرنا بڤيبر في المقالات والأحاديث التي أدلى بها في العقد الأخير من حياته.

ففي مواجهة ما رآه هوركايمر: "كنزعة الى عالم مرشّد ومُميكن وبائس بالكامل" في عصر "يتجه الى تصفية كل أثر باق حتى للاستقلال الذاتي النسبي للفرد"[53]، فانه لم يعد يستطيع بعد ذلك أن يرى أية طريق لمعارضة هذا الاتجاه، وحماية "الحرية المحدودة والعابرة للفرد"، أو محاولة توسيع نطاقها كلما أمكن، إلا بالتأكيد على "الاشتياق الديني للآخر برمّته"[54].

والواقع أن هوركايمر توقف في نهاية حياته عن أن يكون منظرا نقديا، وانتقل الى نوع من الفكر الديني، واضعا كانط وهيجل في مكانة أعلى من ماركس. وحسب تعبير جومينور Gumminor ورينجوت Ringguth، فانه: "رأى عظمة المثاليين الألمان في قرابتهم الوثيقة مع التدين اليهودي

---

(52) تم التعبير عنها بشكل خاص في تأملاته حول التشاؤم والميتافيزيقية لدى شوبنهاور. لمزيد من التفصيل و يراجع:
Gumnior, H. R. Ringguth and M. Horkheimer : Reinbek bei Hamburg, Rowohlt, 1973.

(53) تراجع مقدمة كتاب هوركايمر (النظرية التقليدية والنقدية)، ص 7.

(54) أنظر:
Die Sehnsucht nach dem ganz Anderen, Furche Verlag, Gamburg, 1970.
وبخاصة المقدمة والتعليق الذي قدمه هيلموت جومنيور.

والفكر اليهودي"[55].

وقد صاغ هوركايمر نفسه آراءه الأخيرة عن الفكر الديني، حين ذكر أن ما هو مهم في اللاهوت هو: "الوعي بأن العالم مظهر، وأنه ليس الحق المطلق أو الغاية النهائية"[56]، و"انني لا أعتقد أنه توجد هناك أية فلسفة يمكن أن أقبلها، وتكون غير مشتملة على عنصر لاهوتي"[57].

وبالمثل، كان لدى أدورنو وماركيوز نظرة يائسة لموقف الفرد في المجتمع الحديث، وان جاءت استجابتهما لذلك الموقف بطرق مختلفة. فقد احتفظ ماركيوز، كما رأينا، بأمل واه في أن قوى ثورية جديدة ستظهر داخل المجتمع. وبرهن في اعادة تفسيره الفلسفي لفرويد[58]، على أن تجاوز الندرة المادية في المجتمعات الصناعية المتقدمة، سيخلق الشروط المناسبة لاحراز البشر هدفهم في السعادة من خلال التحرر الجنسي وتفوق مبدأ المتعة، الذي تصوره كأساس للانعتاق الشامل المؤثر في كافة العلاقات الاجتماعية.

أما أدورنو، فلم ير امكانية لتحرير الفرد من التسلط والهيمنة، لا في

---

(55) Gumnior, H. and R. Ringguth, op. cit., p. 123.

(56) يراجع الحوار الذي نشر بعنوان:
«Letze Spur Von Theologie - paul Tillichs vermächtnis» in (Frankfurter Allgemeine Zeitung), 7 April 1966.

(57) يراجع:
Werk und Wirken paul Tillichs Ein Gedenkbuch, p. 16.
وذكر في كتاب جومنيور ورينجث السالف الذكر، ص 131.
ومن أجل الاطلاع على مناقشة أكثر توسعا لموقف هوركايمر من الدين، وبخاصة اليهودية والمسيحية. يراجع جوليوس كارلباخ:
Carlebach, J. : Karl Marx and the radical critique of Judaism, Routledge and Kegan Paul, London, 1978 ; pp. 234 - 257.

(58) Marcuse, H.: Eros and Civilization, Beacon Press, Boston, 1955.
وقد أعيد نشر هذا الكتاب مع مقدمة سياسية عام 1968.

ظهور جماعات معارضة جديدة، ولا في التحرر الجنسي، وانما ارتأى هذه الامكانية بالأحرى في عمل الفنان الأصيل الذي يواجه الواقع المعطى بالتلميح الى ما يمكن أن يكون. وعلى هذا فان الفن الأصيل يمتلك قوة غلاّبة، لدرجة يضعه أدورنو في مواجهة العلم الذي يعكس الواقع الموجود فحسب، فيما يمثل الفن الأصيل شكلا أعلى من أشكال المعرفة، وسعيا متجها الى المستقبل وراء الحق(59).

ومن منظور علم الاجتماع، ينبغي طرح سؤالين حول نظرة مفكري مدرسة فرانكفورت لحالة الفرد في المجتمع الصناعي المتقدم:

السؤال الأول، هو ما اذا كانت معطياتهم صحيحة من الناحية الوصفية؟

وبهذا الصدد فاننا نواجه صعوبة مألوفة، حيث لم تبذل محاولة للبرهنة امبيريقيا على حدوث تغيرات هامة. وعلى أحسن تقدير، فإن كل ما هنالك هو التأكيد على النقيض عن طريق الاستشهاد المزعوم بالفرد البورجوازي المستقل بذاته في المجتمع الرأسمالي الليبرالي. اذ من المشكوك فيه ما اذا كان هذا التمييز القاطع والشامل يمكن تأييده، وبأي درجة يعوّل عليها، بدون مسوغات عديدة، ليس أقلها ما يتعلق بالفروق بين الدول والتقاليد القومية. ذلك أن أي محاولة للبرهنة على هذا التمييز بشكل مقنع، تتطلب نوعاً من البحث التاريخي الشامل، وهو الأمر الذي تحاشته مدرسة فرانكفورت على طول الخط. وتظل المسألة الأكثر أهمية هي أن كل المناقشة تنصب على الفرد البورجوازي، حيث لم يوجه مفكري هذه المدرسة أي اهتمام الى نمو الحرية والاستقلال الذاتي بعد عام 1945 لنسبة كبيرة من السكان في الدول الصناعية، والتي نجمت عن تغيرات في ميزان القوة

(59) Adorno, Th. :Ästhetische Theorie, Suhrkamp, Frankfurt 1970

وأنظر أيضا مناقشة المحرّرين في:

Arato, A. and E. Gebhardt (eds.) : The essential Frankfurt school reader, Urizen Books, N. Y., 1978, pp. 185 - 224.

الاجتماعية. صحيح أنه تغير متواضع، لكنه حقيقي، بين العمل ورأس المال، عن طريق توسيع الخدمات الاجتماعية والتعليم والعمالة الكاملة والقوة الأكبر للنقابات العمالية. والحريات الدنيوية الهامة للغاية بما فيها التوسع الملحوظ في وقت الفراغ، والتي تم كسبها في هذه الفترة، ينبغي وضعها في مواجهة الاتجاهات نحو المزيد من التحكم والسيطرة المكثفين من خلال عمليات الانتاج والادارة المرشَّدين. وحتى في المجتمعات الاشتراكية بأوربا الشرقية، فانه توجد أيضا مكتسبات مماثلة يجب وضعها في الاعتبار بإزاء خسائر واضحة، رغم أن مفهوم "المجتمع المحكوم بصورة شمولية" قد يبدو وثيق الصلة بالموضوع بدرجة أكبر، فيما عدا أن السلطة التي تسود هذه المجتمعات ليست هي العقلانية العلمية التقنية، وانما هي حزب سياسي أو ربما طبقة حاكمة جديدة.

وقد أسفرت الأزمة الاقتصادية التي سادت المجتمعات الرأسمالية في الثمانينيات، عن هجوم مضاد من رأس المال على العمل، وهو الهجوم الذي يقوّض بوضوح حرية واستقلال أفراد الطبقة المسودة، عن طريق حرمانها من فرص العمل، وتآكل الخدمات الاجتماعية، أو بصورة عامة: تعريض الأفراد الى صنوف أكثر قسوة من الاكراه الاقتصادي.

ولدى قراءة نصوص مدرسة فرانكفورت المتعلقة بضياع استقلال الفرد، وبخاصة في كتابات أدورنو وهوركايمر، فإنه من الصعوبة بمكان الافلات من الانطباع بأن ما يعبرون عنه في المقام الأول، مثلما تعبر النصوص المماثلة لماكس ڤيبر، هو الشعور بانحطاط شريحة معينة من المجتمع، هي الشريحة العليا المثقفة من الطبقة الوسطى، أو بشكل أكثر تحديدا، الصفوة المثقفة The mandarins، والحنين الى استعادة الوضع الذي يتعذر استرداده للمثقف Kultur الألماني التقليدي.

أما السؤال الثاني الذي ينبغي وضعه في الاعتبار، فهو ما اذا كان الانشغال الهائل لمدرسة فرانكفورت بمصير الفرد، قد أدى، في اتجاه آخر من خلال الاهتمام بعلم النفس والتحليل النفسي التي ساعدت على

نشرهما، الى أية صياغة نظرية جديدة للعلاقة بين الفرد والمجتمع.

وكما رأينا، فان اريك فروم شرع خلال السنوات الأولى للمدرسة في الربط بين علم نفس فرويد عن الفرد وبين النظرية الاجتماعية لماركس، عن طريق التشديد بخاصة على موقع الأسرة في بنية طبقية منشأة تاريخيا، في الوقت الذي رفض فيه نظرية فرويد ماوراء التاريخية للثقافة. وواصل فروم في وقت لاحق، بعد أن قطع علاقته بمدرسة فرانكفورت، استكشافاته للعلاقة بين التحليل النفسي والماركسية في شتى الاتجاهات، بواسطة صوغ فكرة "الشخصية الاجتماعية" وذلك في كتابه (الخوف من الحرية)، وتنقيحه لمفهوم فرويد عن الطبيعة البشرية والحاجات البشرية بطريقة جذرية، وأخذه فكرة التغلب على الاغتراب alienation[60]، واعتبارها الموضوع الرئيسي في الفكر الاجتماعي لماركس، والذي تم التعبير عنه بصورة أكمل في (المخطوطات الاقتصادية والفلسفية).

على أن متابعة تطور فكر مدرسة فرانكفورت حول هذا الموضوع تكتنفها صعوبة أكبر. فالدراسات التي تم القيام بها خلال مرحلة المنفى في الولايات المتحدة الأمريكية، وبخاصة ما يتصل بدراسة الشخصية الاستبدادية، جرى التأكيد بصورة أوْفى على علم نفس الفرد. ولم تبذل سوى محاولات محدودة للربط بين الظواهر السيكولوجية وتغيراتها، وبين شروطها التاريخية والاجتماعية.

لا شك أن فكر مدرسة فرانكفورت تضمن، في وقت لاحق، افتراضا بوجود توافق وتطابق بين هذين الطرفين، نتج عن الترشيد العام للحياة وعن تأثير صناعة الثقافة، لكن هذا الافتراض لم يتم اختباره بأي دراسات تاريخية أو سوسيولوجية مقارنة. كما أن العمليات الاجتماعية النفسية

---

(60) يراجع بشكل خاص اريك فروم:

- Fromm, E. : Marx's Concept of Man, Fredrick Ungar, N. Y, 1961.
- Fromm, E. : The Anatomy of human destructiveness, Holt, Rinehart and Winston, N. Y., 1973.

الفعالة لم تدرس بطريقة منهجية. وفضلا عن ذلك، فان أفكار التطابق conformism والتمثل assimilation والشمولية totalitarianism، وهذا المصطلح الأخير استخدمه ماركيوز بشكل فضفاض للغاية في كتابه (انسان البعد الواحد)، جرى تطبيقها كلها بطريقة غير نقدية الى حدّ ما، وان وجب القول أن ذلك كان من جانب ماركيوز أكثر من أدورنو وهوركايمر، على كافة المجتمعات الصناعية من رأسمالية واشتراكية، دون ادراك للسمة الخاصة للاشتراكية القائمة بالفعل في أوربا الشرقية، حيث الامتثال لأيديولوجيا رسمية يكون مفروضا من حزب مسيطر.

وحتى في حالة أوربا الشرقية، فان درجة التطابق نحتاج الى أن يتم فحصها بعناية أكبر على ضوء الفورانات الاجتماعية المتكررة، بدءا من ثورات 1953 و 1956 و1968 حتى ظهور حركة التضامن في بولندا، والانقراض الفعلي للماركسية كمذهب حيّ، أي كأيديولوجيا مسيطرة ونافذة بالنسبة لقسم كبير من السكان في هذه البلدان. كما كان هناك أيضا اندلاعا ملحوظاً في المجتمعات الرأسمالية الغربية للمعارضة والانشقاق في أواخر الستينيات، وهو أمر لم يؤد بماركيوز فقط الى نظرة تفاؤلية أكبر الى حدّ ما في امكانات تحوّل راديكالي متأصل، فيما أسماه بالرفض الغريزي بين الشباب المعارض[61]، وانما وفّر أيضا المناخ الذي أحرزت فيه مدرسة فرانكفورت تأثيرها الأكبر.

واليوم، وبعد قرابة عقد من الارتداد عن أفكار تلك الفترة، مازالت توجد شواهد جوهرية ومتنامية على أشكال متجددة من الانشقاق والاحتجاج، تتمثل في حركة السلام، واحياء الاشتراكية في بلدان عديدة.

ان المطلوب من المنظور الاجتماعي بعامة، والسوسيولوجي منه تحديدا، هو وصف أكثر دقة، وتفسير إذا أمكن، لهذه الدورات من

(61) أنظر المقدمة السياسية التي صاغها ماركيوز في كتابه (ايروس والحضارة).

الاحتجاج والاذعان. لكن مدرسة فرانكفورت لم تبْد إلا اهتماما ضئيلا بمثل هذه الأمور.

ولنأخذ لذلك مثالا محددا في اشارة ماركيوز الى الرفض الغريزي للشباب، التي لا تبدو كافية تماما، لأنها لا تقدم أي تفسير للتقلبات التاريخية في المواقف الاجتماعية للشباب، ولا تضع في حسبانها المواقف الاجتماعية البالغة التنوع، الناشئة عن الفروق الطبقية والعرقية والقومية، بينما يبدو أن الخط الأكثر فائدة لتقصّي هذا المجال، يجب أن يكون بحث السبل التي تشكلت بها الأجيال الجديدة في ظروف تاريخية واجتماعية معينة[62].

وهذا التحويل الذي يضعه ماركيوز في كتابه (الحب والحضارة) Eros and Civilization، مستمد من تفسيره الفلسفي لفرويد، وهو التفسير الذي يتفق مع فكرة فرويد عن الطبيعة البشرية الكلية التي تجاهد للوصول الى هدف السعادة التي يحددها عموما بمعنى التحرر الجنسي والاشباع، وان رفض ماركيوز الرأي القائل بأن الكبت repression ضروري من أجل خلق الحضارة والحفاظ على بقائها، أي أن مبدأ المتعة يجب اخضاعه لمبدأ الواقع.

ووفقا لرأي ماركيوز، فان الكبت الجنسي طوال تاريخ المجتمع البشري كان في المقام الأول "فائض كبت" surplus repression استهدف الحفاظ على بقاء أشكال معينة من التسلط الاجتماعي في ظروف الندرة

---

(62) يراجع مقال كارل مانهايم بشكل خاص:
Mannheim, K. : «The problem of generation» in (Essays on the Sociology of Knowledge), Routledge and Kegan paul, London, pp. 276 - 322.

ومن أجل رؤية أنثروبولوجية حول الأجيال تراجع مرجريت ميد:
Mead, M. : Culture and Commitment - A study of the generation gap, Bodley Head, London, 1970.

الاقتصادية. ومع انتهاء هذه الندرة، يمكن انهاء هذا الفائض من الكبت، وعندئذ فان الحرية الجنسية الشهوانية ستحول جميع العلاقات الاجتماعية الأخرى. ولايشير ماركيوز بالضبط الى الكيفية التي سيحدث بها هذا التحول، بينما توحي خبرة الاباحية الجنسية الأكبر في مجتمعات حديثة بأنها تنسجم بسهولة من التسلط الاقتصادي والطبقي المستمر.

اجمالا، فان بناء ماركيوز الفلسفي الجديد لفرويد يقدم مفاهيما تخمينية الى حدّ ما، وغير مبرهن عليها امبيريقياً عن الطبيعة البشرية ونظرية الحضارات.

أما الموضوع الرئيسي الثالث في أعمال مدرسة فرانكفورت، فهو صناعة الثقافة، الذي يرتبط وثيقا بالاهتمامات السوسيولوجية.

وقد تم تقديم هذه الفكرة لأول مرة على يدي هوركايمر وأدورنو في مقالهما "صناعة الثقافة - التنوير كخداع للجماهير"[(63)]. ويحاول هذا المقال البرهنة على أن ثقافة كل الجماهير تصبح متطابقة في ظل الاحتكار، وتضحى في نفس الوقت متفسخة كنتيجة لاندماج الثقافة والتسلية.

وعلاوة على ذلك، يوجد اندماج بين صناعة الاعلان وصناعة الثقافة، بما يجعل كلا الصناعتين نهجا تقليديا للتأثير في الناس والتلاعب بهم.

ويصل هوركايمر وأدورنو الى استنتاج أن انتصار الاعلانات في صناعة الثقافة يرجع الى أن المستهلكين يشعرون بأنهم مكرهون على شراء واستعمال منتجاتهما، حتى ولو كان ذلك بينهم وبين أنفسهم (ص167).

والواقع أنه من الصعوبة بمكان أن نفهم بالضبط، من المقال نفسه، كيف يختلف تأثير صناعة الثقافة عن التسلط الثقافي في أنماط مجتمعية أخرى. اذ أنه ورغم كل شيء، سيتعين النظر الى الكنيسة بوصفها صناعة ثقافة في أوربا العصور الوسطى. فما هو بالأحرى الشكل المحدد، في

---

(63) Horkheimer, M. and Th. Adorno : Dialectic of Enti- ghtement, Herder and Herder, N. Y. 1972,pp. 120 - 167.

المجتمع الرأسمالي الحديث، لهذه الظاهرة التي اعتقد ماركس أنها النتيجة الضرورية للتسلط الاقتصادي، أي أن أفكار الطبقة السائدة هي في كل عصر الأفكار السائدة؟ وهل صناعة ثقافة العصر الراهن فعالة على هذا النحو الكاسح الذي تم تصويرها به هنا ؟ أم أن الشجب الغاضب لها من جانب هوركايمر وأدورنو يجب تفسيره، جزئيا على الأقل، كنتيجة للصدمة الثقافية التي نجمت عن صدامهما مع الراديو والتليفزيون التجاريين الأمريكيين، اضافة الى السينما التي أثرت بعمق في التقويم اللاحق الذي قدمه ماركيوز لأيديولوجيا المجتمع الصناعي المتقدم في كتابه (انسان البعد الواحد) ؟

ان التفكير في مثل هذه الأسئلة، التي تشير الى الحاجة لدراسة تاريخية ومقارنة عن آثار الأيديولوجيا المسيطرة[64]، يطرح مسألة ثانية، هي أن قوة الثقافة الرسمية يمكن أن تقاس بشكل خاص بمدى الانشقاق والمعارضة داخل المجتمع.

والانطباع الذي ينقله أدورنو وهوركايمر في مقالهما، وفي كتاباتهما اللاحقة، هو أنه لا يوجد هناك انشقاق فعال، كما قدم ماركيوز في (انسان البعد الواحد) نفس النظرة المتشائمة. ومع ذلك، فقد اضطر بعد عدة سنوات لاحقة على ذلك، وفي غمرة أحداث الحركة الطلابية، الى مراجعة هذا الحكم، في محاولته ايجاد بعض الأسس للأمل فيما أطلق عليه "ثورة الشباب".

وفي نفس هذا الوقت، وفي أمريكا الشمالية على وجه الخصوص، اكتسب مفهوم "الثقافة المضادة" counter culture شعبية مؤكدة.

---

(64) يمكن النظر باعجاب إلى ماقدمه نيكولاس أبركرومبي وستيفن هيل وبريان تيرنر، وتميز بروح نقدية عالية. يراجع:
Abercrombie, N., S. Hill and B.S Turner : The Dominant Ideology Thesis, Allen and Unwin ; London ; 1980.

كذلك أكد تيودو روزاك Th. Roszak في كتاب له حظي بشهرة واسعة في وقت قصير[65]، على أفكار ماركيوز، عند تشكيله لواحدة من القسمات المميزة للثقافة المضادة، رغم أن روزاك كان أكثر تعاطفا مع أفكار نورمان براون N. Brown وبول جودمان P. Goodman. وشأنه شأن ماركيوز، نظر روزاك الى حركة الانشقاق الجديدة على أنها معارضة شابة ضد المجتمع التكنوقراطي. لكنه فسّرها بأنها نهضة للولع الأسطوري الديني، على نحو بعيد للغاية عن نظرة مدرسة فرانكفورت، وان لم يكن بعيدا بالكامل عن فلسفة هوركايمر في فتراتها الأخيرة، وعلى نحو بعيد أيضا عن نظرة ماركيوز، الذي انتقد ما تبقى بهذه المدرسة من آثار ماركسية بعنف.

ولعل إحدى الصعوبات الكبرى المتعلقة بمفهوم الثقافة المضادة تكمن في تفسير كيف يمكن أن تظهر هذه على الاطلاق في مجتمع تهيمن عليه صناعة الثقافة هيمنة كاملة.

وثمّة حلّين ممكنين بهذا الصدد: فقد تجري المساجلة إما بأن النطاق المحدود، والاختفاء السريع، للثقافة المضادة أو تمثلها، يكشف في الحقيقة قوة صناعة الثقافة، أو أن الانشقاق من الناحية الأخرى أكثر انتشارا بالفعل في المجتمعات الرأسمالية نهاية القرن العشرين، وبشكل أقل علوّا، لكنه لايزال أهم في أوربا الشرقية، مما اعترفت به مدرسة فرانكفورت. وأن هذا الانشقاق يعبر عن نفسه على هيئة قياس في الزيادة السريعة للحركات الاجتماعية والسياسية. وفي الحالة الأخيرة، يضحى ضروريا اعطاء شيء من التقويم لأسس الحياة الاجتماعية لمثل هذا الانشقاق وتلك المعارضة. وهنا يجب ملاحظة أن الثقافة المضادة، من وجهة نظر ماركسية، طالما وجدت في المجتمع الرأسمالي في شكل الحركة الاشتراكية. وهي وجهة

---

(65) Roszak, Th.: The making of a counter culture, Faber and Faber, Lodon, 1970.

نظر عبّر عنها أنطونيو جرامشي A. Gramsci بقوة في مفهومه عن حركة الطبقة العاملة، التي تتبنى الماركسية كعقيدة اجتماعية لها، باعتبارها حاملة رسالة بناء حضارة جديدة، ومن ثم تصبح المسألة الرئيسية هي تقويم الآثار البعيدة المدى، والتعاقبات والتقلبات التاريخية لهذه الثقافة المضادة المتجسدة في الحركة العمالية.

بل ان مدرسة فرانكفورت نفسها قد أنشئت بموجب اهتمام محدد بفشل الثورات الأوربية الرئيسية بعد الحرب العالمية الأولى، وظهور الاشتراكية الوطنية في ألمانيا. كما أن أفكار أعلامها البارزين قد تشكلت بدرجة أكبر بموجب تماسك النظام الستاليني في الاتحاد السوفيتي ثم بعد ذلك في أوربا الشرقية، وبموجب ظهور اجماع سياسي ظاهر في المجتمعات الرأسمالية الغربية بعد الحرب العالمية الثانية، وبشكل أكثر بروزا في الولايات المتحدة الأمريكية، وتهدئة الصراعات الاجتماعية الكبرى، على أساس من النمو الاقتصادي غير العادي والرخاء الأوسع انتشارا. ووجه نقدهم لحالة الأمور القائمة في الخمسينيات والستينيات، الاهتمام بجوانب هامة ومهملة لتطور المجتمعات الغربية فيما بعد الحرب، ولعل أحد الأمثلة الهامة هنا هو النقد الاجتماعي الذي قدمه رايت ميلز C. w. Mills[66]. وقد أثار هذا النقد، في أواخر الستينيات، استجابة قوية في أوساط شباب الطبقة المتوسطة، وبخاصة في الجامعات.

إلا أنه يمكن الاعتقاد، بعد استعادة الأحداث الماضية، بأن هذه الانتقادات قد ضخّمت درجة التوافق والاذعان في المجتمعات الحديثة، وزادت من قوة الميل تجاه تنظيم شمولي للحياة الاجتماعية، وذلك، جزئيا على الأقل بسبب الفشل في وضع هذه الظواهر في سياق تاريخي، أو

---

(66) يراجع:
Eldridge, J. E.T., C. W. Mills, Chichester Ellis Horwood, London - New york, Tavistock Publication, 1983.

الاعتراف بأن هذه القوى المتناقضة تمارس مفعولها.

وأحد الحقائق ذات الأهمية الكبيرة هي أن الأحزاب الاشتراكية والشيوعية، في المجتمعات الأوربية الغربية أثناء فترة مابعد الحرب، قد زادت عضويتها، واتسع التأييد الانتخابي الذي تحصل عليه، رغم بعض التقلبات، الى مستويات لم تتحقق من قبل. وبهذا المعنى، يمكن القول بأن الانشقاق والمعارضة المرتكزين تاريخيا على الطبقة العاملة، أصبحا الآن أكثر اتساعا عن ذي قبل على الاطلاق.

وربما تجري المساجلة في هذه المواجهة، بأن تلك الأحزاب، وبخاصة الأحزاب الاشتراكية أو العمالية أو الاشتراكية الديموقراطية، لم تعد تجسّد معارضة راديكالية لشكل المجتمع القائم، وانما تقبل عموما عناصره الأساسية ومبادئه التنظيمية. وباختصار، أنها أصبحت أحزابا اصلاحية بكل ما في الكلمة من معنى، وأنها هجرت هدف الاشتراكية واقامة مجتمع متحرر حقا.

ورغم أن هذه مسألة معقدة[67]، إلا أنه يتعين علينا في السياق الحالي أن ننظر في المقام الأول إلى ما اذا كان بوسع مفكري مدرسة فرانكفورت أن يلقوا أضواء جديدة عليها، وأن يقدموا تقييما معقولا للاتجاهات الرئيسية للتغير الاجتماعي والثقافي.

فالواضح أن هناك ثغرات كبرى في تحليلاتهم التي تخلو من اشارة الى التطور الفعلي للأحزاب والحركات السياسية في فترة مابعد الحرب. وذلك وجه واحد فقط للسمة غير التاريخية وغير الامبيريقية للنظرية النقدية بعامة، وهو ما يمكن ايعازه من جهة الى الفشل في وضع التوازن المتغير بين الاذعان والانشقاق في التطور البعيد المدى للرأسمالية، الذي يتجلى

---

(67) قمت بفحص الأوجه المختلفة لها في مقال عن "الدور السياسي للطبقة العاملة في أوربا الغربية". أنظر:

Bottomore, T., Sociology and Socialism, Op. cit., pp. 115 - 121.

في الكثافة المتغيرة للصراع الطبقي والصراعات الاجتماعية الأخرى. ومن جهة أخرى، الى الفشل في استقصاء بناء وانتشار الأيديولوجيات بتفصيل اميريقي.

وقد استنتجت دراسة حديثة، تبحث بطريقة أكثر دقة وتميزا في طبيعة وتأثير الأيديولوجيا السائدة في مراحل التطور الأخيرة للمجتمع الرأسمالي، أن آليات الانتقال الأيديولوجي إذا كانت قد تطورت بشكل جيد مقارنة مع المجتمعات الأسبق، فانها فعالة بشكل جزئي فقط، وذلك لأن الاندماج الأيديولوجي للطبقات المسودة تعرض للمبالغة لأن بريطانيا إذا أخذناها كحالة معينة، ليست في الحقيقة مجتمعا متماسكا(68).

والبرهان المستخلص من هذه الدراسة يوحي على الأقل بالشك في القوة الجبارة لصناعة الثقافة، وفي الدور الذي تلعبه في الحفاظ على بقاء التسلط. وينبغي أن يضاف الى ذلك، أنه بقدر ما تكون الأيديولوجيا السائدة فعالة في مراحل التطور الأخيرة للمجتمع الرأسمالي، فنها تستمد قوتها الى درجة بعيدة من عامل سلبي، أي من انحطاط الاشتراكية كثقافة مضادة، من خلال ترافقها مع المجتمعات الاشتراكية القائمة بالفعل في أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتي في المقام الأول، عبر مراحلها الشمولية الستالينية والاستبدادية التالية للستالينية.

ومما تجدر ملاحظته، أن مفكري مدرسة فرانكفورت نادرا ما أشاروا إلى الاشتراكية، وكان ذلك عادة عند نقدهم للمجتمع السوفيتي. اذ بدلا من الحديث عن الاشتراكية، تحدثوا عن التحرر **empancipatian** كهدف للحركة الراديكالية. وعلى أي حال، فان ذلك كان ينطوي على ضياع المضمون وافتقاد الوضوح.

ورغم أن ماركس نبذ في كتاباته فكرة تقديم "وصفات جاهزة لمطاعم

---

(68) Abercrombie, N., S. Hill and B. S. Turner, Op. Cit., Chapter 5.

المستقبل" فانه أعطى في الحقيقة بعض المؤشرات المحددة لمؤسسات المجتمع الاشتراكي المستقبلي، ذلك في مناقشاته حول الانتاج التعاوني، وفي تقييمه لكومونة باريس. كما تم سبْر أغوار طبيعة ومشكلات الاشتراكية بدرجة أكثر اكتمالا في الفكر الماركسي والاشتراكي اللاحق له، في حين تجاهل مفكرو مدرسة فرانكفورت هذه المجموعة من الأفكار المتنوعة، والتي تشكلت تاريخيا عن الاشتراكية، وظل نموذجهم الخاص عن التحرر غير محدد المعالم، ما عدا مناقشة ماركيوز التجريدية لحاجات الحق true والباطل false.[69]

وفي برهانه عبر كتابه (الحب والحضارة) على أن التحرر الجنسي والتحول التالي كنتيجة له للعلاقات الشخصية، هما عنصران أوّليان في العملية التحررية.

واذا كانت مسألة امكانية اعادة الاشتراكية الى عهدها السابق كمفهوم مقنع وجذاب لحضارة جديدة، في ظل قوى اجتماعية وشروط تاريخية جديدة، يمكن أن تهبها الحيوية، وان جعلتها موضع جدال، فانه يبدو جليا أنه لا يمكن سبْر أغوارها بشكل ملائم عن طريق تعبيرات "التحرر" التجريدية، في الوقت الذي يجري فيه تجاهل تاريخ الحركة الاشتراكية وارتباطها بالديموقراطية في العالم الرأسمالي الغربي.

وهكذا، فمن الاستعراض السابق، تبين أن مدرسة فرانكفورت قد اشتملت في مرحلة نضجها على ثلاثة عناصر مترابطة:

- نقد معرفي ومنهجي للوضعية، أو للنزعة العلمية المغالية عموما في العلوم الاجتماعية.

---

(69) للحصول على تحليل أكثر جوهرية لمفهوم "الحاجة، أنظر:

Heller; A.: The theory of need in Marx, Alison and Bus by London, 1975.

- Parekh, Bhikha (ed.) : The concept of Socialism, Croom Helm, London, 1975.

- Kolakowski, L. and S. Hampshire (eds) : The Socialist Idea - A Reappraisal, Weidenfeld and Nicolson, London, 1974.

● وموقف نقدي بازاء التأثير الأيديولوجي للعلم و التكنولوجيا، باعتبارهما عاملين هامين في خلق شكل تكنوقراطي بيروقراطي جديد للتسلط.

● واهتمام خاص بصناعة الثقافة، أو عموما بالأوجه الثقافية للتسلط.

وكما أوضحت من قبل، فان هذه العناصر المختلفة لم تكن تنفرد بها مدرسة فرانكفورت وحدها، بل كانت ترتبط بصلة وثيقة بتيارات أخرى عديدة في الفكر الاجتماعي والفلسفي الأوربي على طول الفترة الممتدة من الحرب العالمية الأولى الى الستينيات: فالثورة ضد الوضعية المتجددة دوما والمستمرة أوجدت تعبيرات متنوعة عنها في الماركسية الهيجلية التي ظهرت في الكتابات المبكرة لكل من كارل كورش K. Korsch وجورج لوكاش، وفي مذاهب الفلسفة الظاهراتية phenomenology والفلسفة الوجودية Existentialism، وفي الموقف النقدي للتصنيع الواسع النطاق، والتكنوقراطية والبيروقراطية، وهو الموقف الذي صاغه ماكس ڤيبر في مفهوم "الترشيد" Rationalization، والذي تطور في وقت لاحق في العديد من الكتابات السوسيولوجية، وكذلك في التقليد الألماني بالأساس للنقد الثقافي، حيث وجد أحد مصادره الحديثة المهمة في تمييز فرديناند تونيز F. Tonnies بين مفهومي "المجتمع المحلي" Gemeinschaft و"المجتمع العام" Gesellschaft[71]، ووصل التأثير في ماركسية لوكاش ومدرسة فرانكفورت، لاسيما من خلال أعمال جورج سيمل G. Simmel.

لقد كانت النظرة الاجتماعية الفلسفية التي ميّزت مجمل نظرية مدرسة فرانكفورت بمثابة دفاع عن الذاتية ضد فكرة وجود عملية موضوعية، تحكمها القوانين، للتاريخ. وكانت هذه هي النظرية التي أثارت استجابة

---

(71) Tonnies, F. : Community and Association, 1887.
English translation, Routledge and Kegan Paul, London, 1955.

متحمسة في الحركة الطلابية خلال الستينيات، والتي توجهت في المقام الأول ضد النظام. لكن اليسار الجديد والحركة الطلابية وجدا إلهاما لهما في مذاهب أخرى متنوعة، ماركسية أو متمركسة marxisant، وكان تأثير مدرسة فرانكفورت أقوى بشكل ملحوظ في تلك البلدان التي لم تكن فيها تقاليد محلية يعتدّ بها للفكر الماركسي مثل بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، أو التي تم فيها استئصال هذه التقاليد بشدة مثل ألمانيا الغربية. أما في فرنسا وايطاليا، فان وجود أحزاب شيوعية كبيرة بها، قد ضمن استمرار بنية من الفكر الماركسي اللينيني الأورثوذكسي الى حد بعيد. وعندما تعرضت هذه البنية للمراجعة أو للاضافة من قبل أشكال جديدة من النظرية الماركسية بعد عام 1956، فان التأثيرات الفكرية كانت لأفكار جرامشي ولوكاش، لاسيما في فرنسا، من خلال نشاط لوسيان جولدمان L. Goldmann، وجان بول سارتر J. P.Sartre، ولويس ألتوسير L. Althusser بعد ذلك بفترة وجيزة و حيث قدم هذا الأخير رؤية جديدة للماركسية كعلم.

كما أن الماركسية المعدّلة، والتي بدأت في الظهور بأوربا الشرقية في ذلك الوقت، كانت متأثرة بعمق هي الأخرى بأفكار لوكاش وجرامشي. وفي النهاية، فان الحركات الاجتماعية الراديكالية التي ظهرت في أواخر الستينيات، كانت متأثرة بقوة بالثورتين الصينية والكوبية، وبمبادئ الماوية.

وعلى هذا، فان مدرسة فرانكفورت كانت تيارا وحدا فقط من الفكر، في حركة التجديد النقدي العريض للغاية للنظريات الماركسية والراديكالية. أما مكانها في التطور اللاحق كمثل هذه النظريات، فهو موضع جدال كبير.

الفصل الثالث

الأفول والتجدد

بوفاة أدورنو وهوركايمر، وخمود الحركة الطلابية الراديكالية في أوائل السبعينيات، اقتربت مرحلة هامة في تاريخ مدرسة فرانكفورت من نهايتها، ومن ثم كفّت إلى حدّ ما عن التواجد، كشكل من أشكال الفكر الماركسي، حيث أضحت علاقتها بالماركسية واهية بشكل مضطرد، ولم يعد لها أي ارتباط بالحركات السياسية.

لكنها، بمعنى آخر، ظلت باقية، مع استمرار بعض الأفكار الرئيسية للنظرية النقدية في ممارسة تأثيرها على الفكر الاجتماعي، لكن مع وجود فارق هام: هو أن هذه الأفكار تم عرضها وتطويرها في العقد الماضي من خلال أعمال مفكرين أفراد، كل منهم مستقل بذاته، يقف على رأسهم قبل أي مفكر آخر يورجين هابرماس، اضافة إلى ألبرخت فيلمر A. Wellemer[1]، وألفريد شميت A. Schmidt[2]. ، وكلاوس اوفي

---

(1) Wellmer, A. : Critical theory of society, Herder and Herder, N. Y., 1971.

وانظر أيضا أفكاره الحديثة حول النظرية النقدية:

Wellmer, A. : «Reason, Utopia and the dialectic of Enlightenment» in (Praxis International), Vol. 3, N. 2, July 1983.

(2) يراجع عملي ألفرد شميت:

- the concept of Nature in Marx, New Left Books, London, 1971.

C. Offe[3] بأكثر من كونها جزءا من برنامج بحثي لمدرسة محددة المعالم.

وفي نفس الوقت، تباعدت النظرية النقدية، في تطورها الأخير، عن بعض المفاهيم الأساسية لكل من أدورنو وهوركايمر، بينما احتفظت باهتمامها الخاص بفلسفة العلوم الاجتماعية ونقد الأيديولوجيا.

وتقع كتابات هابرماس، الذي يعد المهندس الرئيسي للنظرية النقدية الجديدة، في جزئين متميزين، وإن يكونا غير منفصلين تماما:

في الجزء الأول، نجد أن هابرماس قد واصل في قسم كبير من عمله نقد مدرسة فرانكفورت للوضعية، ومضى الى صياغة نظرية جديدة للمعرفة، مع اهتمام خاص بالعلوم الاجتماعية.

وفي هذا المجرى، كرّس هابرماس مقالين من مقالاته في الستينيات[4] لاعادة توجيه وتقديم الاعترضات على الوضعية، التي تم تناولها، مثلما جرى في كتابات أدورنو وهوركايمر وماركيوز، بطريقة فضفاضة وغامضة للغاية، دون التمييز مثلا بين وضعية القرن التاسع عشر، وبين الوضعية المنطقية التي تبنتها حلقة فيينا، والعقلانية النقدية التي تبناها كارل بوبر، والواقعية الحديثة[5]، ووضعها كنقيض للنظرية الجدلية.

- Die Kritische Theorie als Geschrichtsphilosophie, Carl Hanser, Munich, 1976.

(3) يراجع عملي كلاوس أوفي:

- Strukturprobleme des Kapitalistischen Staates, Suhrkamp, Frankfurt, 1972.

- Industry and Inequality,Edward Arnold,London, 1976.

(4) Habermas, J. : «The analytical theory of science and dialects and A positivistically bisected rationalism» in Adorno et al., (The positivist Dispute in German Sociology), pp. 131 - 162, 198-225.

(5) تراجع التعليقات الملائمة تماما لهانز ألبرت:

Albert, H.: «A short and surprised postscript to a long introduction» in (The Positivist Dispute in German Sociology), Op. Cit., pp. 283 - 287.

(6) مثلما أكد ماكس ڤيبر، يراجع روجرز برياكر:

إذ يورد هابرماس أن هذه النظرية الجدلية: "تشك فيما اذا كان العلم يمكن أن يتناول العالم الذي انتجه الناس، بالضبط مثلما يتناول بنجاح العلوم الطبيعية الصارمة"، لأن العلوم الاجتماعية يتعين عليها أن تتعامل مع واقع في طريقه الى التشكل pre -constituted، ومع "سياق الحياة الاجتماعية ككلية، تقرر حتى البحث نفسه"، وهو الذي يظل خارجيا بالنسبة لعالم الخبرة الخاضعة للتحليل. وتستخدم النظرية الجدلية مفهوم "الكلية" totality الذي يشير الى "عالم حي" مفهوم سابقا، يجب سبر أغواره عن طريق تفسير تأويلي للمعنى.

ومن ثم، يمضي هابرماس الى نقد الفصل الوضعي للحقائق عن القرارات باعتبار هذه القرارات هي خيارات القيم: أي الى نقد الفرضية القائلة بأن هناك من ناحية تناسق تجريبي في الظواهر الطبيعة والاجتماعية، يمكن صياغته في قوانين، وأن هناك من ناحية أخرى، قواعد للسلوك البشري، أي قواعد سلوك اجتماعية.

وناتج هذه الثنائية هو أن المعرفة المسموح بها قاصرة على العلوم الامبيريقية، بينما "الأسئلة المتعلقة بممارسة الحياة" مستبعدة من العلم، كما أن الأحكام على قواعد السلوك الاجتماعية ترتكز على القرار فقط. لكن هابرماس يمضي ليبرهن على أن الالتزام بالعلم، من وجهة النظر هذه، هو في ذاته "قرار" تم التعبير عنه "كإيمان بالعقل"[(6)].

والحل الذي يقدمه لمشكلة الأساس، أي مشكلة الاختبار الامبيريقي للنظريات، هو أن الصحة الامبيريقية للبيانات الرئيسية، ومعقولية الفرضيات الشبيهة بالقوانين، والنظريات العلمية والامبيريقية ككل، مرتبطة في ذلك بمعايير تقويم ناتج العمل الذي تم تبنيه اجتماعيا في السياق

Brubaker, R. : The Limits of Rationality - An Essay on the social and moral thought of Max Weber, Allen and Unwin, London, 1984.

(7) Habermas, J. : Legitimation Crisis, Heinemann, London, 1976, p. 10.

الذاتي المتداخل intersubjective بالضرورة، لجماعات عاملة.

وما يتشكل هنا هو الفهم التأويلي المسبق hermeneutic pre-understanding الذي يجعل من الممكن في البداية تطبيق قواعد لقبول المقولات الأساسية.

ولا يظهر ما يسمى بمشكلة الأساس، اذا نظرنا ببساطة الى عملية البحث كجزء من عملية شاملة للأعمال المؤسسة اجتماعيا، والتي من خلالها تعزز الجماعات الاجتماعية حياتها المتقلقلة طبيعيا (ص154).

وفي نفس الوقت، يبدّد هذا الحل ثنائية الحقيقة والقرار، حيث أن كلاً من الحكمين العلميين، وأحكام قواعد السلوك، ترتكز على الفهم المسبق المتبنيّ اجتماعيا، وان لم يكن بنفس الطريقة تماما، وهو الأمر الذي عبرّ عنه هابرماس في عمل أخير له بقوله: "ان مزاعن الحق التي نطرحها في المقولات الامبيريقية، تناظرها دعاوى الصحة claims of correctness أو المواءمة appropriateness التي نقدمها بمعايير العقل أو التقويم"[7].

بعد هذه المقالات النقدية، صاغ هابرماس نظرية جديدة في المعرفة، وذلك في كتابه (المعرفة والمصالح البشرية)[8].

وفي الوقت الذي حادت فيه هذه النظرية الجديدة بصورة جذرية عن ارتيابية أدورنو، فانها أرست أسسا وطيدة للمعرفة، عن طريق ربطها بالمصالح الأساسية للجنس البشري.

وبهذا الصدد، نجد تمييزاً بين ثلاثة أشكال من المعرفة، ترتكز على ثلاث مصالح مؤسّسة لها:

1 - مصلحة تقنية technical interest قائمة على الاحتياجات المادية والعمل، الذي يشكل الميدان المستهدف للعلم الامبيريقي التحليلي.

---

(8) Habermas, J. :Knowledge and Human Interests, Heinemann, London ; 1972.

2 - مصلحة عملية practical interest في التفاهم الاتصالي بين الأفراد وداخل نطاق أو بين الجماعات الاجتماعية، والقائمة على الميزة النوعية الكلية للغة، التي تشكل ميدان المعرفة التاريخية التأويلية.

3 - مصلحة تحررية emancipatory interest ، قائمة على الأفعال والأقوال المشوّهة الناجمة عن ممارسة القوة، والتي تشكل ميدان معرفة التأمل الذاتي self-reflective.

وكما يلاحظ كيت Keut، فان مفهوم هابرماس عن تأليف الموضوع - object constitution، مفهوم كانطي جزئيا، لكنه يختلف عن كانط، وأيضا عن النظرة الكانطية الجديدة الماركسية النمسوية والفلسفة الواقعية الحديثة للعلم[9]، في برهنته على أن القسمات الضرورية لهذه الموضوعات، لا يمكن اشتقاقها من حجج ترانسندنتالية transcendental تهيّء الشروط لامكانية المعرفة لأي ذات عارفة، بل يجب النظر اليها بالأحرى على أنها تنتج من مصلحة خاصة للجنس البشري، قائمة على ميزة كلية لهذا النوع البشري[10].

ولايزال السجال في كتاب (المعرفة والمصالح البشرية) موجها في المقام

(9) لمزيد من الاطلاع على المفهوم الماركسي النمسوي، أنظر نصوص ماكس آدلر المترجمة في كتاب:

Bottomore and Goode : Austro - Marxism : Its Conception.

وانظر أيضا:

- Bhaskar, R.: A Realist Theory of Science of Naturalism, Harvester Press, Brighton, 1978.

- Keat, R. : and J. Urry : Social Theory as Science, Routledge and Kegan Paul, London, 1982.

(10) Keat, R. : The Politics of Social Theory, Basil Blackwell, Oxford, 1981, p. 5.

ويقدم كيت في مقدمة هذا الكتاب وفي فصله الثالث ملخصا رائعا لنظرية هابرماس، ويقدم كذلك في الفصلين الرابع والخامس استخدام هابرماس للتحليل النفسي كنموذج للنظرية النقدية.

الأول ضد الوضعية، أو عموماً ضد النزعة العلمية المغالية، أي ضد استبدال نظرية المعرفة بمنهجية Methodology مفرغة من الفكر الفلسفي.

حيث أن فلسفة العلم التي ظهرت منذ منتصف القرن التاسع عشر، كوريث لنظرية المعرفة، هي مناهج بحث مشغولة بالفهم الذاتي العلمي scientific self - understanding للعلوم. فالنزعة العلمية المغالية تعني ايمان العلم بذاته: أي الايمان الراسخ بأنه لم يعد في وسعنا فهم العلم كشكل واحد من المعرفة الممكنة، بل يجب بالأحرى أن نطابق بين المعرفة والعلم.

ويستهدف تمييز هابرماس بين ثلاثة أشكال من المعرفة، بالطريقة نفسها التي تتغلغل بها في المصالح البشرية، والتي يجب اختبار صحة مزاعمها بطريقة مماثلة بواسطة برهنة عقلانية، فاذا تأيّدت فانها تتعزّز بالاتفاق العقلاني بين أعضاء الجماعة، ذلك أن هذا التمييز يستهدف نفي مزاعم العلم الامبيريقي التحليلي عن الصحة الجامعة المانعة exclusive validity، كما يستهدف في نفس الوقت تجاوز القسمة الثنائية للحقيقة والقرار.

وقد أثارت نظرية المعرفة التي ظهرت صياغتها في كتاب (المعرفة والمصالح البشرية)، والتي تعرضت لتعديل جوهري، ان لم يكن للهجران في أعمال هابرماس الأخيرة على ما سوف نرى، أثارت نقاشا ونقدا مكثفين[11]، سأحاول أن ألخصهما، مع الوضع في الاعتبار صعوبة العرض الموجز لمسائل أثارها بناء فكري يتميز هو نفسه بالتعقيد

---

(11) يراجع:

- McCarthy, Th.: The Critical Theory of Jrgen Habermas, Hutchinson, London, 1978.
- Keat, R. : The Politics of Social Theory, Op. Cit.

ونحو مزيد من الافتراضات مع اجابة لهابرامس، أنظر:

- Thompson, J. B. and D. Held (eds.) : Habermas - Critical Debates, Macmillan, London, 1982.

والغموض، كما أبعد ما يكون عن الاتصاف ببلاغة التعبير المحكم.

فمن ناحية، تعرض مفهوم هابرماس عن أشكال المعرفة الثلاثة للتساؤل من عدة أوجه: فقد بدا لبعض النقاد أن التمييز بين العلم الامبيريقي التحليلي والمعرفة التاريخية التأويلية، يولد التناقض المزمن في الفكر الاجتماعي بين " التفسير " explanation و " الفهم " understanding، بوصفه تمييزا لمناهج العلوم الطبيعية عن مناهج العلوم الاجتماعية والثقافية.

ربما لم يكن هذا هو قصد هابرماس، لكنه لم يعط مؤشراً دقيقا عن كيف، أو ما إذا كان، يجتمع النوعان من المعرفة معا في نظريات العلم الاجتماعي[12]. أي ما اذا كانت هناك ارتباطات سببية في الحياة الاجتماعية يمكن وجودها داخل المخطط التفسيري للعلم الامبيريقي التحليلي، بالاضافة الى الظواهر التي يجب فهمها بشكل تأويلي.

كذلك نظر العديد من النقاد بتشكك الى المصلحة الثالثة المكوِّنة للمعرفة عند هابرماس، وهي المصلحة التحررية، فقد رأوا انها محددة بوضوح أقل بكثير من المصلحتين الثانيتين ومن شكلي المعرفة الآخرين، أو أنها في الواقع، وكما يورد كولاكوفسكي kolakowski، ليست أكثر من محاولة أخرى غير ناجحة في تقاليد المثالية الألمانية، لتجاوز التعارض بين العقل العملي والعقل النظري، أي بين المعرفة والارادة[13].

ومن ناحية أخرى، فان محاولة هابرماس لتقديم التحليل النفسي

---

(12) يعتبر هابرماس أن العلم الطبيعي يتضمن فقط معرفة امبيريقية تحليلية، ويعارض فكرة "تأويل الطبيعة" التي ينتقدها كيت بوصفها تمثل نوعا من عدم الانساق الداخلي في موقفه. أنظر:

Habermas, J., Op. Cit., pp. 78 - 84.

(13) Kolakowski : Main Currents of Marxism, Oxford University press, Oxford, Vol. 3, 1968, pp. 393-394.

بوصفه "النموذج الحقيقي الوحيد لعلم يجسّد التأمل الذاتي المنهجي"[14]، ومن ثم " التحرري " ، قد جرى فحصها بشيء من التفصيل على يد كيت[15]، الذي برهن على أن تأويلات هابرماس لنظرية فرويد تضمنت درجة كبيرة من اساءة التفسير، بحيث تلتقي شكوكا جدية على استخدام التحليل النفسي كنموذج لنظرية اجتماعية نقدية. ويمضي كيت الى اقتراح نظرة بديلة للنظرية القائمة على التحليل النفسي، أقرب الى المفهوم الخاص لفرويد، حيث تتضمن تفسيرا سببيا، يظل يسمح في حدود معينة بالتحرر، الذي يعني استقلالا ذاتيا أكبر.

اضافة الى ذلك، تثير نظرية هابرماس في المعرفة بعض المشكلات العامة الأخرى:

اذ أن نظرية الحق المتضمنة فيها هي نظرية " إجماع " consensus، في حين أن هابرماس يعارض بحزم أي نظرية " تناظر " correspondence، يمكن لها في رأيه أن تدعم الموضوعية الزائفة لفلسفة العلم الوضعية.

لكن هذا يطرح سؤالا عما اذا كانت نظرية الاجماع تصف على نحو كاف، أو تفسر، المقررات الفعلية للعلوم الطبيعية، أو العلوم الاجتماعية حقا، أي ما اذا كان "الحق" المكتسب عن طريق التحقيق العلمي يمكن تصوره فقط، وعلى نحو مناسب، كاتفاق تم التوصل اليه عن طريق المساجلة العقلانية، أو بواسطة نسق مغلق للمعاني closed meaning - system، في دائرة مجتمع من العلماء، ولا يتضمن أي رجوع الى تناظره مع واقع خارجي[16]. وأحد الصعوبات الكبرى المتعلقة بشرح هابرماس،

---

(14) Habermas, J., Knowledge and Human Interests, Op. Cit., p. 214.

(15) Keat, R., The Politics of Social Theory, Op. Cit.

(16) تلك مسألة كبيرة ومعقدة، مثلت موضوعا لسجال مكثف في فلسفة العلم الحديثة، لا يمكن متابعتها هنا. والعديد من الأفكار البديلة والاختلافات حول "امكانية الاختبار" و"الدحض" و" تبعية النظرية" يمكن ملاحظتها في

هي أنه لا يناقش حالات معينة لاختبار صحة المزاعم عن طريق البرهنة، أو كيف يتم أوْ لا يتم التوصل إلى اتفاق بالفعل.

كما أنه لا يواجه بشكل خاص، وفي حدود تاريخ العلم، السؤال عن الكيفية التي تتم بها الخيارات فيما بين النظريات المتنافسة، أو من جانب آخر، ما اذا كانت هناك نظريات غير متناسبة أو غير قابلة للقياس بنفس المعيار incommensurable.

ان هذا يوحي بسؤال أكبر عن الجدوى التي تتحقق للعلوم الاجتماعية من محاولة اقامة أساس مطلق للمعرفة، أي فلسفة أولى، كمقابل لهدف أكثر تواضعا لفلسفة العلم الذي يتقدم من هيكل معرفة مكتسبة الى استقصاء الشروط الترانسندنتالية لإمكانية مثل هذه المعرفة.

على أية حال، فان هابرماس قد عدّل بصورة جوهرية، وبخاصة في أعماله طوال العقد الماضي فيما يبدو، ذلك المذهب الذي عرضه في (المعرفة والمصالح البشرية) ففي ردّه على منتقديه، وفي معرض تعليقه على نقد موجّه الى فلسفته الأولى، أشار الى تخليه عن الأسس المطلقة: " لكونها ذات طبيعة تقليدية أو نقدية " ، ولاحظ في نفس الوقت أن " نظرية الحق المترابطة منطقيا أضعف بالتأكيد من أن تفسّر مفهوم الحق النسبي " ، لكنه يبرهن على أنها " تستعيد جدارتها في مستوى آخر مابعد نظري meta theoritical، حيث نضع نماذج مستقلة بذاتها من النظرية معا مثل لغز "[17].

مجموعة الدراسات التالية:

- Lakatos, J. and A. Musgrave : Criticism and the Growth of Knowledge, Cambridge university Press, Cambridg, 1970.
- Kuhn, T. S. : «Reflections on my Critics», pp. 231-278.
- Mulkay, M. : Science and the Sociology of knowledge, Allen and Unwin, London, 1979.

(17) يراجع:
Thompson and Held (eds.) : Habermas - Critical Debates, Op. Cit., p. 239.

وتبدو فكرة المصلحة المكونة للمعرفة الآن وقد تم هجرانها، أو على الأقل تم غض النظر عنها، وما قدم بدلا منها هو نظرية للغة والاتصال، والتي هي في نفس الوقت نظرية في الحق ومذهب في التحرر.

وكان هابرماس قد أشار في وقت مبكر الى أهمية اللغة في محاضرة تنصيبه عام 1965، حيث برهن على أن: " ما يرفعنا عن الطبيعة هو الشيء الوحيد الذي نعرف طبيعته: ألا وهو اللغة. فمن خلال بنيتها يتم افتراض الاستقلال الذاتي والمسؤولية لنا. فجملتنا الأولى تعبّر بشكل لا يشوبه الالتباس عن معنى كلّي وغير مقيد، عن الاجماع "[18] كما أنه صاغ فكرة الاتصال المتحرر من التسلط[19]، كجزء هام من النظرية النقدية.

لكن هذه الفكرة جاءت في كتاباته الأخيرة لتحتل مكانة رئيسية في اعادة صوغ نظرية الحق القائمة على الاجماع. ففي معرض ردّه على النقاد، استشهد هابرماس بالفقرة التالية التي اقتطفها من مكارثي McCarthy بوصفها تلخيصا كافيا لبرنامجه النظري. تقول الفقرة: " ان المزاعم ازاء الحق والصواب، اذا ما تم تحديها بشكل جذري، يمكن اعادة تكوين الرأي فيها فقط من خلال خطاب سجالي argumentative discourse يؤدي الى اجماع تحفزه العقلانية. والتحليل البراجماتي الكلي لشروط الخطاب والاجماع العقلاني، توضح أن هذه المزاعم تقوم على فرضية خاصة بموقف مثالي للحديث، يتميز بمساواة حقيقية في فرص توزيع أدوار الحوار "[20].

واستتباعا بمضي هابرماس إلى دراسة: " مشكلة ما هو المقصود باعادة تكوين الرأي في صحة المزاعم بصورة منطقية. فهذه المشكلة تستدعي فحص الافتراضات الاتصالية المسبقة للخطاب السجالي، أي نظرية الخطاب في الحق discourse theory of truth، وتستدعي كذلك تحليلا للقواعد

---

(18) نشر كملحق في كتاب هابرماس (المعرفة والمصالح البشرية).

(19) Zur Logik der Sozialwissenschaften, Suhrkamp, Frankfurt, 1970.

(20) McCarthy, Th., The Critical Theory of Jürgen Habermas, Op. Cit., p. 325.

الاجرائية العامة للمناقشة، أي منطق الخطاب logic of discourse "[21].

ويمكن توجيه نفس الاعتراضات ضد نظرية الحق هذه، مثلما تم توجيهها ضد مفهوم الحق الذي يكوّن جزءا لا يتجزأ من نظرية هابرماس المبكرة في المعرفة: فمن جهة، إن نظرية الاجماع المشار اليها هنا، ورغم أنه يبدو كما رأينا قد حدّدها فيما يتعلق بالحق النسبي، لكن دون أن يوضح موقفه بشكل كامل، ربما تكون قد تشبثت بتشويه الممارسة الفعلية للعلوم، بقدر ما تضمن هذا من اللجوء الى مفهوم معين عن التناظر مع الواقع.

ومن جهة أخرى، يمكن البرهنة على أن تبني أطروحة " التعميم " Universalization مثلما فعل هابرماس، أقل جدوى واستنارة من التحليل بطريقة مميزة للفروق بين العلم واللاعلم، بين العقل الخالص والعقل العملي، وبين الصحة validity والمزاعم claims. فسبل مناقشتها واعادة تكوين الرأي فيها هي التي تميز العلوم الطبيعية، والعلوم الاجتماعية، والأحكام الأخلاقية والجمالية[22].

ولايزال الهدف الأساسي لأطروحة التعميم، وكما جاء في الأعمال الأولى لهوركايمر، هو الجمع في مفهوم أحادي، هو مفهوم " الحق " ، وبين كل من الأحكام الواقعية والمعيارية. لكن هذا في رأيي يحجب الفروق الكبيرة بين أشكال التفكير وبين قوة الصحة والمزاعم، أي الدرجة التي يمكن اعادة تكوين الرأي فيها بفاعلية عن طريق البرهنة في مجالات مختلفة.

ومن هذا المنظور، يمكن البرهنة على أن المعرفة تكون بمعنى مهم متطابقة مع العلم، وأن العلوم الطبيعية تقدم نموذجا لمعرفة يعوّل عليها،

---

(21) Thompson and Held, Op. Cit. p. 256.

(22) كما هو مقرر، على سبيل المثال، بالاشارة الى الاختلاف بين العلوم الطبيعية والاجتماعية، في عمل باسكار. يراجع:
Bhaskar, The Possibility of Naturalism.

وأن المكانة العلمية للعلوم الاجتماعية تبقى موضع جدل من زوايا معينة، بسبب طبيعة عالم الحقائق الذي تتعامل معه، وأن المسائل المعيارية في مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية، هي جزئيا أمور للمعرفة فقط، الى الحد الذي تتأثر فيه الأحكام المعيارية بالمعتقدات حول الحالات الواقعية للأمور. وقبل ذلك، فانها تتضمن توجهات قيمية value orientations الى العالم تعتمد على المشاعر، التي يمكن بدورها أن تكون مرتبطة بمصالح اجتماعية وسمات الشخصية. ولهذا السبب، فإن الصعوبة الأكبر تكمن في حل الاختلافات الأخلاقية والجمالية، اذا ما قورنت بتلك التي تظهر في العلم، من خلال أي نوع من الخطاب السجالي.

وبالاجمال، فان هابرماس يعطي اهتماماً ضئيلا لهذه الفروق، وهو ما يرتبط كما أشرنا بالفعل فيما يتعلق بنظرية المعرفة، بحقيقة أنه يقدم نظريته بطريقة شكلية ومجردة، أكثر من الاندماج في عرض بعض التحليلات الصالحة لأن تكون مثالا للطرق التي يجري بها تحدي الصحة والمزاعم واعادة تكوين الرأي فيها، فعليا، في المجالات المختلفة للخطاب، كما هو مألوف مثلا في مناقشات فلسفة العلم وفي العديد من دراسات نظرية الأخلاق أو نظرية الجمال. وهذا معناه أنه لم يواجه مباشرة وبصراحة السؤال الحاسم عن كيفية حل الخلافات النظرية أو الخلافات الخاصة بالأحكام.

وفي أحدث أعمال هابرماس التي تمثلت في مؤلفه الضخم (نظرية الفعل الاتصال) Theory of communication action الذي صدر في مجلدين[23]، نجد مرة أخرى تغيراً مهما في بؤرة الاهتمام، لكن مع استمرارية ضمنية للفكر، مثَّلها استبقاء أطروحة التعميم.

وهدف هابرماس كما شرح في مقدمة هذا الكتاب، هدف ثلاثي: أن

(23) Habermas, J. : Theorie des Kommunikativen Handelns,- 2 Vols., Suhrkamp, Frankfurt, 1981.

يشرح مفهوم العقلانية، وأن يدمج هذا المفهوم في نظرة ثورية لنشأة المعرفة الحديثة للعالم، وأن يبّين الترابط الداخلي بين نظرية العقلانية ونظرية المجتمع، على صعيد منهجي، وأيضا على صعيد ما بعد نظري (ص23).

وهنا تندمج اهتمامات هابرماس الفلسفية مع القسم الثاني من عمله، البادي في بناء نظرية في المجتمع. ونجد أن الكتاب مكرّس إلى حد بعيد لتحليل وتقويم مفاهيم متنوعة للترشيد العقلاني والتحديث في النظرية الاجتماعية.

ففي المجلد الأول، يقوم بدراسة تفصيلية لنظرية ماكس ڤيبر عن الترشيد العقلاني للعالم الحديث، يتبعها بتقويم نقدي للتطورات اللاحقة لهذه النظرية، بدءا من استخدام لوكاش لمفهوم " التشيّؤ " ، الى نقد هوركايمر وأدورنو للعقل الأداتي instrumental mind.

وفي المجلد الثاني، يقوم بنقد " العقل الوظيفي " functionalist، على النحو الذي يظهر به في أعمال ميد mead وديركايم E. Durkheim، للشروح التأويلية للعالم الحي، وفي نظرية الأنساق systems theory التي قدمها تالكوت بارسونز T. Parsons. وينتهي الى تحديد الواجبات الراهنة للنظرية النقدية للمجتمع، والتي تتطلب في رأيه اعادة تعقب الخطوات، بدءا من بارسونز ومرورا بڤيبر وانتهاء بماركس، وهي الواجبات التي سأناقشها في الفصل القادم.

وقد كان هناك دائما بالطبع الارتباط في فكر هابرماس بين التحليل الفلسفي ونظرية المجتمع، وان تغيرت طبيعة هذا الارتباط بالتدريج:

ففي وقت كتابه (المعرفة والمصلحة البشرية) عام 1974، كان يبدو أن نظرية المعرفة مرتكزة على نظرية اجتماعية، حيث تتناظر أشكال المعرفة الثلاثة مع ثلاث قسمات رئيسية للحياة الاجتماعية، وهي العمل والتفاعل والتسلط.

لكن محاولة صياغة نظرية للمعرفة تبدو وقد تم التخلي عنها في المرحلة

التالية، حيث قدم هابرماس نظرية في الحق لا تضرب بجذورها في المجتمع، وانما في اللغة بوصفها ميزة عامة للجنس البشري[24].

وتستمر هذه الفكرة في القيام بدورها في الأعمال الأخيرة لهابرماس، وان أصبح هناك الآن تشديد أقوى على بناء أو اعادة بناء نظرية في المجتمع.

وبالفعل، فان هذا التطور يسجل ابتعادا أكثر عن نظرة مدرسة فرانكفورت في مرحلتها الأخيرة وأصبح هذا التباعد أكثر صراحة باعلان هابرماس أنه يتناول النظرية الاجتماعية بوصفه: " منظّر ماركسي مهتم بمواصلة التعاليم الماركسية في ظل ظروف تاريخية متغيرة على نحو كبير"[25]. وهكذا قدم هابرماس عناصر النظرية الماركسية المعاد بنائها في عملين مهمين خلال السبعينيات، دار أولهما حول مشكلات الشرعية في المجتمعات الرأسمالية ابان مراحل تطورها الأخيرة[26]، والثاني حول المادية التاريخية[27].

في العمل الأول، وبعد شرح مفهومه عن الأزمة في النظام

---

(24) حول هذا السؤال، أنظر مناقشة مكارثي لدفاع هابرماس عن الترشيد ضد النسبية:

Thompson and Held, Op. Cit., pp 57-78.

وحول الفكرة العامة للنسبية، أنظر:

Hollis M. and S. Lukes (eds.) : Rationality and Relativism, Blackwell, Oxford, 1982.

(25) في اجابته الى آجنس هيلر، أنظر:

Thompson and Held, Op. Cit., p. 220.

(26) Habermas, J. : Legitimation Crisis, Heinemann, London, 1976.

(27) Habermas, J.: Zur Rekonstruktion des Historischen Materialismus, Suhrkamp, Frankfurt, 1976.

وقد ترجمت مقدمة هذا الكتاب وفصله الرئيسي حول المادية التاريخية. أنظر:

Habermas, J : Communication and the Evolution of Society, Heinemann, London, 1979, pp - 95-129, 130-176.

الاجتماعي، وهو المفهوم الذي يقتفي خطى ماركس التي طورت للمرة الأولى مفهوما اجتماعيا علميا عن أزمة النظام، ويقتفي كذلك خطى نظرية النُظُم الحديثة، يمضي هابرماس لتقديم نموذج وصفي للرأسمالية المتقدمة، والتمييز بين أربعة اتجاهات رئيسية للأزمة، هي: الأزمة الاقتصادية، وأزمة العقلانية، وأزمة الشرعية، وأزمة الدافعية motivation crisis.

والموضوع الأساسي في تحليل هابرماس هو اعادة تقويم " فرص التحول الذاتي للرأسمالية المتطورة " ، وهي المسألة التي يرى أنه " لا توجد امكانية لأن تكون حاسمة بشكل مقنع " ، وذلك بسبب الشك في امكانية تجنب الأزمة الاقتصادية بصورة دائمة. وحتى اذا أمكن ذلك، فانه يمكن أن يتم فقط بطريقة تنتج اتجاهات باتجاه أزمة أخرى.

والقسمات الرئيسية للرأسمالية المتطورة التي تخلق هذا التشكك، هي من ناحية تكمن في اتساع نطاق تدخل الدولة في الاقتصاد، ومن ناحية أخرى في انحطاط الصراع الطبقي الذي نجحت الدول الرأسمالية الأكثر تطورا في ابقائه كامنا في مجالاتها الحاسمة. ولذلك أضحت المساومة الطبقية جزءا من بنية الرأسمالية المتطورة، كما تفتّت الوعي الطبقي (ص38-39).

وفي ظل هذه الظروف، يبرز هابرماس في بقية تحليله، اتجاهات الأزمة غير الاقتصادية، لاسيما تلك المتعلقة بمجالات الشرعية والدافعية، ويلخص بشكل مؤقت حجّة مركبة على النحو التالي:

" حيث أن النظام الاقتصادي قد فقد استقلاله الوظيفي في مواجهة الدولة، فان مظاهر الأزمة في الرأسمالية المتطورة قد فقدت هي الأخرى سماتها الأصلية شبه الطبيعية.. ولم تعد أزمة النظام متوقعة.. فالأزمات الاقتصادية انتقلت الى النظام السياسي.. وعلى هذا النحو الذي يفي بالغرض، يمكن للشرعية أن تعوض العجز في العقلانية، ويمكن للتوسع في العقلانية التنظيمية أن يعوض هذه النواقص التي تظهر في الشرعية. وهناك تظهر مجموعة من اتجاهات الأزمة.. فكلما كان النسق الثقافي أقل

قدرة على انتاج دوافع كافية للسياسة والنظام التعليمي والنظام المهني، كلما زاد انزواء المعنى الذي تحل محله قيم قابلة للاستهلاك " .

فالحدود الموضحة لاحداث الشرعية، هي بناءات معيارية جامدة، لم تعد تزود النظام السياسي الاقتصادي بالموارد الأيديولوجية، بل انها بدلا من ذلك تواجهه بمتطلبات مفرطة وفادحة " (ص 92-93).

وقد شرع باحثون آخرون في دراسة مشكلات مماثلة، ممن ارتبطوا بمعهد فرانكفورت ومعهد ماكس بلانك max - planck في ستارنبرج، الذي كان هابرماس يعمل مديرا للبحوث فيه ما بين عامي 1972 و 1981. وهكذا نجد أن أوفي قد اضطلع في عمله المشار اليه سابقا (الصناعة وعدم المساواة)، بنقد مبدأ الانجاز achievement principle كمبدأ مهم تُضْفَى عليه المشروعية في المجتمع الرأسمالي المتطور، أي بتعبيره " كنموذج لمجتمع يتم فيه توزيع المكانة الاجتماعية بشكل عادل طبقا للأداء " . كما سعى أوفي الى تبيان أن عواقب هذا المبدأ تتناقض مع المصالح والقيم السائدة، مستنتجا أن صحة هذا المبدأ " تصبح موضع شك من الناحية الواقعية، وأن الزعم بصحته لا يمكن الدفاع عنه سياسيا وأخلاقيا " (ص 137).

وفي أعمال أخرى، تناول أوفي بالفحص دور الدولة وطبيعة السلطة السياسية في المجتمعات الرأسمالية إبان مراحل تطورها الأخيرة. ويبرهن بشكل عام على أنه في هذا النمط من المجتمع، تصبح أي محاولة لتفسير التنظيم السياسي للسلطة من خلال مقولات الاقتصاد السياسي، غير ممكنة، وهو ما يرجع الى أن كلا من طرفي العلاقة الطبقية الممثّلة سياسيا،

---

(28) يراجع عملي كلاوس أوفي:

- Strukturprobleme des Kapitalistischen Staates, Suhr kamp, Frankfurt, 1972.
- «Political authority and class structures - An analysis of late capitalist societies» in (International Journal of Sociology), Vol. 2, N. 1, 1972.

أي الطبقة السائدة والطبقة المسودة، أصبحتا موضع جدل[29].

والمفهوم العام للتنظيم السياسي في المجتمعات الرأسمالية ابان مراحل تطورها الأخيرة، الذي يصل اليه أوفي، هو مفهوم " التدامج " corporatism، وهو بمثابة نظام تقوم فيه الدولة، وبهدف الحفاظ على الوضع القائم والتعامل مع الأخطار التي تهدد الاستقرار، بالتفاوض مع رأس المال الكبير والعمل المنظم، لتنشيء بذلك مساومة طبقية، أو حل طبقي وسط[30].

ويشير تشديد المنظّرين النقديين الجدد في النظرية الاجتماعية على الأهمية السياسية للطبقات الاجتماعية، وعلى الاهتمام المتنامي بمسائل الشرعية والدافعية، الى قدر من استمرارية الأفكار المبكرة لمدرسة فرانكفورت. لكن توجد أيضا الى جانب هذه الاستمرارية، اختلافات عميقة. فهابرماس ومن تأثروا بأعماله أخذوا فكر ماركس بشكل مدروس وأكثر صراحة، كنقطة بدء لهم، وتصوروا واجبهم على أنه اعادة بناء للنظرية الماركسية، لا الغاؤها والحلول محلها.

ومن هنا فانهم لم يقدموا تقييمهم للطبقات الاجتماعية بمعنى الاندماج الكلي المزعوم للطبقة العاملة في المجتمع الرأسمالي إبان مراحل تطوره الأخيرة، وانما على معنى كمون الصراع الطبقي.

وقد أوضح هابرماس صراحة أن أحد المسائل التي يجب على نظرية

---

(29) Offe, C., Political authority, p. 81.

(30) يراجع:

- Offe, C. : « The separation of form and content in liberal democratic politics» in (studies in Political Economy), Vol. 3, 1980.
- Panitch, L. : «The development of corporatism in liberal democracies» in (Comparative Political Studies), N. 10, 1977.
- Bottomore, T. (ed.) : «Crisis in capitalist society» in (Dictionary of Marxist Thought), Blackwell, Oxford, 1983.

الرأسمالية المتطورة أن توضحها هي: " في أي اتجاه من اتجاهات الأزمة يعبّر التضاد الطبقي، المقموع مؤقتا لكن غير المحلول، عن نفسه ؟ "[31].

وعلى نحو مماثل، لا يتبنى المنظرون النقديون الجدد وجهة نظر النقد الثقافي على وجه الحصر، بصدد دراسة أهمية الشرعية والدافعية في ابقاء التسلط، كما لا يمكن اعتبار الصيغة التي يقدمونها بصدد " أطروحة الأيديولوجيا المهيمنة "[32]، صيغة متماسكة، لأن دراساتهم عن اتجاهات الأزمة في المجتمع الرأسمالي تجري تماما في اطار تحليلي قبْلي a prior analysis للهياكل الاقتصادية والسياسية للرأسمالية ابان مراحل تطورها الأخيرة.

ومع ذلك، قد تدور المساجلة بأنه لايزال هناك، في هذه الأعمال الأحدث، تشديد قوي للغاية على مسائل الأيديولوجيا والشرعية، كما يوجد بها تقييم غير ملائم لتطور الطبقات الاجتماعية والصراع الطبقي، بالاضافة الى التهوين من شأن امكانية وجود أزمة اقتصادية محضة أو بشكل غالب، وسأتناول هذه المسائل في الفصل القادم.

ويشير الاسهام المهم الثاني لهابرماس في نظرية المجتمع، الى الارتباط المباشر بدرجة أوضح للمنظرين النقديين الجدد بالماركسية.

ويورد هابرماس أن مشروعه الخاص باعادة بناء النظرية المادية التاريخية: " يعني تفكيك مكونات النظرية، ووضعهما معا مرة أخرى في شكل جديد، من أجل احراز الهدف الأكثر اكتمالا الذي وضعته لنفسها. وذلك هو السبيل العادي، وفي رأيي أنه عادي أيضا بالنسبة للماركسيين، للتعامل مع نظرية تحتاج الى مراجعة العديد من أوجهها، وان كانت طاقتها على أن تكون حافزة، لم تستنفد بعد "[33].

---

(31) Legitimation Crisis, p. 39.

(32) لمناقشة حول عمل هابرماس في علاقته بهذه النظرية، أنظر:
Abercrombie, Hill and Turner, Op. Cit., pp. 15 -20

(33) Communication and the Evolution of Society, p. 95

ومع ذلك، فان اعادة البناء هذه تتضمن مراجعات متطرفة وعنيفة للغاية. ويشير هابرماس نفسه الى اعتراض محتمل ضد مشروعه، بطرح السؤال عن السبب في " الاصرار أكثر من ذلك على التعاليم النظرية الماركسية " ، في الوقت الذي يوضح فيه أن استقصاء عملية التراكم الرأسمالي، التي ركز ماركس عليها في المقام الأول، نادرا ما تلعب دورا في اعادة صياغة الافتراضات الأساسية فيما يتعلق بنظرية التطور " .

وردا على ذلك، يبرهن هابرماس على أن "تشريح المجتمع البورجوازي هو مدخل أساسي لتشريح المجتمعات ماقبل الحديثة "وأن" تحليل الرأسمالية يوفر الى هذا الحدّ أو ذاك، مدخلا ممتازا لنظرية التطور"، لأن "المفهوم العام عن مبدأ التنظيم الاجتماعي يمكن ادراكه في صورة صافية، حيث في المستطاع تطوير نموذج لجيل من الأزمات. كما أن آلية التسلط المشروع يمكن الامساك بها بقوة، وادراكها في الأيديولوجيات البورجوازية" .

طبقا لهذا، يستنتج هابرماس أن " القسمات المكونة لهذا النمط من الانتاج، أي الرأسمالية، تلقي بالاضواء أيضا على التشكيلات الاجتماعية التي كانت قائمة في مراحل أسبق " .

ومع ذلك، يواصل القول بأنه " لا يمكن أن نستنتج من ذلك المطالبة بأن منطق رأس المال يجب استخدامه كمدخل أساسي لمنطق التطور الاجتماعي " .

وعلى سبيل الايضاح، يبرهن على أنه " اذا كان التنظيم الاشتراكي للمجتمع هو الاستجابة الملائمة لتطورات التحرر من الأزمة في المجتمع الرأسمالي، فإنه لا يمكن ايعازه الى أي تحديد لشكل العملية المنتجة، وانما يجب تفسيره في حدود عمليات الدمقرطة democratiztion، أي بمعنى تغلغل بناءات كلية universalistic الى ميادين العمل التي كانت محجوزة سابقا لاطار خاص ومستقل ذاتيا من الغايات "[34].

---

(34) Ibid. pp. 123-124.

والعنصر الرئيسي، الواضح في الفقرات التي استشهدنا بها للتو، في اعادة بناء هابرماس لنظرية المادية التاريخية، هو التمييز الذي أقامه منذ أعماله المبكرة بين " العمل " و التفاعل أو " الفعل الاتصالي " .

وعلى هذا، فانه يبدأ اعادة صياغته لنظرية ماركس بفحص المفهوم الأساسي الخاص بالعمل الاجتماعي، أو العمل المنظم اجتماعيا، بوصفه " السبيل المحدد الذي يقوم فيه البشر، وعلى النقيض من الحيوانات، باعادة انتاج حياتهم " .

ويوحي بأن هذا المفهوم لايميز شكل اعادة انتاج، أو توالد، الحياة البشرية على نحو كاف: فهو يقطع التوازن التطوري بعنف. فلم يكن البشر فقط، بل أشباه البشر Hominids أيضا، هم الذين تميزوا عن أشباه القردة في أنهم اهتدوا الى اعادة الانتاج، وتطوير اقتصاد من خلال العمل الاجتماعي.

ومن ثم، فان هذا المفهوم بحاجة إلى اكتمال من أجل الامساك باعادة الانتاج البشري للحياة عن طريق مفهوم آخر يدرك أن " البشر كانوا أول من وضع حدّا للبنية الاجتماعية التي ظهرت مع الفقاريات " ، من خلال انشاء بنية اجتماعية عائلية تتطلب نسقا من المعايير الاجتماعية استلزم وجود اللغة (ص 136).

ولا يعدّ هذا الموقف ابتعادا كاملا عن وجهة النظر التي صاغها ماركس، الذي ذكر في مقدمة كتابه (الأيديولوجية الألمانية) أن: " نمط الانتاج لا يجب اعتباره ببساطة مثل اعادة انتاج الوجود الفيزيقي للأفراد. فهو بالفعل شكل محدد من نشاط هؤلاء الأفراد، وطريقة محددة للتعبير عن حياتهم، ونمط حياة معين "[35].

ورغم ذلك، فثمة بعض الاختلاف بين ماركس وهابرماس، لأنه رغم

---

(35) قدم فيلمر تعليقا في هذا الصدد. أنظر:
Wellmer, Critical theory of society, p. 67.

قول هابرماس أن أصل الحياة البشرية وتطورها يعتمدان بالأخص على عاملين هما: العمل الاجتماعي واللغة، يتعذر اختزال أحدهما وارجاعه الى الآخر. نجد أن ماركس، مع أنه لم يناقش مسائل نظرية اللغة بأي تفصيل، يؤكد على ما يبدو وحدة النشاط المادي الاجتماعي واللغة، كما أن انجلز، اضافة الى لوكاش في وقت لاحق، برهن على أن اللغة تنشأ من العمل[36].

وحتى اذا كان العمل الاجتماعي واللغة يجري تصورهما كعنصرين يصعب اختزال أحدهما وردّه الى الآخر، فان السؤال يثار حول ما اذا كان لأحدهما أهمية أكبر في تفسير التطور التاريخي للمجتمع البشري.

هنا يبدو هابرماس قريبا من مفهوم ماركس، حيث نجده يلخص رأيه في البداية بقوله إن: " مفهوم العمل الاجتماعي مفهوم أساسي، لأن التحقيق التطوري للعمل المنظم اجتماعيا، والتوزيع، يسبق بوضوح ظهور اتصال لغوي متطور. وهذا بدوره يسبق تطور النظم ذات الدور الاجتماعي " (ص137).

لكنه بعد ذلك يشرح هذا الرأي بملاحظة أننا نحتاج أيضا إلى مفهوم " التنظيم العائلي " من أجل الحصول على وصف كاف لنمط الحياة البشرية، لأن قواعد الفعل الاتصالي، أي معايير الأفعال، لا يمكن اختزالها الى قواعد للفعل الذرائعي.

وأخيرا فبالنظر الى أن " الانتاج والتنشئة الاجتماعية socialization يتساويان في أهميتهما مع العمل الاجتماعي ورعاية الناشئة، من أجل اعادة انتاج النوع البشري، في البنية الاجتماعية العائلية التي تحكم كلا الجانبين، تكون أساسية " (ص 138).

---

(36) تراجع مقدمة بوتومور:
«Linguistics» in T. Bottomore (ed.) , A Dictionary of Marxist Thought.

ومع ذلك، يظل هابرماس من ناحية أخرى قريبا من نظرية ماركس. ففي شرحه لمفهوم "تاريخ الجنس البشري " ، ولمفهوم ماركس المتميز عن التاريخ كسلسلة متفردة من أنماط الانتاج، يبدو أن هابرماس يقبل الاطار العام لتقسيم ماركس المرحلي للتاريخ، ولا يرفض سوى الصيغة القطعية التي قد تنطوي على تطور تقدمي وغير متقطع وثابت ووحيد الاتجاه، وتلك رؤية ستالينية أكثر منها ماركسية، لأن ماركس قدم بالفعل مسوغات عديدة، لاسيما في مناقشته للتشكيلات الاقتصادية ماقبل الرأسمالية في كتابه (الأسس) Grundrisse.

لكنه في هذه الحال، يبقى نمط الانتاج هو السمة الرئيسية في تحديد المراحل التاريخية وأشكال المجتمع، على حين ربما كان من المتوقع أن اصرار هابرماس على الأهمية المتساوية لكل من العمل الاجتماعي والتنظيم العائلي المتضمن لمعايير السلوك، سيؤدي الى قدر متزايد من المراجعة الجوهرية لمشروع ماركس.

وعلى جانب آخر، من الصعب أن نرى ما هو الاختلا ف الحقيقي في تفسير التطور الاجتماعي الذي تحقق عن طريق اعادة البناء هذه للمادية التاريخية، إلا فيما يتعلق بالمستقبل، أي مايتصل بامكانية الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية، وهي الامكانية التي يعتبر هابرماس، كما لاحظت من قبل، أنها تعتمد بدرجة أكبر على عمليات الدمقرطة بأكثر من اعتمادها على تغييرات في نمط الانتاج.

ولعلني أفسّر السمة القاصرة والمقيدة لاعادة البناء التي قام بها هابرماس باعتبارها نتيجة تجاهله لأعمال المؤرخين، وهو ما يطرح سؤالا أكبر حول مكانة وموقع الدراسات التاريخية في أعمال مدرسة فرانكفورت والنظرية النقدية الجديدة، مما سأتناوله في الفصل القادم.

وربما يبدو صعبا، ان لم يكن مستحيلا، في هذه المرحلة، تكوين رأي قاطع في الانجاز الجوهري والتأثير الذي حققته أعمال هابرماس.

على الأقل لأن مفاهيمه لاتزال تتطور بوضوح، كما أنها خضعت بالفعل لتغيرات هامة.

وفي الظن أن المسألة الأكثر وضوحا، هي مدى ابتعاده عن أفكار مدرسة فرانكفورت الباكرة، حيث نجده قد سار، الى حدّ ما، في عكس الاتجاه الذي بدأه أدورنو وهوركايمر، بإيلائه أهمية أكبر للنظرية الماركسية في المجتمع على نحو متميز، حين كرّس مزيدا من الاهتمام لتحليل الهياكل الاقتصادية والسياسية، فيما نجد، على العكس، اشارات ضئيلة في أعماله لصناعة الثقافة.

وأكثر من هذا، فانه لا يطابق النظرية النقدية بالفكر الفلسفي في مواجهة العلم. فهو يقترح أن " النقد " ينبغي وضعه بطريقة ما بين الفلسفة والعلم[37]. وهذا المفهوم يتيح مجالا لعلم امبيريقي عن المجتمع، رغم أن ذلك لا ينبغي أن يستنفذ امكانية المعرفة الاجتماعية، ويجب اتمامه، أو وضعه، في اطار " فلسفة تاريخ لها هدف سياسي "[38].

وفي نفس الوقت، توجد هناك أيضا استمراريات واضحة في النظرية النقدية من الثلاثينيات وحتى الوقت الراهن.

ورغم أن هابرماس لم ينسب الى الفلسفة دورا بارزا للغاية مثل ذلك الذي حازته في فكر أدورنو وهوركايمر، فان واقع الحال بلا شك، وبخاصة في أعماله الباكرة، أنه كان لايزال مشغولا الى حدّ بعيد بنقد الوضعية وكان تأثيره ملحوظا بقوة كبيرة في المناظرات مابعد النظرية حول الأسس الفلسفية للعلوم الاجتماعية.

---

(37) Habermas, J. : Theory and Practice, Heinemann, London, 1974 ; Chapter 6.

وهذا الفصل نشر في البداية عام 1968، ويحتوي أيضا نظرة واضحة لرؤية هابرماس وقتذاك، حول علاقة النظرية الماركسية بنمو الرأسمالية.

(38) Ibid., p. 242.

ومؤخرا فقط، جاءت اعادة بناء النظرية الاجتماعية، لتحتل مكانا أكثر بروزا في أعماله الخاصة، وفي برنامج بحوث معهد ستارنبرج. لكن توجد في هذا المجال أيضا عناصر للاستمرارية، لاسيما في نوع الاهتمام الذي أولاه لوضع الطبقات الاجتماعية المتغير ودورها في المجتمع الرأسمالي خلال مراحل تطوره الأخيرة، بوصفه مشكلة كبرى للنظرية الماركسية، ولمفهوم ڤيبر عن الترشيد العقلاني المتزايد للحياة الاجتماعية، باعتبار أنه يجسّد نظرة للاتجاهات الأساسية للتطور الرأسمالي، ويعدّ بمثابة بديل أو تتمة لتحليل ماركس، وتلك واحدة من المسائل الأكثر أهمية التي ستوضع موضع الفحص في الفصل التالي.

خاتمة

تقييم نقدي للنقاد

عرضت في الفصول السابقة لمجمل الأفكار والموضوعات الرئيسية التي تصدت لها مدرسة فرانكفورت خلال مراحلها المختلفة. وفي غضون ذلك أشرت الى بعض من الانتقادات التي تم، أو التي يمكن، توجيهها نحوها حول مسائل معينة. لكن هذا العرض يظل بحاجة الى اكتمال، بواسطة تقييم أكثر عمومية لاسهام هذه المدرسة في تطور الفكر الماركسي ونظرية علم الاجتماع في النصف الأول من القرن العشرين. ولعل احدى القسمات الملفتة للنظر في عمل مدرسة فرانكفورت، والتي لم تحظ بتغطية كافية، هي أنه على الرغم من أن الهدف الأصلي لمعهد فرانكفورت كان تطوير بحوث في عدة فروع بحثية مترابطة، فان نطاق اهتمامها أضحى محدودا للغاية.

ففي المقام الأول، نلاحظ بعد السنوات الأولى لوجود المعهد، عندما كان كارل جرينبرج مديرا له، أن الدراسات التاريخية لم تلعب أي دور في عمله، كما لم يرتبط أي مؤرخ بأنشطته ارتباطا وثيقا. وكان هذا التجاهل للتاريخ متصلا أساسا بالمفهوم الذي صاغته مدرسة فرانكفورت، في الوقت الذي أخذت فيه شكلا محدد المعالم تحت تأثير أدورنو وهوركايمر، بوصفها نظرية اجتماعية، تعنى أساسا بنقد العصر الحالي.

وبالطبع، فان هذا يحتمل علاقة ما مع وجهة نظر ماركس، بالأقل على النحو الذي تم التعبير عنه في كتاباته المبكرة والأشد تأثراً بالهيجلية،

ومنها مثلا خطابه الى روج Ruge المنشور في صحيفة (Deutsch - Französische Juhrbücher) عام 1844، حيث وصف هدف هذه الصحيفة الجديدة بأنه يتمثل في "تطوير مبادئ جديدة للعالم مستخرجة من مبادئه الراهنة، وتبيان السبب في أن العالم يتصارع بالفعل، وتقديم تفسير لما يحدث له من وقائع، مع احراز فهم ذاتي، أو فلسفة نقدية، عن العصر، فيما يتعلق بصراعاته ورغباته".

وتلك هي الحال أيضا في الأعمال اللاحقة التي كرس فيها ماركس الجزء الأكبر من اهتمامه لتقديم تحليل للمجتمع الرأسمالي الحديث. لكنه وضع هذا التحليل بحسم. بدءا من وقت كتابة (الأيديولوجية الألمانية) داخل نطاق علم للتاريخ، تشير الى عناصره بوضوح، العديد من النصوص الخاصة بأصول وتطور الرأسمالية والتشكيلات الاجتماعية الاقتصادية لما قبل الرأسمالية والمجتمعات القديمة.

وكانت فكرة مدرسة فرانكفورت عن النظرية أكثر اقترابا من فكرة كورش التي تأثرت بها في الأساس. ومعروف أن كورش تصور الماركسية في شكلها الهيجلي الشاب المبكر لماركس كفلسفة نقدية وتعبير نظري عن الحركة الثورية للبروليتاريا[1]. وكما سنرى، فان ذلك طرح صعوبات رئيسية في وقت لاحق، بصدد تحديد مكانة النظرية النقدية في ظل الغياب الواضح للبروليتاريا الثورية.

ومع ذلك، فانني أريد أن أركز، بالنسبة للحاضر، على العواقب العامة للنهج غير التاريخي لمدرسة فرانكفورت. وتمثلت احدى هذه العواقب في

---

(1) Korsch, K.: Marxism and Philosophy, 1923, English translation, New Left Books, London, 1970, p. 42.

وعلى الرغم من أن كورش، وخلافا لمفكري مدرسة فرانكفورت، غيّر رؤيته مؤخرا، واقترب من النظر الى الماركسية باعتبارها فلسفة اجتماعية عامة، لكنه أكد على أن الاتجاه الأساسي للمادية التاريخية ليس فلسفيا فقط، بل وأيضا منهج علمي امبيريقي.

أن المدرسة مالت للتأثر الى حد بعيد بالظواهر الآنية، وأحيانا بالظواهر السريعة الزوال التي لا تدوم إلا لفترة محدودة للغاية، والتي لم تحظ بالبحث بطريقة منهجية من منظور تاريخي ومقارن.

ويتضح هذا من الانشغال الزائد للمدرسة بالاشتراكية الوطنية ومعاداة السامية في الثلاثينيات والأربعينيات، وبصناعة الثقافة في الخمسينيات.

وأكثر من ذلك، يتضح هذا من اعتناق ماركيوز في الستينيات للفكرة القائلة بأن حركات اجتماعية شتى، بين الطلبة والأقليات العرقية، والعالم الثالث، شكلت عناصر ذات ثورية جديدة للتاريخ.

ويتساوى مع ذلك في الوضوح، الرفض النهائي من جانب مفكري مدرسة فرانكفورت للفكرة الماركسية الرئيسية عن الطبقة العاملة كقوة ثورية في المجتمع الرأسمالي.

وقد جاء هذا الرفض المطلق دون أي تمحيص للتطور التاريخي الفعلي للطبقة العاملة وحركاتها وأحزابها، ودون أي محاولة للمقارنة مثلا بين وضع البورجوازية كطبقة ثورية في المجتمع الاقطاعي وبين وضع الطبقة العاملة في الرأسمالية المتطورة.

ويمكن القول بأن مدرسة فرانكفورت لم تقم بأي محاولة لاعادة تقييم نظرية ماركس في التاريخ ككل، بل انها في الحقيقة قد تجاهلتها ببساطة. ومع ذلك، فقد حدث تغير بظهور أعمال هابرماس الأخيرة. وكما أوضحت في الفصل السابق، فان اعادة بناء المادية التاريخية التي قام بها، استهدفت اعادة صياغة النظرية بصورة أكثر ملاءمة.

لكن هذه المحاولة كانت أيضا غير تاريخية في نهجها بصورة عجيبة، ومقيّدة الى حد بعيد في حدود تحليلها التصوري، رغم بعض اهتمام ظهر حديثا في أعمال أنثروبولوجيين ومشتغلين بعلم ماقبل التاريخ، متعلق بأصول المجتمعات البشرية.

كما أن هناك اشارات موجزة الى المناقشات حول نمط الانتاج الآسيوي

وحول تصنيف الاقطاعية. ومع ذلك، فان ما هو مطلوب في أي اعادة تقييم جوهرية لنظرية ماركس، هو اعادة تفكير شاملة في الحجة التاريخية المتعلقة بهيكل أو عمليات التغير داخل نطاق الأشكال الكبرى للمجتمع[2].

وفي نفس الوقت، يتعين علينا أن نتساءل عن الاختلافات في تفسير التغير التاريخي التي تنتج عن الموافقة على مبدأ هابرماس الأساسي، القائل بأن تشكل وتطور المجتمعات البشرية ينبغي تصورهما في حدود عمليتين متميزتين لا يمكن اختزال إحداهما وردّه الى الأخرى:

العمل أو الفعل الذرائعي والفعل الاتصالي. فما هي التعديلات التي يستلزمها هذا مثلا في الدراسات الماركسية، أو الدراسات المتأثرة بالماركسية

---

(2) حول مشكلات التحليل الماركسي لمختلف أشكال المجتمع وتحولاتها. يراجع:
Bottomore, T. (ed.) : Dictionary of Marxist Thought, Blackwell, Oxford, 1983.

ولمزيد من الاطلاع حول المجتمع القديم، والمجتمع الآسيوي، والمجتمع الاقطاعي، والتحول من الاقطاع الى الرأسمالية، يراجع:

- Anderson, P : Passages from Antiquity to Feudalism, New Left Books, London, 1974.
- Anderson, P : Lineages of the Absolutist state, New Left Books, London, 1974.
- Krader, L.: The Asiatic Mode of Production, Van Goreum, Assen, 1975.
-Turner, B. S. : Marx and the End of Orientalism, Allen and Unwin, London, 1978.

كذلك هناك كتابات أسهمت في التحليل الحديث للمجتمعات القبلية و قدمها أنثروبولوجيون ماركسيون. أنظر:

- Seddon, D. (ed.) : Relations of Production, Frank Cass, London, 1978.
-Braudel, F.: Civilization and Capitalism, 15 th - 18 th Century (3 Vols.), English translation, Collins, London, and Harper and Row, N. Y., 1981 - 1983.

تأثيرا قويا والخاصة بظهور الرأسمالية، مثلما هو الحال في تقويم برودر Brauder الشامل والواسع النطاق للحضارة والرأسمالية[3]، أو في الآراء المعارضة والمخالفة المعروضة في سلسلة حديثة من المقالات في "الماضي والحاضر" ؟[4].

ليس من الواضح على الاطلاق كيف يمكن الاجابة على هذا السؤال. وفي رأيي، فانه يجب الاعتراف بأن البحث التاريخي المفصّل هو على الأقل بحث مهم، مثل التحليل السوسيولوجي والتفسير التصوري، لاعادة بناء ملائمة لنظرية ماركس في التاريخ، أو لتجاوزها الى نظرية جديدة.

ومثلما تجاهل مفكرو مدرسة فرانكفورت التاريخ، أو استبعدوه، فانهم تجاهلوا كذلك التحليل الاقتصادي الى حدّ بعيد.

فالسنوات الأولى للمعهد هي فقط التي كان فيها المنظّرون، والمؤرخون بالمثل، هم الأكثر بروزا، ولاسيما هنريش جروسمان Grossmann H. الذي نشرت دراسته عن التراكم والتفكك الرأسمالي عام 1929 في المجلد الأول من سلسلة مطبوعات المعهد[5].

لكن جروسمان، وكما يلاحظ مارتن جاي، "يمكن بصعوبة اعتباره قوة مهمة في التطور الفكري للمدرسة"، لأنه كان غير متعاطف بدرجة كبيرة مع المنهج الجدلي الهيجلي الجديد الذي جاء يسود عملها[6].

أما المنظِّر الاقتصادي المهم الذي اقترن بالمعهد في مرحلة لاحقة، فكان

---

(4) بدأت المناقشة بمقال لبرينر حول بنية الطبقة الزراعية والتنمية الاقتصادية في أوربا ماقبل الصناعة، وذلك في مجلة (past and present) ، العدد رقم (70) عام 1976، واستمر في الأعداد رقم (78)و (79) و(80) عام 1978، ورقم (85) عام 1979، وتواصل حتى عام 1982.

(5) Grossmann, H. : Das Akkumulations und Zusammenbruchsgesetz des Kapitalistischen systems, 1929, New Edition, Neue Kritik, Frankfurt, 1967.

(6) Jay, M.: The Dialectical Imagination, Little, Brown and Company, Boston, 1973, pp. 16 - 17.

فرانز نيومان F. Neumann. لكن صلته بهذا المعهد كانت قصيرة الأمد، وكان شأنه شأن جروسمان، غير متعاطف مع النظرية النقدية.

الاقتصادي الوحيد الذي احتل مكانة أساسية في مدرسة فرانكفورت، هو صديق هوركايمر المقرّب فريدريك بولوك F. Pollock، الذي تناولت أعماله عن التخطيط السوفيتي والتسيير الذاتي فيما بعد، مسائل السياسة الاقتصادية في المقام الأول.

وعلى هذا النحو، يمكن القول إن المدرسة قد أولت اهتماما محدودا بالتحليل النظري أو التاريخي لتطور الاقتصاد الرأسمالي، ولم تقدم أي دراسة يمكن مقارنتها مطلقا بكتابات هلفردنج Hilferding عن "رأس المال المالي" و"الرأسمالية المنظمة"[7]. كما لا يمكن مقارنتها بتحليل نيومان عن العلاقة بين الرأسمالية الاحتكارية ونظام الاشتراكية الوطنية[8].

ومرة أخرى، تغير هذا الوضع الى حدّ ما، نتيجة لأعمال منظّري النقدية الجديدة، حيث ناقش هابرماس في فصل عنوانه "النموذج الوصفي للرأسمالية المتطورة"، أوجزه في الجزء الثاني للفصل الأول من كتابه (أزمة الشرعية)، وفي فصل لاحق هو الفصل الرابع، ظروف الأزمة الاقتصادية، وناقش بايجاز بعض أوجه الاقتصاد الرأسمالي.

وفي نفس الوقت، أشار أوفي بالمثل في كتابه عن المشكلة الأساسية للرأسمالية، الى السمات الاقتصادية للرأسمالية المتطورة.

لكن اهتمامهما انصب على دور "الدولة التي تنهج سياسة

---

(7) Hilferding, R. : Finance Capital, 1910, English Translation, Routledge and Kegan Paul, London, 1981.

ومقدمتي في هذه الترجمة تعطي جزءاً لمقالات هيلفردنج التي نشرها عام 1920 حول الرأسمالية التنظيمية.

وراجع أيضا:

Hilferding, R. : « The organized economy» in T. Bottomore and P. Goode (eds.), (Readings in Marxist Theory), Op. Cit., pp. 247 - 253.

(8) Neumann, F. / Behemoth, Oxford University press, N. Y., 1944.

التدخل" interventionist state، كما أنصب أيضا على مشاكل الشرعية المتعلقة بها. ولم يحاولا تقديم تحليل نظري لنمط الانتاج الرأسمالي في مرحلته الأخيرة، كما لم يحاولا تقديم وصف تاريخي لتطوره.

وفضلا عن ذلك، فلا يزال واقع الحال هو أنه لا يوجد منظّر اقتصادي مهم مرتبط بالنظرية النقدية، حتى في شكلها المعدّل. كما أن المدرسة ككل، لم تقدم أي اسهام ملحوظ في النظرية الاقتصادية الماركسية، كما تطورت من خلال أعمال هلفردنج ومفكرين لاحقين(9).

هذا التجاهل للبحث التاريخي من جهة، والتحليل الاقتصادي من جهة ثانية، يفصل مدرسة فرانكفورت بشدة، هي وامتدادها المتمثل في النظرية النقدية الجديدة، عن الماركسية.

ولعلنا نجد في مناقشة الطبقات الاجتماعية، الانحراف الأكثر وضوحا عما يمكن تسميته بشكل عام بالماركسية الكلاسيكية:

فمفهوم "الطبقة" لايعد فحسب مفهوما أساسيا في نظرية ماركس الاجتماعية، بل يعدّ في الحقيقة بمثابة نقطة بدئها بمعنى حاسم، وذلك باعتراف ماركس بالبروليتاريا كذات ثورية في المجتمع الحديث، وكحاملة رسالة المثل الأعلى للانعتاق في العالم الحقيقي، بما جعله يضحى أيضا، كما لاحظ أوسوفسكي Ossowski، "رمز المذهب بأكمله، والبرنامج السياسي المستمد منه"(10).

وعلى الجانب الآخر، فقد وُصفت مدرسة فرانكفورت بأنها "ماركسية بدون بروليتاريا"(11)، وينظر بعض مفكريها بشكل أكثر عمومية الى

---

(9) مثال على ذلك الدراسات التي قدمها هنريك جروسمان، وفرانز نيومان، والتي سبقت الاشارة اليها، اضافة الى دراسات ارنست مندل، وبول سويزي.

(10) Ossowski, S. : Class Structure in the Social Consciousness, Routledge and Kegan Paul, London, 1963, p. 71.

(11) Kolakowski, L.: Main Currents of Marxism, Oxford University Press, Oxford, 1968, Vol. 3, pp. 357 - 415.

الماركسية الغربية، جزئيا على الأقل، باعتبارها تأمل فلسفي للهزائم التي تكبدتها الطبقة العاملة في القرن العشرين، وبخاصة في ثورات وسط أوربا التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، وما تلاها من صراع ضد الفاشية[12].

وقد استمرت هذه النغمة، القائلة بتدهور أو تلاشي الطبقة العاملة كقوة ثورية، في النظرية النقدية الجديدة:

هكذا نجد هابرماس في كتابه (النظرية والممارسة) يحاجج بأن: "البروليتاريا بوصفها بروليتاريا، قد تلاشت"، لأنه في حين أصبح القسم الرئيسي من السكان بروليتاريا من حيث دوره في عملية الانتاج، فان هذا الوضع " لم يعد متصلا اتصالا لاينفصم الى حدّ كبير بالحرمان من المكافآت الاجتماعية، وأنه لا يوجد أي وعي طبقي، لاسيما وعي طبقي ثوري، في الشرائح الأساسية من الطبقة العاملة اليوم.

هنا، وعلى هذا فان ماركس يستطيع اليوم أن يتخلى عن أمله في امكانية أن تصبح النظرية قوة مادية حالما تستحوذ على الجماهير"(ص 196-197).

وقد عرض أوفي وجهة نظر مماثلة في كتابات شتى. وربما يكون هابرماس قد عدّل مفهومه الى حدّ ما في فترة لاحقة، وذلك باشارته كما لاحظت من قبل في هذا الكتاب، إلى: "تناقض طبقي مقموع الى حين، لكنه لم يُحلّ بعد"، رغم تأكيده مجددا في ردّ حديث له على مقال كتبه اجنسي هيلر A. Heller، على أنه "تفصل بيننا وبين ماركس، حقائق تاريخية جليّة، منها على سبيل المثال أنه لا توجد في المجتمعات الرأسمالية المتطورة طبقة يمكن تمييزها، ولا توجد جماعة اجتماعية محددة يمكن

---

(12) يراجع:

- The Entry of «Western Marxism» in T. Bottomore (ed.), A Dictionary of Marxism Thought, Op. Cit.
- Anderson, P. : Consideration of Western Marxism, New Left Books, London, 1976.

انتقاؤها بمفردها كممثل لمصلحة عامة تم انتهاكها"[13].

وأحد القسمات المثيرة للدهشة فيما يتعلق بالأحكام التي أصدرتها مدرسة فرانكفورت في مرحلة نضجها والمنظرين النقديين الجدد، على حد سواء، حول مفهوم "الطبقة" هو أن هذه الأحكام ليست مدعمة بأي تحليل للبنية الطبقية أو للتطور التاريخي للطبقات، حيث تبدو مرتكزة فقط على الحس المشترك common sense أو "الحكمة التقليدية" أو "الحقائق الجلية" بتعبير هابرماس.

لكن التحليل التاريخي والسوسيولوجي الجاد يكشف النقاب عن موقف أكثر تعقيدا والتباسا. مثال ذلك أننا اذا نظرنا الى تطور حركات وأحزاب الطبقة العاملة في العالم الرأسمالي الغربي عبر المائة عام الماضية، فانه لا يمكن القول بأنه كانت هناك في أي بلد، أو في أي وقت، أغلبية من الطبقة العاملة اشتراكية في رؤيتها أو أفعالها بشكل حازم ومتسق ولاتزال أقل ثورية. ومع ذلك فانه يمكن البرهنة على أنها أصبحت شيئاً أكثر من كونها أقل ثورية في مجرى القرن العشرين، ولاسيما منذ عام 1945، وحتى العقد الماضي على الأقل[14].

ويبدو أن مفهوم مدرسة فرانكفورت عن تدهور، أو تلاشي، الطبقة العاملة كقوة سياسية، قائم أساسا على فكرة طوباوية وخيالية عن الثورة، التي هي بأية حال الطريق الوحيدة، أو الأكثر ماركسية، لتصور عملية

---

(13) Thompson and Held (eds.) : Habermas - Critical Debates, p. 221.

(14) ناقشت هذا السؤال بشكل مستفيض في مقال حول "الدور السياسي للطبقة العاملة في أوروبا الغربية". أنظر:

Botomore, T. : Sociology and Socialism, Harvester Press, Brighton, 1984.

ومن الأهمية هنا أن نلاحظ وجود اختلافات معتبرة بين البلدان، نتيجة لتمايزاتها التاريخية، والتي يمكن التأكيد عليها من خلال مبحث علم الاجتماع المقارن الذي أغفلته مدرسة فرانكفورت.

الثورة الاجتماعية. وربما يكون هذا المفهوم قائما أيضا على انعكاس الخبرة الاستثنائية الأمريكية، الناجمة عن غياب طبقة عاملة منظمة سياسيا في المجتمع الأمريكي، على فكرهم، ولاسيما في حالة ماركيوز[15].

وفضلا عن ذلك، فان أي تقييم لوضع الطبقة العاملة الراهن، أو الحديث، في الرأسمالية المتطورة، يتطلب تحليلا لكل البنية الطبقية وتغيراتها، وهو الأمر الذي فشلت مدرسة فرانكفورت والنظرية النقدية الجديدة في تقديمه على نحو متميز، أو حتى المجازفة بتقديمه.

وتجدر الاشارة بهذا الصدد الى أن علماء اجتماع ماركسيين، اضافة الى غيرهم من الرديكاليين في المجتمعات الرأسمالية المتطورة، اضطلعوا في السنوات الأخيرة[16]. بدراسات هامة تتعلق بطبيعة الطبقة السائدة في هذه المجتمعات الرأسمالية المتطورة، وبأهمية الطبقات الوسطى الحديثة،

---

(15) تراجع:

- The Introduction by C. T. Husbands to the English translation of W. Sombart, Why is there no socialism in the United States ? Macmillan, London, 1976.
- Laslett, J. and S.. M. Lipset (eds.) : Failure of a Dream ? - Essays in the History of American Socialism, Anchor and Doubleday, Garden City and New york, 1967.

(16) يراجع على سبيل المثال:

- Braverman, H. : Labor and Monopoly Capital, Monthly Review press, N. Y., 1974.
- Poulantzas, N. : Classes in Contemporary Capitalism, New Left Books, London, 1975.
- Touraine, A. : The Post - Industrial Society, Rondom House, N. Y., 1971.
- Touraine, A. :Self - Production of Society, University of Chicago press, Chicago, 1977.
- Wright, E. O. : Class, Crisis and the Stats, New Left Books, London, 1978.

وعواقب الوضع الاجتماعي والاقتصادي المتغير للطبقة العاملة، ولايزال الجدل محتدما حول أهمية ملكية رأس المال، وبخاصة تركزه في شركات عملاقة متعددة الجنسيات، في علاقتها بسلطة التكنوقراط والبيروقراط، وحول التوجهات السياسية للطبقة الوسطى، وحول ظهور طبقة عاملة جديدة[17]، أو بنية طبقية جديدة تماما[18]، لكن جميع المشاركين في هذا الجدل المحتدم يعترفون بسريان المفعول المستمر للصراع الطبقي، ويعزو الكثيرون منهم تأثيرا تاريخيا كبيرا للأزمات الاقتصادية، مثل تلك التي نعايشها حاليا، بطريقة لا تمت بصلة إلى الأفكار والاهتمامات الرئيسية للنظرية النقدية.

لقد ماتت مدرسة فرانكفورت في شكلها الأصلي، وكمدرسة في الماركسية أو علم الاجتماع.

فعبر العقدين الماضيين، أخذ تطور الفكر الماركسي في العلوم الاجتماعية، وبخاصة في الأنثروبولوجيا وعلم الاقتصاد وعلم الاجتماع، مجرى جعله أكثر اقترابا من الاهتمامات الرئيسية لنظرية ماركس، سواء ما يتصل بتحليل أنماط الانتاج، أو التناقضات البنيوية والتحولات التاريخية، أو البنية الطبقية والصراع الطبقي، أو السلطة السياسية ودور الدولة.

وفي نفس الفترة تقريبا، ونتيجة لرسوخ الماركسية الآن كأحد النماذج الكبرى في علم الاجتماع، أضحى جزء جوهري من النظرية في هذا العلم وبحوثه يوجّه الى مسائل مماثلة، فيما قلّ الانشغال الزائد بالثقافة،

---

(17) يراجع:

Mallet, S. : The New Working Class, Spokesman Books, Nottingham, 1975.

(18) يراجع:

Touraine, A., The post - Industrial Society, Op. Cit.

وانظر أيضا أعماله الأخيرة التي تؤكد على دور الحركات الاجتماعية الجديدة.

الذي ميّز أعمال أدورنو وهوركايمر[19].

ومن الواضح أيضا أن بعض الدراسات المهمة الأخيرة عن الثقافة والأيديولوجيا قد حلّلت هذه الظواهر من منطلق نظري مختلف اختلافا عميقا عن منطلق مدرسة فرانكفورت، وجرى أغلبها الأعم داخل اطار بنيوي يؤكد دور الثقافة والأيديولوجيا كعناصر في عملية عامة لاعادة الانتاج الاجتماعي[20].

لكن يوجد في النظرية النقدية الجديدة لهابرماس، كما أثرت، تقارب معين مع كل من الماركسية وعلم الاجتماع، بينما احتفظت هذه النظرية الجديدة في نفس الوقت ببعض الأفكار المتميزة لمدرسة فرانكفورت وطوّرتها.

وأبرز هذه الأفكار، والتي تم النظر اليها عموما في الحقيقة على أنها تشكل الاهتمام الأساسي لفكر هابرماس، هي النظرية النقدية ذاتها، وموقعها بين الفلسفة والعلم.

فقد أسهم هابرماس في كتاباته الأولى في نقد مدرسة فرانكفورت

---

(19) من الصعب بالطبع أن نعرّف بدقة الاتجاهات النظرية الرئيسية الراهنة، وان جازت الاشارة الى بعض من الملاحظات التي قدمت عبر أعمال الجمعية الدولية لعلم الاجتماع. أنظر:
Bottome, T., S. Nowak and M. Sokolowska (eds.), sociology - The state of the Art, Sage Publications, London and Beverly Hills, 1982.

(20) أنظر كمثال مهم لاتجاه مختلف:
Bourdieu, P. and Jean - Claude Passeron : Reproduction in Education - Society and Culture, Sage Publication, London and Beverly Hills, 1977.
وحول النظرية الماركسية عن الأيديولوجيا بشكل عام، أنظر:
Larrain, J. : Marxism and Ideology, Macmillan, London, 1983.
وهذا الكتاب يختبر تنامي رؤية هذه النظرة منذ كتابات ماركس حتى جرامشي، ويناقش آراء ألتوسير والبنيوية، ويتجاهل مدرسة فرانكفورت، رغم اشارته النقدية الى نظرية هابرماس عن اللغة والاتصال.

للوضعية. لكن مفاهيمه، حتى في ذلك الوقت، كانت مختلفة جوهريا عن مفاهيم أدورنو وهوركايمر وماركيوز، حيث كانت أقل عداء للعلم والتكنولوجيا[21]، كما أنه لم يكترث، أو أنه رفض ضمنيا، زعمهم القائل أن الفلسفة، أو الفن، شكل من المعرفة متفوق على العلم.

وبالتالي، فقد عوّل هابرماس أهمية أكبر على العلم، وأعطى بالمقابل دورا متناقصا باضطراد للفلسفة. فهو في أحدث أعماله، يبرهن على أن الفلسفة لم يعد بوسعها أن ترتبط بالعالم ككل، أي بالطبيعة والتاريخ والمجتمع، بوصفها معرفة شمولية، وأنه ينبغي الآن التحرّي عن الموضوع الأساسي في الفلسفة، أي العقل، داخل الاطار النظري لعلم الاجتماع، باعتباره علماً عقلانياً[22].

كما أن هناك تطورا واضحا في فكر هابرماس بعيدا عن الهيجلية ومدرسة فرانكفورت، صوْب نوع ما من الكانطية الجديدة neo-kantianism، وهو الأمر الذي يتضح بدرجة أكبر في التمييز الذي يقيمه الآن بين مزاعم الحق truth claims التي نثيرها في المقولات الامبيريقية، أي في مجال العقل النظري، وبين مزاعم الصحة rightness أو الملاءمة appropriateness التي نقدمها بمعايير الفعل والتقويم، أي في مجال العقل العملي.

---

(21) يراجع بالأخص مقاله:
«Technology and Science as Ideology» 1968, in (Toward a Rational Society), Beacon Press, Boston, 1970.
وفي هذا المقال، يعارض أفكار هابرماس حول العلم الجديد المرتكز على تأويل الطبيعة. والمقال بمثابة عرض واضح لمفاهيم هابرماس الاساسية، التي طورها بعد ذلك في أعماله الأخيرة، ويمدنا بمقدمة مستفيضة لفكره.

(22) Theorie des KommuniKativen Handelns, 2 Vols., Suhrkamp, Frankfurt, 1981, pp. 15-24.
انظر كذلك مناقشتي لهذا العمل في كتابي، وان لم يستطع هابرماس أن يطورها في مناقشاته حول نظرته لفلسفة العلم.

وبالتأكيد فان هابرماس يحاول التوحيد بين هذين المجالين من خلال نظريته (نظرية الخطاب الخاصة بالحق). لكن توجد، كما برهنت من قبل، اعتراضات جدّية على هذه النظرية، وعلى الهدف الذي يريد أن تحققه، أي اثبات أن الأحكام المعيارية ليست ببساطة أموراً تعسّفية، وانما هي سهلة المنال، شأنها كالأحكام الامبيريقية، بالنسبة لسجال عقلي يمكن احرازه، أو على الأقل الاقتراب منه بطرق أخرى.

وفي نفس الوقت، تحجب نظرية هابرماس في هذا الخطاب خلافات مهمة بين عمليات العقل النظري والعقل العملي. فلا شك أن تحديد بنية جزيء الحامض النووي للخليّة DNA أو نواة ذرّة، شيء، وتحديد مكونات الانعتاق شيء آخر تمام. ولن يكسب تفكيرنا غير الضلال إذا لم نعترف، ونحاول أن ندرك بشكل أكمل، الفروق بين هذين المجالين للعقل البشري فيما يتعلق بنطاق وظروف ونتائج السجال العقلي في كل منهما.

ولا يعني هذا مطلقا القول بأن هناك شكلا واحدا بارزا للمعرفة على نحو مطلق يمكنه أن يستأصل، أو يقرر، صحة الأشكال الأخرى.

وقد أظهر كيت بوضوح أنه: "لا النزعة العلمية المغالية Scientism ولا النظرة الوضعية للعلم تستتبعان امكان قيام سياسة علمية".

وأظهر كيت، أكثر من هذا، أن "أنصار المفهوم الوضعي للعلم، ممن يعارضون امكانية وجود سياسة علمية، ليسوا بحاجة الى النظر للسياسة على أنها غير عقلية بصورة متأصلة، حيث أنهم قد يوافقون على أن العلم ليس هو الشكل الوحيد للمعرفة البشرية أو الاستقصاء العقلي"[24].

وقد برهن باسكار Bhaskar بالمثل، ومن وجهة نظر الواقعية العلمية، على أن: "العلم، رغم أنه يمكن، ويجب أن ينير الطريق، فانه لا يمكنه أن يحسم المسائل المتعلقة بالأخلاق العملية والسلوك العملي. وذلك بالضبط

(24) Keat, R.: The Politics of Social Theory, Blackwell, Oxford, 1981, p.21.

لأن هناك دائما، وبالضرورة، ممارسات اجتماعية بالاضافة الى العلم، وقيم أخرى غير القيم المعرفية"[25].

وأعتقد أنه مما يزيد الأمور وضوحا، التمييز على هذا النحو بين أشكال مختلفة من المعرفة والاستقصاء العقلي، أو بين ممارسات اجتماعية مختلفة.

كذلك فانه لما يزيد الأمور وضوحا في فكر هابرماس على وجه الخصوص، ذلك الفصل بين عنصرين متميزين:

- نظرية امبيريقية للمجتمع.
- ونظرية اجتماعية أو أخلاقية، يمكن تسميتها أيضا، بمعنى غير ازدرائي ولا ينطوي على حطّ من القدر، فلسفة اجتماعية.

وقد ساد العنصر الأخير بوضوح كبير في مناقشات هابرماس للفعل الاتصالي وللمصلحة التحررية، اضافة الى سجاله المساند بأن مسائل العصر الراهن الخاصة بالسياسة الاجتماعية يجب النظر اليها كمسائل للجدل السياسي العام، وليس كمشكلات مؤقتة تنبع من تطور ضروري للمجتمع، ويمكن حلّها بواسطة خبراء في العلم الاجتماعي.

ولا شك فان هذا العنصر كان الوجه الأكثر تأثيرا في تفكيره، الذي يمتد بعيدا وراء العلوم الاجتماعية.

وأحد الأمثلة على ذلك، هو الاهتمام الذي حظيَ به هذا العنصر بين صفوف علماء اللاهوت المشتغلين باللاهوت السياسي **political theology** أوْ لاهوت التحرير **theology of liberation**.

اذ نجد أن ديفيز Davis يعتمد بصورة جوهرية في كتابه (اللاهوت والمجتمع السياسي) على النظرية النقدية، وعلى أعمال هابرماس بصورة خاصة، في مناقشة التساؤلات عما اذا كانت التعاليم الدينية تمثل مصدرا هاما للخبرة التي يمكن أن ينشدها نقد تحرري، وما اذا كان مفهوم "الفعل

---

(25) Bhaskar, R.: The Possibility of Naturalism, pp. 82-83.

الاتصالي" يحتاج هو نفسه إلى أن يتم تأسيسه لاهوتياً، بوصفه قائماً على أساس معياري[26].

وفي موضع آخر، يفنّد دعوى هابرماس في تقديم أساس عقلي للحرية في الخطاب السجالي، مبرهنا على أن هذه "مبالغة في وظيفة ومعنى العقل النظري " وأن السجال " لا يمكنه أن يكون الوسيلة الرئيسية، ولا الأساس الأول للاجماع العقلاني على الحرية" (ص 95).

واذا ما نظر الى الماركسية، في المقام الأول أو على سبيل الحصر، على أنها نقد للمجتمع الرأسمالي، فانها من ثم تكون، وبشكل واضح، نظرية أخلاقية، أو أنها تحتوي على عناصر هذه النظرية، كشكل محدّد لنظرية في تحرير الطبقة العاملة وحلول مجتمع لا طبقي.

وقد ظل السؤال العام عن أي نوع من النظرية الأخلاقية تنتمي الماركسية، وكيف تأسست. ظل موضوعا لنقاش متزايد، لاسيما بين علماء اللاهوت السياسي[27].

---

(26) Davis, Ch. : Theology and Political Society, Cambridge University Press, Cambridge, 1980.

وانظر بالأخص الفصلين: الخامس والسادس، حيث يجذب ديفيز الاهتمام للنقاش الموضوعي في ألمانيا، بالاشارة الى كتابات متز وبيكرت.

(27) يراجع بشكل خاص:

Turner, D. : Marxism and Christianity, Blackwell, Oxford, 1983.

حيث يؤكد في هذا الكتاب أن الماركسية، مثل العلم النقدي للمجتمع البورجوازي والأيديولوجيا، تمتلك علميتها، ص 83.

وانظر أيضا النقاش من منظور مختلف:

Lukes, S.: Marxism and Morality.

وهناك نقاشات مبكرة قدمت، وبخاصة من قبل الماركسيين النمسويين:

- Bauer, O. : Marxism and Ethics, translated in Bottomore and Goode, Austro - Marxism, Oxford University Press, Oxford, 1978, pp. 78-84.
- Adler, M.: «Ethik und Wissenschaft» and «Marxismus und Ethik» in (Marxistische Probleme), J. H. W. Dietz, stuttgart, 1913.

ورغم أن الاجابات المقدمة تفاوتت على نحو كبير، وانقسمت بشكل خاص من جرّاء النظرة المتبناة للعلاقة بين الحقيقة والقيمة، فانها اعترفت جميعها بوجود علاقة وثيقة بين الماركسية كمذهب أخلاقي والماركسية كعلم اجتماعي.

فبالنسبة لهؤلاء الذين تصوروا الماركسية كنقد، جرى اعتبار صحة الأحكام المعيارية، في الواقع، أو سمة الماركسية كنظرية أخلاقية، معتمدة على صدقها كعلم. مثلما يقترح تيرنر Turner (أنظر الملحوظة رقم 27).

وفي هذا السياق، يجب أن ننظر الى أحدث محاولة قام بها هابرماس لصياغة نظرية في المجتمع ، وعلاقة هذه النظرية بعلم الاجتماع.

وتبدأ النظرة الى الطبيعة والى واجبات نظرية المجتمع النقدية، تلك التي يطرحها هابرماس في الفصل الختامي لكتابه (نظرية الفعل الاتصالي)، باستبدال نظرية ماركس في القيمة وتحليلاته للمجتمع الرأسمالي في حدود التوسع الذاتي لرأس المال، بمفهوم عن النظام الاجتماعي الذي يتعرض لتمايز متزايد. ويضع هذا المفهوم كأساس لنظرية "التحديث الرأسمالي".

ومع ذلك، تظل هذه النظرية الجديدة قريبة من الماركسية، لأنها ووفقا لما يقوله هابرماس، نقدية، شأنها كنظرية ماركس، لكل من العلوم الاجتماعية المعاصرة والواقع الاجتماعي التي تحاول أن تتناوله وتفهمه.

ويمضي هابرماس من ثم للتمييز بين ثلاثة توجهات رئيسية للبحث في الدراسات الراهنة للمجتمعات الحديثة:

1- توجه سوسيوتاريخي نمطي مقارن، مشتق عموما من ماكس ڤيبر، وان تأثر إلى حدّ ما أيضا بالتاريخ الماركسي، كما يبدو على سبيل المثال في أعمال رايت ميلز W. Mills وبارنجتون مور B. Moore.

2- توجه نظرية التنظيم، الذي يحلل المجتمعات الحديثة من وجهة نظر وظيفية في اطار من التعقد المتزايد، كما يبدو في أعمال تالكوت بارسونز T. Parsons، ولوهمان Luhmann في ألمانيا.

3- نظرية في الفعل theory of action ، متأثرة بالفلسفة الظاهراتية Phenomenology والتأويل والتفاعلية الرمزية، وتنصب اهتماماتها الرئيسية على فهم أو تفسير صور العالم وأشكال الحياة، أو بشكل أكثر عمومية على نظرية للحياة اليومية.

وعلى النقيض من هذه التوجهات الثلاثة، وبعد استعراض موجز للتطور التاريخي للنظرية النقدية، يتبنى هابرماس استراتيجية بحثية يطلق عليها "البنيوية التكوينية" Genetic structuralism، كبديل لفلسفة التاريخ التي تبنتها مدرسة فرانكفورت ابان بدايتها.

وقد جاء هذا التوجه متأثرا بوضوح بأفكار جان بياجيه J. piaget، كما يبدو مشابها الى حدّ كبير بالبنيوية التكوينية التي قدمها لوسيان جولدمان L. Goldmann كمنهج وأوضحها بالأمثلة في دراساته[29].

لكنه، وحيث أن هابرماس لم يشر الى أعمال جولدمان على الاطلاق، فانه من الصعب أن نقرر، دون عمل مقارنة شاملة، أين تكمن نقاط الاتفاق والاختلاف بينهما.

على أية حال، فان هابرماس، بعد تحديد توجهه على هذا النحو، يشرع في التمييز بين الرأسمالية المنظمة والاشتراكية البيروقراطية، بوصفهما الشكلين الرئيسيين للترشيد العقلاني للمجتمعات الحديثة، وان لم يقم بمواصلة تحليل الاشتراكية البيروقراطية أبعد من ذلك.

أما فيما يتعلق بتناوله لتطور الرأسمالية المنظمة، فان هابرماس يقصر

---

(28) Piaget, J. :Structuralism, Basic Books, N. Y., 1970.

(29) يراجع:

- Goldmann, L. : «Genèse et structure» in (Marxisme et Sciences Humaines), Gallimard, paris, 1970.
- Goldmann, L.: Towards a Sociology of the Novel, Tavistock Publications, London, 1975.

عمله الى حدّ بعيد في تلخيص المفاهيم التي عرضها في كتابات سابقة عن اتجاهات الأزمة في الرأسمالية المتطورة ومع ذلك، فان أحد الموضوعات التي جرى التعامل معها بهذا الصدد على نحو أكمل. (أنظر في ذلك المجلد الثاني من الكتاب، (ص ص 576 - 583)، هو الخاص بالنزاعات الاجتماعية الجديدة التي ظهرت في هذه المجتمعات خلال العقدين الماضيين.

وفي هذا الصدد، يلاحظ هابرماس أنه قد ظهرت إلى جانب، أو محل النزاعات التنظيمية حول المصالح المادية، أي الصراعات الطبقية بمعني عام، نزاعات أخرى أحيتها حركات اجتماعية جديدة، ترتكز على نوعية الحياة، وحقوق الانسان، والمسائل المتعلقة بالبيئة، وتكافؤ الفرص لتطور الفرد، والمشاركة في صنع القرار الاجتماعي.

لكن العلاقة بين هذه الحركات وبين أشكال العمل السياسي، وبخاصة علاقتها بالحركة العمالية والصراع الطبقي. أو طبيعة ونموّ ومغزى الحركات الجديدة نفسها، لم يتم التعرض لها بأي تحليل جوهري أو دراسة أساسية، من النوع الذي تم الاضطلاع به مثلا في أعمال آلان تورين A. Touraine ومعاونيه من الباحثين[30].

وينبغي اضافة القول بأنه على الرغم من جهود معهد ستارنبرج، فان الاستراتيجية البحثية التي وضعها هابرماس، لم تسفر في الواقع عن أي

---

(30) Touraine, A.: the Self - Production of Society, Chicago University Press, Chicago, 1977.

وانظر أيضا الدراسات حول الحركات الخاصة: الحركات الطلابية، والحركات النسوية، والحركات الجمعية، والحركات الأقليمية القومية، والتي تحدث عنها آلان تورين:

Touraine, A. (ed.) : Mouvements sociaux d'aujourd'hui - acteurs et analystes Editions Ouvrires, paris, 1982.

دراسات امبيريقية مهمة، مثلما فعلت الكثير من الاتجاهات الماركسية والسوسيولوجية[31].

ويظل الاهتمام الطاغي لهابرماس منصبّا على اكتشاف نقطة ما للاقتران بين الفلسفة والعلم، حيث يمكن للفلسفة أن توفر الأساس المعياري للنظرية النقدية. وهذا هو اهتمامه الذي يحدد خياره للترشيد العقلاني كبؤرة لتحليله المجتمعات الحديثة، حيث أن ما ينطوي عليه من مفهوم للعقلانية، يتيح له ربط عملية الترشيد العقلاني بتحليل فلسفي للعقل كجزء متأصل في استخدام اللغة والفعل الاتصالي.

وبناء على ذلك، فانه يدّعي بأن "العلوم الاجتماعية" يمكنها أن تدخل في علاقة تعاون مع الفلسفة التي تأخذ على عاتقها واجب المشاركة في نظرية للعقلانية (المجلد الثاني، ص 584).

ومع ذلك، فان هذه الفلسفة ليست "فلسفة أولى". فمقولاتها، شأنها شأن مقولات العلم، افتراضية، وعرضة للتأكيد الامبيريقي بطريق غير مباشرة نوعا ما، أو أنها قد تدخل الى حيّز النظريات الامبيريقية (ص 587).

ويختتم هابرماس فكرته، موجبا بأن مفهوم الفعل الاتصالي مشابه لمفهوم ماركس عن "العمل المجرّد"، وأنه يمكن تصنيفه كمفهوم أساس للعلم الامبيريقي (ص ص591-593).

هكذا، وعلى الرغم من رغبة هابرماس في استبقاء الفلسفة كمكوّن متكامل لنظرية المجتمع، فان دورها يتناقض باضطراد في الحقيقة، فيما نجد تشديدا متزايدا على بناء علم امبيريقي.

لكن هذا العلم يظل مختلفا للغاية عن علم الاجتماع، ولاسيما في

---

(31) أنظر الملاحظة المختصرة حول مشروعات البحث المؤسسية:
McCarthy, Th. : Legitimation Crisis (Introduction), Heinemann, London, 1976, pp. VIII, 144.

المنظور الماركسي لهذا العلم، وذلك لسببين رئيسين ناقشتهما سابقا:

السبب الأول، أن نظرية هابرماس في المجتمع تبقي غير تاريخية بعامة. فهي مهتمة في المقام الأول بتحليل ونقد المجتمعات الحديثة. وعلى عكس الماركسية، فانها لا تضع هذا التحليل داخل اطار نظرية في التاريخ تضطلع بتفسير كل أشكال المجتمع البشري وتحولاتها.

والسبب الثاني، أنها تهمل التحليل الاقتصادي. ذلك أنها، وكما أشرت في الواقع، تريد أن تصنف مفهوم العمل تحت مفهوم الفعل الاتصالي.

وعلى النقيض من ذلك، نرى أن السمة الأكثر تميزاً لنظرية ماركس، واسهامها الأكثر أهمية في اقامة علم واقعي عن المجتمع، هي أنها لا تتعامل مع التفاعل الاجتماعي على وجه العموم، وانما تتناول علاقة البشر بالطبيعة، والتفاعل فيما بين البشر في عملية الانتاج، كاتجاهات سائدة ومولدة ومحدِّدة لأشكال أخرى من التفاعل.

ان هذا هو المفهوم الذي منح الماركسية قوّتها التفسيرية، والذي لايزال يمنحها هذه القوة حتى اليوم. لأنه مهما تكن الحاجة إلى اعادة بناء للنظرية الماركسية من أجل فهم المراحل المستجدة من تطور المجتمعات الحديثة بشكل ملائم، ولاسيما دور الدولة وطبيعة الصراعات الطبقية، فانه لايزال ضروريا البدء من تحليل تنظيم الانتاج وتسييره، سواء كان ذلك على شكل تسلط رأس المال المتركز في شركات وطنية أو متعددة الجنسية، أو تسلط الادارة البيروقراطية للصناعة المؤممة.

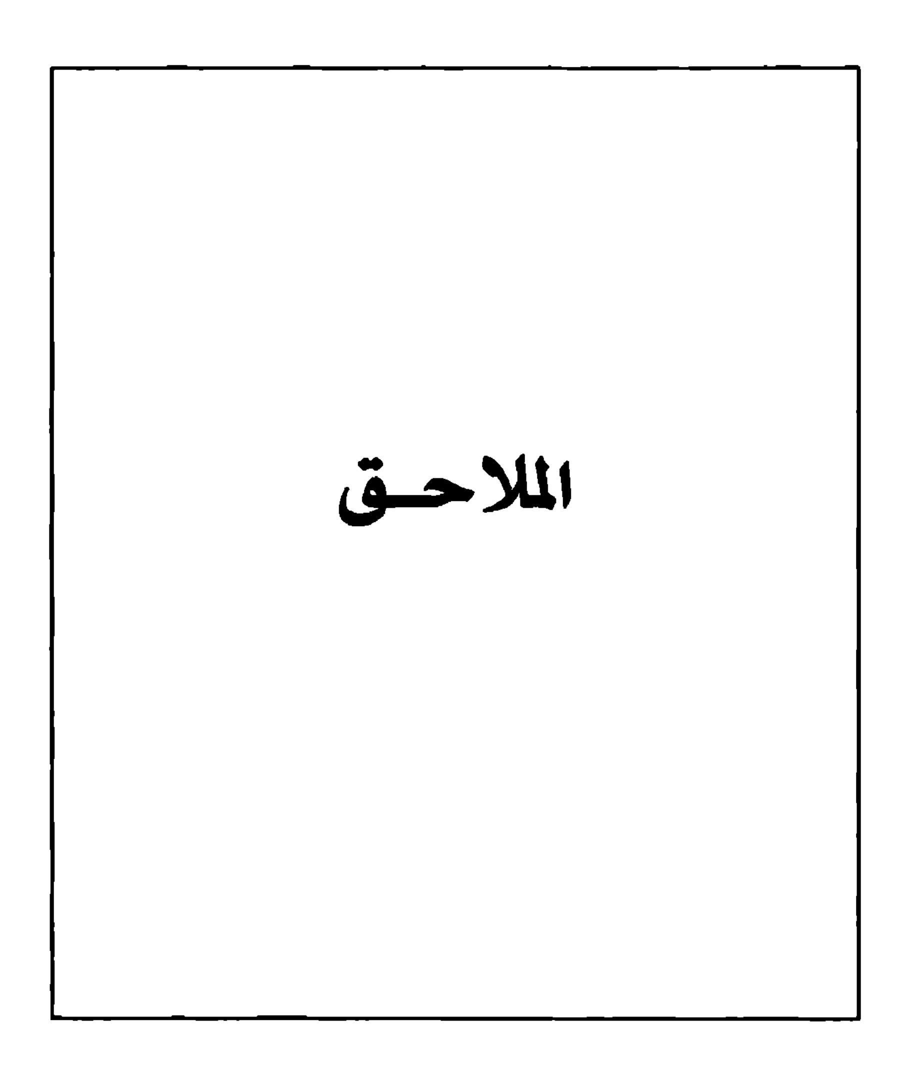
ولذلك فان واجبات علم الاجتماع في منظوره الماركسي، وكما أتصورها، تختلف تماما عن واجبات نظرية المجتمع النقدية الجديدة.

وبكلمات عامة، فان هذه الواجبات تتضمن، من جهة، دراسة منهجية لمجرى تطور الرأسمالية المنظمة، خلال الفترة التي بدأت بتحديد هذا المفهوم لأول مرة في العشرينيات، وهو ما يتطلب استقصاءات للتنظيم

المتغير للانتاج، وللأشكال المتنوعة لتدخل الدولة، وللتغيرات في العلاقات الطبقية.

ومن جهة أخرى، لابد أن تتضمن هذه الواجبات تحليلا لأشكال تنظيم الانتاج، ونتائجها، في البلدان الاشتراكية، بالاضافة الى دراسة الشروط الاجتماعية والتاريخية التي جعلت من الممكن ظهور البلشفية كشكل مشوّه من أشكال الفكر الماركسي.

وطبيعي القول أن كثيرا من هذه البحوث يتم الاضطلاع بها على يدي ماركسيين من شتى التيارات. ولعل أكثر السمات العامة التي تميز هذه البحوث، هي أنها تركز على هذين المجالين من مجالات البحث والاستقصاء، وأعني بهما التاريخ والاقتصاد، واللذين تم تجاهلهما على نحو مُحزن من جانب مدرسة فرانكفورت والنظرية النقدية الجديدة.



الملاحق

الملحق الأول

تراجم الأعلام

ماكس هوركايمر
M. Horkheimer

ثاني مدير لمعهد البحوث الاجتماعية الذي يعرف عادة بمدرسة فرانكفورت ، والضامن لهوية الحركة التاريخية والنظرية التي قامت عليها هذه المدرسة، حيث حدد توجهها في النظرية النقدية، وهو الاسم الذي صاغه للدلالة على مسْعاها النظري.

ولد في مدينة شتوتجارت بألمانيا عام 1895، لعائلة ميسورة ومن أب غني ومعروف في الأوساط الصناعية والمالية. وبعد أن تلقى تدريبا تجاريا تحت إلحاح أبيه في كل من بروكسيل ولندن، تحول الى الدراسة الأكاديمية، وبدأها بكتابة الروايات، وأقام في هاتين المدينتين بين عامي 1913-1914 لدراسة اللغتين الفرنسية والانجليزية بصحبة صديقه فردريك بولوك، ودرس كذلك معه في جامعات ميونخ وفرايبورج وفرانكفورت. وباشراف من أدمار جلب A. Gelb من منظّري الاتجاه الجشطالتي، اتجه نحو علم النفس، ثم نحو الفلسفة بقراءته شوبنهور. ناقش أطروحة للدكتوراه حول كانط عنوانها (مساهمة في تناقض ملكة الحكم الغائية) عام 1922، باشراف هانز كورنيليوس H. cornelius. وفي عام 1925، أصبح عضوا بهيئة تدريس جامعة فرانكفورت، ثم أستاذا لكرسي الفلسفة الاجتماعية الذي أنشيء من أجله عام 1929 ، لكي يتمكن من رئاسة معهد البحوث الاجتماعية عام 1931، خلفا

لكارل جرونبرج C. Grünberg . ويعتبر تعيينه في هذا المنصب بداية لمرحلة جديدة في حياة هذه المؤسسة العلمية، امتازت بانتاجها الفكري الضخم والأصيل، وباستمرار نشاط عمليات البحث العلمي، واتساع صلاته الداخلية والخارجية.

ومع وصول هتلر الى الحكم في مارس 1933، أغلق المعهد لميوله المعادية للدولة وعزل هوركايمر رسمياً ، فانتقل الى جنيف حيث أدار ملحق المعهد هناك، ونشر بعضا من أعماله باسم مستعار. انتقل الى الولايات المتحدة عام 1934 عندما وجد المعهد مقرّا له في الحرم الجامعي لجامعة كولومبيا، وحصل على الجنسية الأمريكية. وبعد عودته الى ألمانيا عام 1948، أعيد له كرسيه، واستعاد المعهد نشاطه عام 1950، وصار هوركايمر عميدا لقسم الفلسفة، ثم رئيسا للجامعة بين عامي 1951-1953، ونال جائزة جوته، بعدها تردد على الولايات المتحدة كمواطن أمريكي، وعضو في جامعة شيكاغو، حتى تقاعده في مدينة مونتانيولا Montagnola بسويسرا عام 1958، برفقة بولوك. ومنذ ذلك الحين، صار هوركايمر يتمتع بشهرة وطنية وظل على اتصال بالمعهد وبملحقه الأمريكي. وظهر بين عامي 1967-1970، عند اعادة نشر مؤلفاته، وعند إصدار بيان نقدي حولها وحول مؤلفات المدرسة، حتى مات عام 1973.

ترجم له الى الانجليزية:

- **Eclipse of Reason** , Oxford University Press , N.Y., 1947.
- **Dialectic of Enlightenment** , Herder and Herder, N. Y. , 1972.
- **«Contemporary German Sociology and Scientific Experiences of a European Scholar in America»** in (The Intellectual Migration - Europe and America), 1930 - 1960, D. Fleming and B. Bailyn (eds.) , Harvard University Press , Cambridge , 1969.
- **«The Latest attack on Metaphysics and Traditional and Critical Theory»** in (Critical Theory - Selected Essays) , Herder and Herder, N.Y. , 1972.

ترجم له الى الفرنسية

- **Les Débuts de le Philosophie Bourgeoise de l'histoire** , Payot , Paris , 1930.
- **Eclipse de la raison** , Payot , Paris , 1974.
- **Critique de la Politique** , Payot , Paris , 1974.

ترجم له الى العربية:

- بدايات فلسفة التاريخ البورجوازية، ترجمة محمد علي اليوسفي، دار التنوير، بيروت، 1981.

تيودور أدورنو

Th. Adorno

فيلسوف وموسيقي ألماني. تقاسمت الفلسفة والموسيقى حياته. ولد في مدينة فرانكفورت عام 1903من أب ألماني وأم ايطالية، ولأسرة شغفت بالموسيقى. اذ كانت والدته ابنة مغنية ألمانية، وشقيقته عازفة بيانو محترفة، مما سمح له بالتعلق بالموسيقى منذ وقت مبكر.

قرأ كانط في شبابه، ودرس الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس بجامعة فرانكفورت، وذهب الى مدينة ڤيينا عام 1925، حيث تابع دروسا في التأليف الموسيقى على يد ادوارد ستورمان E. Steuermann، وبصحبة ألبان برج A. Berg.

التقى هوركايمر عام 1922، وناقش أطروحة حول (تعالي الغيري والنيوماني في ظاهراتية هوسرل) عام 1924،باشراف هانز كورنيليوس H. Cornelius عاد الى فرانكفورت عام 1928، ليشرع في كتابة أطروحة التأهيل حول (كيركجارد وبناء الجمالية) التي ناقشها عام 1931، مما سمح له بأن يكون عضوا في هيئة تدريس جامعة فرانكفورت، بدرجة Privatdozent، أي كأستاذ بدون مرتب، يتقاضى مكافأته من الطلاب مباشرة.

ورغم تسلم هتلر الحكم في ألمانيا عام 1933، لم يُنف أدورنو، بل هاجر

الى باريس لفترة قصيرة، أمضى بعدها معظم وقته حتى عام 1937 في كلية ميرتن Merton بجامعة أكسفورد، وتوجه عقبها الى الولايات المتحدة. وهناك، استعاد تعاونه الوثيق مع هوركايمر، وأصبح عضوا رسميا في معهد البحوث الاجتماعية بجامعة كولومبيا.

وظل أدورنو يواصل كتاباته الفلسفية ودراساته عن الموسيقى، حيث عمل مديرا لقسم الموسيقى في جامعة برنستون Princeton، كما ساهم في مشروع بحثي حول التميز والتسلطية، أسفر عن عمل جماعي مهم، هو (الشخصية الاستبدادية). وقد ساعدت اقامته بالولايات المتحدة على إثراء رؤيته النقدية إزاء المجتمع الرأسمالي الاستهلاكي في قمة تطبيقاته العملية واليومية.

بعد الحرب، رجع الى ألمانيا عندما عاد المعهد الى فرانكفورت عام 1950، وأصبح مديرا مساعدا له ثم مديرا مشاركا عام 1955، وأخيرا، وبعد تقاعد هوركايمر عام 1958، أخذ أدورنو على عاتقه ادارة المعهد. وتوفي عام 1969، بعد أن قدم وصيته الفلسفية (الجدل السلبي) في بداية هذا العام، وبعد دوره الفعال في صراع الوضعية، في اللحظة التي قام فيها سور كامب S. Kamp بنشر مؤلفاته الكاملة.

ترجم له الى الانجليزية:

- **Minima Moralia** , New Left Books , London , 1974.
- **Negative Dialects** , Seabury Press , N. Y. , 1973.
- **Philosophy of Modern Music** , Seabury Press, N. Y., 1969.
- **Prisms** , Neville Spearman , London , 1967.
- **Dialectic of Enlightenment** (With M. Horkeimer) , Herder and Herder , N. Y. , 1973.
- **The Authoritarian Personality** (With others) , Harper and Row , N. Y., 1950.
- **The Jargon of Authenticity** , translated by K. Tarnowski and F. will , Northwester University Press , Evonston , 1973.
- **«Scientific experiences of a European scholar in America»** in (The Intellectual Migration - Europe and America - 1930/1960) , D.

Fleming and B. Bailyn (eds.) , Harvard University Press , Cambridge - Mass. , 1969.

- **The Positivist Dispute in German Sociology** (with others), Heinemann , London , 1976.

ترجم الى الفرنسية:

- **Dialectique Négative** , Payot , Paris , 1966.
- **Théorie Aesthétique** , traduit de L'Allemand par M. Jimenez , Klinsieck , Paris , 1974.
- **Trois Etudes sur Hegel** , traduit de L'Allemand par le Séminaire de traduction du collège de Philosophie, E. Blondel, L. Jubert , M. de Aluray , Payot , paris , 1979.

فردريك بولوك

F. POLLOCK

ولد في مدينة فرايبورج بألمانيا، لأب من رجال الأعمال الذي رغب أن يوجه ابنه للعمل في التجارة والشؤون المالية. ولذلك درس بولوك الاقتصاد، لكنه ما لبث أن توجه للاهتمام بالقضايا الفكرية والسياسية، فدرس الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعات ميونيخ وفرايبورج ثم جامعة فرانكفورت، التي حصل منها على درجة الدكتوراه في الاقتصاد عام 1923، حول موضوع (نظرية العملة عند ماركس)، وشارك في نفس العام في أعمال أسبوع البحوث الماركسية الأول، الذي نظمه صديقه فيلكس ڤايل F. Weil. وقبل الحرب العالمية الأولى، وفي عام 1911، تعرف الى شخص مهم، ربطته به علاقة صداقة حميمة هو ماكس هوركايمر، الذي أصبح بعد ذلك من أوائل المتحمسين لفكرة انشاء معهد البحوث الاجتماعية بجامعة فرانكفورت، ومساندا لبولوك في دعم ڤايل في انشائه، وأصبح بولوك عضوا بارزا به منذ تأسيسه.

كان بولوك على علاقة جيدة مع الحزب الشيوعي السوڤيتي، حيث دعاه في زيارة رسمية للاطلاع على المنجزات الاقتصادية والاجتماعية هناك بعد

ثورة أكتوبر 1917، وقدم له تسهيلات كثيرة من أجل تأليف كتابه المهم (تجارب التخطيط الاقتصادي في الاتحاد السوفيتي بين عامي 1917-1927). وبقي بولوك مرتبطا فكريا ومخلصا للتجربة السوفيتية، وغضّ النظر عن التطورات السياسية والخلافات داخل الحزب الشيوعي السوفيتي التي أعقبت وفاة لينين، فلم يتخذ موقفا منها، وحرص على أن يبقى اهتمامه هناك منصبا على التجربة الاقتصادية. وفي الخلافات النظرية التي كانت قائمة بين هوركايمر من جهة وجرونبرج مدير المعهد من جهة أخرى، اتخذ بولوك موقفا مساندا لأفكار هوركايمر واتجاهه الفلسفي النقدي.

عرض عليه منصب مدير معهد البحوث الاجتماعية عام 1929، محل جرونبرج الذي ساءت صحته، لكن بولوك اعتذر، مفضلا البقاء مسؤولاً عن القضايا الادارية للمعهد.

مع وصول هتلر الى الحكم، انتقل مع صديق عمره المقرّب هوركايمر الى مدينة نيويورك، ثم عاد الى فرانكفورت، مع عودة المعهد، عام 1950. وبعد تقاعدهما عام 1959، انتقل بولوك وهوركايمر الى اثنتين من الفيلات المجاورة في مدينة مونتانيولا Montagnolaبسويسرا، وظل هناك حتى مات عام 1970.

ترجم له الى الانجليزية:

- **«State capitalism - Its Possibilities and Limitations»** in (Studies in Philosophy and Social Science) , Vol. IX , N. 2 , 1941.
- **The Economic and Social consequnences of Automatim**, Oxford University Press , Oxford , 1957.

هربرت ماركيوز

H. Marcuse

برز كفيلسوف ومنظّر سيكولوجي وعالم اجتماع، وانتشرت أفكاره في كثير من الدوائر الفكرية والسياسية في العالم الغربي. تقاطع طريقه مع طريق معهد البحوث الاجتماعية الذي أطلق عليه فيما بعد: مدرسة فرانكفورت،

لدرجة الارتباط الحميم بها، متابعا مع ذلك مشروعه الخاص، برغم اعتماده على فرضيات نظرية مغايرة. من هنا يجيء موقعه الملتبس، الذي لا ينفصل عن مصير المدرسة، والذي يكشف في الوقت نفسه تمايز هويته الخاصة.

ولد في مدينة برلين عام 1898، وانضم كعضو الى الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني المستقل عام 1917، وشارك في مجلس الجنود أثناء ثورة برلين عام 1919. ترك الحزب اثر اغتيال روزا لوكسمبورغ وكارل ليبنخت، والتحق بجامعتي برلين وفرايبورخ، حيث تزامل في هذه الجامعة الأخيرة مع ادموند هوسيرل ومارتن هايدجر.

أصبح عضوا في معهد البحوث الاجتماعية بجامعة فرانكفورت عام 1932. وبعد وصول هتلر الى الحكم، توجه الى مدينة جنيف حيث عمل هناك عاما بالتدريس، ثم هاجر الى الولايات المتحدة، وعمل ما بين عامي 1934-1940 في معهد البحوث الاجتماعية الذي انتقل من فرانكفورت الى جامعة كولومبيا، وكان يعمل معه في نفس المعهد: هوركايمر، وفروم، وأدورنو.

خلال الحرب العالمية الثانية، عمل في مكتب الدراسات الاستراتيجية، ومكتب المخابرات التابع لوزارة الخارجية الأمريكية، حيث وصل الى منصب رئيس قسم أوربا الشرقية. بعدها عمل في المعهد الروسي بجامعة كولومبيا عام 1950، وفي معهد البحوث الروسية بجامعة هارڤارد، وفي جامعة برانديز ما بين عامي 1954-1967، وأمضى بعض الوقت مديرا للبحوث بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا في باريس، ومارس التدريس منذ عام 1967 بجامعة كاليفورنيا كأستاذ للفكر السياسي بمدينة سان ديجو الجامعية، الى أن مات عام 1979.

تتركز أفكار ماركيوز السياسية حول ثلاث مسائل، كانت موضع نقاش فائض، هي: دور الطلاب في العالم الرأسمالي، والحركة الطلابية في فرنسا عام 1968، ودور الطبقة العاملة الحديثة في الغرب.

من أعماله:

- **Reason and Revolution** - Hegel and the rise of Social theory , Oxford University Press , N. Y. , 1941.

- **Eros and Civilization** - A Philosophical Inquiry into Freud , Beacon Press , Boston , 1951.
- **Soviet Marxism** - A Critical Analysis , Columbia University Press , N. Y., 1958.
- **One – Dimensional Man** ,Beacon Press , Boston , 1960.
- **A Critique of Pure Tolerance** , Beacon Press , Boston , 1965.
- **Negations** - Essay in Critical Theory , Beacon Press ,Boston , 1968.
- **An Essay on Liberation** , Beacon Press , Boston , 1969.
- **Five Lectures - Psychoanalysis** , Politics and Utopia ,Beacon Press , Boston , 1970.
- **Studies in Critical Philosophy** , Beacon Press , Boston , 1972.
- **Counter - Revolution and Revolt** ,Beacon Press ,Boston , 1972.

ترجم له الى الفرنسية:

- **Raison et Révolution** , Minuit , Paris , 1941.
- **Eros et Civilization** , Minuit , Paris , 1955.
- **L'Homme Unidimensionnel** , Miniut , Paris , 1965.
- **Culture et Société** ,traduction de G. Billy ,D. Breason et J. B. Grasses , Minuit , Paris , 1966.
- **La Fin de l'Utopie** , Seuil , Paris , 1968.
- **Critique de la Tolérance** (en Collabortion) , Seuil ,Paris , 1969.
- **Vers la Libération au dela de l'Homme Unidimensionnel** , Minuit , Paris , 1970.
- **Actuels** , Edition Galilée , Paris , 1976.

ترجم له الى العربية:

* **العقل والثورة** – هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية، د. فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1970.
* **الحب والحضارة**، ترجمة مطاع صفدي، دار الآداب، بيروت، 1970.
* **فلسفة النفي**، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الآداب، بيروت، 1971.

* **الانسان ذو البعد الواحد**، ترجمة جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت، 1971.

* **نحو التحرر**، ترجمة ادوار الخراط، دار الآداب، بيروت، 1972.

* **الثورة والثورة المضادة**، ترجمة جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت، 1973.

* **الماركسية السوفيتية**، ترجمة جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت، 1973.

* **نظرية الوجود عند هيجل**، ترجمة وتقديم وتعليق ابراهيم فتحي، دار التنوير، بيروت، 1984.

لمزيد من القراءة حوله:

* فؤاد زكريا: **هربرت ماركيوز**، سلسلة (كراسات الفكر المعاصر)، العدد (2)، دار الفكر المعاصر للنشر والتوزيع، القاهرة، 1978.

* حسن محمد حسن: **النظرية النقدية عند هربرت ماركيوز**، دار التنوير، بيروت، 1993.

* محمود أمين العالم: **ماركيوز وفلسفة الطريق المسدود**، دار الآداب، بيروت، 1968.

* قيس هادي أحمد: **الانسان المعاصر عند هربرت ماركيوز**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980.

يورجين هابرماس

J. Habermas

يعتبر من أبرز المعبّرين عن الاتجاه العقلاني ونقد الطابع التقني الوضعي القمعي للعقل في الممارسات الرأسمالية والاشتراكية، وهو لدى بوتومور، المفكر الأكبر لما بعد مدرسة فرانكفورت أو النظرية النقدية الجديدة.

ورغم قربه من الماركسية، فإنه يختلف مع ماركس في أمر أساسي: فهو يرى أن ماركس قد أخطأ في اعطائه للانتاج المادي المركز الاول في تعريفه

للانسان في رؤيته التاريخية باعتباره تطوراً للأشكال والأنماط الاجتماعية.

ولهذا يرى هابرماس أن التفاعل الاجتماعي هو أيضا بعد أساسي من أبعاد الممارسة الانسانية، وليس الانتاج وحده، وهو ما يوضح فلسفته التي تقوم على مفهوم الاتصال أو التواصل، وعلى أسبقية اللغة وأولويتها على العمل.

والعقل الاتصالي عند هابرماس، هو فاعلية تتجاوز العقل المتمركز حول الذات، والعقل الشمولي المنغلق الذي يدعي أنه يتضمن كل شيء، والعقل الأداتي الوضعي الذي يفتّت ويجزئ الواقع ويحول كل شيء الى موضوع جزئي حتى العقل نفسه.

ولد في مدينة دوسلدورف Düssldorf عام 1929، ودرس في جامعتها، وحصل على درجة الدكتوراه عام 1953حول (الصراع بين المطلق والتاريخ في فكر شلنج)، وهو موضوع ألزمه بدراسة الفلسفة المثالية الألمانية، من كانط حتى هولباخ وهيجل وبقية مفكري حركة التنوير. وأصبح بين عامي 1956-1959مساعدا لأستاذه أدورنو في معهد البحوث الاجتماعية بجامعة فرانكفورت، ثم أستاذا للفلسفة وعلم الاجتماع في جامعة هايدلبرج بين عامي 1961-1964، ثم في جامعة فرانكفورت بين عامي 1964-1971 قبل انتقاله عام 1972 الى معهد ماكس بلانك في ستارنبرج كأستاذ ثم كمدير للمعهد، ليعود مؤخرا الى جامعة فرانكفورت.

ويذكر سامي خشبة أن حياته الفكرية تنقسم من حيث الموضوع والهدف الى مرحلتين رئيسيتين:

في المرحلة الأولى، انشغل بنقد شامل للفكر الوضعي الذي ساد في الغرب مع تطور ونضج النظام الرأسمالي، ومع تطور ومنجزات علوم الطبيعة والبحوث التطبيقية والتكنولوجيا المتقدمة الناشيءة منها، واستغلال هذا الفكر لعقلانية حركة التنوير ونزوعها لتحقيق الحرية والعدل.

وفي المرحلة الثانية، انشغل هابرماس ببناء نظرية اجتماعية، قائمة على تأسيس حركة تنوير جديدة، أو استئناف القديمة وصياغة عقلانية تسترشد بالمنجزات العصرية لعلوم الطبيعة والعلوم الاجتماعية، وخاصة علم

الاجتماع، وعلوم اللغة والاتصال، وعلم النفس التربوي التطوري، بهدف اعادة فتح الطريق، كما يعتقد، لحلم الخلاص، أو الحرية والعدل، الذي راود فلاسفة التنوير، وهو الحلم الذي فشل بسبب سقوطه فريسة لاستغلال الرأسمالية للعلم، وتحول العلم من أداة للمعرفة وبالتالي لتحقيق الخلاص، أو الحرية، بفضل ارتباطه بالفلسفة النقدية، الى أداة للبحث التطبيقي وللتكنولوجيا، وبالتالي للتجارة والكسب الاقتصادي أو لانتاج الأسلحة والحرب. ولم يفكر هابرماس في أن هذا الحلم المطلق ينفي توظيف العلم لمحاربة المرض والجوع وفي أهداف مهمة أخرى.

كان هابرماس قد كشف عن سقوط، أو فشل حلم حركة التنوير الأولى، في كتبه المهمة الأولى: (التحول البنيوي للمجال العام - 1962)، و (النظرية والممارسة - 1963)، و (حول منطق العلوم الاجتماعية - 1970)، و (المعرفة والاهتمامات الانسانية - 1971).

في هذه الكتب، اتهم هابرماس الفلسفة الوضعية، تلك التي ارتبطت بالعلم الحديث وتفسير تطوره في الغرب عند ارنست ماخ وتوماس كون و رودلف كارناب بشكل خاص، بأنها، ورغم أحكامه القيمة فيها لصالح الوضع القائم، تتجاهل الاهتمامات النظرية للعلم كأداة لتحقيق تحرير الانسان من ضرورات الطبيعة والبنية الاجتماعية، بهدف فلسفي أيضا وهو استعادة العلاقة بين النظرية والتطبيق على أساس عقلاني. وقال إن العقل عند فلاسفة التنوير كان سلاحا في المعركة ضد الوهم والخرافة والطغيان، وكان الشر قرينا للخطأ، بينما كان الخير هو نفسه الحقيقة وتحرير الانسان وما فيه من الخير له، ولذلك كان التطبيق مرتبطا كل الارتباط بالنظرية، أو بالتفلسف، أو بالبحث العلمي المجرد. ولكن مع نمو العلم والتكنولوجيا، وتضخم التنظيم البيروقراطي للمجتمع الصناعي، اتخذت تلك الرابطة طابعا شريرا وغير انساني، واتخذ العقل طابعا عمليا، وتحولت العقلانية الى أداة لتحقيق أقصى كفاءة لمؤسسات المجتمع الذي تديره تلك البيروقراطية، وفقد العقل بذلك دوره التحريري، ولم يعد كما كان: أداة لاكتشاف الحقيقة، أو منبعا للمعاني والقيمة، وذلك عندما أكدت الوضعية أن وظيفتها كفلسفة سائدة هي تقديم

وصف تصويري وموضوعي للعالم كما هو، وللمعرفة كما هي، وليس نقدهما.

وفي المرحلة الثانية، وضع هابرماس كتبه التي صاغ فيها فكره الخاص، بعد أن كان قد تمكن من التخلص من كل من الماركسية التقليدية من جانب، ومن تأثير أساتذته: أدورنو وهوركايمر بالذات من جانب آخر، وأسس علاقته بكل من منجزات العلوم المعاصرة، واستثمر معرفته العميقة بها، وأكد مكانته باعتباره المدافع الرئيسي عن "العقل التنويري" كأساس للحداثة ولما بعدها، مقابل النزعات اللاعقلية، وذلك في مناقشته لأعمال ماركس المتأخرة، وأعمال أدورنو ومفكري النزعة التفكيكية ومابعد الحداثة الفرنسيين: جاك ديريدا، وفرانسوا ليوتار، في كتابه الأول في هذه المرحلة (أزمة الشرعية - 1973).

فقد رأى أن مجتمع المستقبل الانساني، القائم كالمجتمع القديم على الاتصال بمختلف صوره، سوف يضمن لعملية وقنوات الاتصال أن تتحرر من كل أنواع السيطرة، حيث تتطابق بشكل مشروع وطبيعي ومتكامل، النظرية والتطبيق والمعرفة والمصلحة، وفي هذا المجتمع سوف يستعيد الفرد حقه في البنية السياسية، وسوف يتحرر العقل من التطبيق ليمارس حريته في البحث عن الحقيقة.

وفي كتابه التالي (الاتصال ونشوء المجتمع - 1976)، أكمل صياغة فكرته عن الاتصال بأنواعه، كوسيلة لبناء المعرفة، وليس مجرد تبادلها.

وفي عام 1981 ، أصدر المجلدين الكبيرين (نظرية الفعل الاتصالي)، حيث أعاد للقيم والمعايير الاجتماعية أهميتها: فاعتمادا على أفكار كولبيرج وجان بياجيه، تمكن من تطوير نظرية "الكفاءة الأخلاقية»، كمضمون للاتصال. واعتمادا على تشومسكي، صاغ نظرية: الكفاءة اللغوية. وفي مناقشته ورفضه لفكر ماكس ڤيبر، صاغ مبدأ التمييز بين الطبيعة التكنيكية للعلم وللتواصل الاجتماعي وبين الطبيعة المعيارية لهما.

وأخيرا منذ عام 1985، بدأ هابرماس مرحلة ثالثة لنقد الحداثة التاريخية، أي الحداثة كما حدثت بالفعل، لا الفلسفية، ومابعد الحداثة. وأوضح كيف

أدى اختلال التوازن بين القيمة المعنوية والقيمة المادية، الى تحول عقلانية التنوير الى حال مرضية. وتلك هي الحال التي يصف بها تصور فرانسوا ليوتار وجان بودريّار لما بعد الحداثة.

ترجم له الى الانجليزية:

- **Towards a Rational Society**, Heinemann , London, 1970.
- **Knowledge and Human Interests**, Heinemann , London, 1971.
- **Theory and Practice** , Heinemann , London , 1974.
- **Legitimation Crisis** , Heinemann , London , 1976.
- **Communication and the Evolution of Society** , Heinemann , London , 1979.
- **«The analytical theory of science and dialects»** and «A positivistically bisected rationalism» in Th. Adorono et al. , (the positivist Dispute in German Sociology) , pp. 131-162, 198-225.

ترجم له الى الفرنسية:

- **Théorie et praxis** - Le Problème de La Légitimité dans le Capitalisme Avancé , Payot , Paris , 1963.
- **La Technique et la Science Comme Idéologie** , Gallimard , Paris, 1964.
- **Profils Philosophigues et Politiques** , traduit de l'Allemand par G. Raulet , Payot , Paris , 1975:
  * Penser avec Heidegger contre Heidegger (Vol. 1).
  * Une Influence Majeure (Vol. 2).
  * Une Autre Mythe du xxe Siècle (Vol. 3).
- **Théorie et Pratique** , Préface et Traduction de l'Allemand par G. Raulet , Payot , Paris , 1975.
- **L'Espace Public** - Archéologie de la Publicité comme constitutive de la Société Bourgeoise , Payot , Paris , 1978.
- **Logigue des Sciences Sociales** , PUF , Paris , 1987.
- **Théorie de L'Agir Communicationnel** , Fayard , Paris , 1987.

- **Après Marx** , Fayard , paris , 1983.

- **Morale et Communication** , Serf , Paris , 1987.

ترجم له الى العربية :

- القول الفلسفي للحداثة، ترجمة فاطمة الجيوشي، وزارة الثقافة، دمشق، 1995.

لمزيد من القراءة حوله :

- McCarthy , Th. : **The Critical Theory of Jrgen Habermas** Hutchinson , London , 1978.

- Kortian , G.: **Métacritique** , Minuit , Paris , 1979.

- Geuss , R. : **The Idea of a Critical Theory** - Habermas and Frankfort School , Cambridge University Press , 1981.

الملحق الثاني

معجم مختصر

الابستمولوجيا Epistemology

فرع من فروع الفلسفة يهتم بالمعرفة، والكلمة مشتقة من اللفظتين الاغريقيتين: Epistemمعرفة، و Logos علم، وتعنى بالدراسة النقدية لمبادئ العلوم المختلفة، وفروضها، ونتائجها، وتحديد أصلها المنطقي وقيمتها الموضوعية، من حيث شروط امكانها في مجال الحياة الاجتماعية، وبالقواعد التي تتعلق بانشاء معطياتها والتي ترتبط بالموضوعية، وبالمسافة بين الباحث والوقائع المعاينة، والتي تتعلق بنقد المخارج والأيديولوجيات ومقاييس البراهين، وكلها مسائل مازالت مدار بحث ونقاش من مختلف المدارس، وإن بدا التوافق واسعا حول المستلزمات المنطقية لانتاج المعرفة، من مثل قواعد الموضوعية وقواعد نقد المعطيات والتحقق منها.

وينبغي أن نميز الابستمولوجيا عن نظرية المعرفة، بالرغم من أنها تمهيد لها وعمل مساعد لا غنى عنه، من حيث أنها تدرس المعرفة بتفصيل وبكيفية بعدية في تنوع العلوم والموضوعات، فيما نظرية المعرفة تعنى عادة بشروط امكان المعرفة.

ويعدّ ماكس هوركايمر أحد مؤسسي مدرسة فرانكفورت من أهم من تناول فلسفة عصر التنوير عند كانط برؤية ابستمولوجية، ورأى في هذه الفلسفة اتجاها لم يكتسب امتداده الاجتماعي.

اريك فروم E. Fromm

محلّل نفسي، حاول أن يزاوج في دراساته بين الفرويدية والماركسية في

جدلها الاجتماعي، وان كان أميل الى فرويد بحكم تكوينه السيكولوجي.

ولد في مدينة فرانكفورت عام 1900 لأسرة متدينة، وارتبط أواسط العشرينات بحلقة رابي نوبل R. Nobel. وبعد دراسته في جامعات هايدلبرج وفرانكفورت وميونخ، تدرّب في معهد برلين للتحليل النفسي، وتابع التعلم على يدي تيودور رايك Th. Reik، وأصبح في عام 1920من أوائل المحللين النفسيين غير الأطباء.

بدءا من عام 1931، كان مشروعه مزواجة اسهامات فرويد وماركس في اطار علم النفس الاجتماعي، وأقام علاقة مع معهد البحوث الاجتماعية وساهم في جريدته.

ومنذ عام 1935، ابتعد بوضوح عن الفرويدية، حين حاول أن يخلصها من المغالاة في أهمية الغرائز، وأولى اهتماما لتأثير العوامل الثقافية والاجتماعية، وطوّر مفهوم (الطابع الاجتماعي) ليعبرّ به عن شخصية المجتمع الذي يشترك غالبية أفراده في ثقافة مشتركة.

أقام تواصلا فكريا مع بحوث ڤيلهلم رايش W. Reich التي أدخلت المجتمع كموضوع مؤثر داخل البنية النفسية للفرد. ثم بدأ انفصالا جديدا بينه وبين الفرويدية، وبخاصة ما يتصل بعقدة أوديب، حيث رفض فروم فرضية كونها محركا أساسيا داخل المجتمع الأبوي، ولم يتقبل الأطروحة المبنيّة حول المحور الأوديبي كمطور للتاريخ وللحركة الكلية للمجتمع.

شارك معهد البحوث الاجتماعية في دراسات حول السلطة عام 1936، لكنه أنهى علاقته به عام 1939، قبل أن يؤكد استقلاله النظري في كتابه (الخوف من الحرية) الصادر عام1941. ورغم ذلك، كؤنت أعماله التيار الأكثر تأثيرا وأصالة لمدرسة فرانكفورت في الميدان النفسي الاجتماعي.

الاغتراب Alienation

مصطلح يصف كلا من عملية ونتائج تبديل ناتج النشاط الانساني والاجتماعي (منتجات العمل، النقود، العلاقات الاجتماعية...) في ظروف تاريخية معينة، وكذلك تحويل خصائص وقدرات الانسان الى شيء مستقل عنه

ومتسلط عليه، وأيضا تحول بعض الظواهر والعلاقات الى شيء يختلف عما هو عليه في حدّ ذاته.

ويعزى ظهور هذا المصطلح في الفكر الغربي الحديث إلى فلسفة هيجل، وان كان هناك من يرده الى أفكار القديس أوغسطين.

وفي معالجة النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت هذا المصطلح، نجدها تؤكد أن: "العمال والمديرين في النظام الرأسمالي مغتربون، لأنهم محرومون من اشباع حاجاتهم الأساسية. فالعمل لا شخصي، والاستهلاك مغترب، وسلوكياتهم مدفوعة بالمصلحة وليس بالحب. انهم قد يكونون أطباء أو محامين، لكنهم بالتأكيد ليسوا بشرا".

وفي هذا الاطار، تؤكد النظرية النقدية على لسان هابرماس، أنه اذا كانت الماركسية قد ركزت على الاغتراب الاقتصادي، فاننا نرى اليوم الاغتراب الاقتصادي لم يعد هدفا للنضال السياسي الذي يجب أن تمارسه الطبقة العاملة. ذلك لأن هذا الاغتراب الاقتصادي يظل قائما في ظل اغتراب ثقافي أوسع نطاقا.

ولتكريس الاغتراب، يلجأ النظام الرأسمالي المتقدم إلى آليات عديدة منها: أن يتولى النظام خلق ما يمكن أن يسمى بالحاجات الكاذبة أو الزائفة لدى البشر، وهي حاجات تصنعها وسائل الاعلام والاتصال الجماهيري. واذا كان الانسان يحرص على اشباع حاجاته الأساسية، فان ذلك خير وسيلة للقضاء على حريته، أي خلق الانسان المتكيف ذي البعد الواحد، الذي يستعيض عن الحرية بوهم الحرية.

وتتمثل الآلية الثانية في أن النظام يلجأ الى القهر والتسلط من ناحية، وفرض التكيف على الفرد من ناحية أخرى. واذا كنا نعاني نوعين من القهر:

القهر الحضاري والقهر الفائض، فان القهر الفائض هو الذي يخدم مصالح السيطرة السياسية من ناحية، وخضوع الانسان من ناحية أخرى. ولا يستطيع البشر القضاء على القهر الفائض، لأن أوضاعهم تفرضه عليهم.

وتبدو الآلية الثالثة في جذب الطبقة العاملة في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة للمشاركة والتفاعل حسب قواعد اللعبة الرأسمالية، فممارسة

المواطنين حق الاقتراع في الديموقراطيات الحديثة، والاشتراك في التظاهرات والاحتجاجات، يشي بوجود حريات لا وجود لها، ومن ثم في استطاعة النظام الرأسمالي ترسيخ الاغتراب عن طريق تزييف الوعي بميكانيزم الديمرقراطية.

لكن ماهي الطريق الى تجاوز الاغتراب كما تصوره أعلام النظرية النقدية ؟

اذا كان ماركس يلغي الاغتراب عن طريق الغاء المجتمع الطبقي وسيطرة البشر على بعضهم، فاننا نجد هوركايمر يقف موقفا رومانسيا، حين يؤكد أن القضاء على الاغتراب يتم عن طريق التأمل والنقد الذاتي. وعلى خلاف ماركس الذي ارتأى الغاء الانسان المغترب واستعادة الانسان الكامل من خلال تجاوز التناقض الرأسمالي، يؤكد ماركيوز على الانفصال عن القيم السائدة، واستيعاب قيم مضادة، وهو حل لا يبدو منطقياً الى حدّ كبير.

الاقتصاد السياسي Political Economics

ترجع كلمة (اقتصاد) الى أرسطو، ومعناها علم مبادئ تدبير شؤون البيت، وهي مشتقة من لفظتين يونانيتين. Oikus ومعناها بيت، و Nomos ومعناها قانون. بعدها استخدم مصطلح (الاقتصاد السياسي) أوائل القرن السابع عشر على يدي مونكرتيان Montchretien. وتدل صفة السياسي فيه الى أن مونكرتيان كان معنيا بمبادئ اقتصاد الدولة، بعد ذلك استخدم المصطلح على نطاق واسع للدلالة على البحث المتعلق بمشكلات الاقتصاد الاجتماعي. واللفظة اليونانية Politicos معناها (اجتماعي)، وبذلك يعتبر المصطلحان (الاقتصاد السياسي) و (الاقتصاد الاجتماعي) مترادفين، ولذلك يجري أحيانا تعريف الاقتصاد السياسي بأنه علم الاقتصاد الاجتماعي.

ومن المرجح أن مصطلح (الاقتصاد السياسي) بدأ استخدامه في انجلترا تحت تأثير المصطلحات الفرنسية، وكان أول من استخدمه جيمس ستيوارت في عنوان كتاب له صدر عام 1767.

ومن هذا التقليد الانجليزي الفرنسي، يأتي مصطلح (الاقتصاد السياسي)

كما استخدمه ماركس وانجلز، للدلالة على دراسة القوانين الاجتماعية المتعلقة بانتاج السلع وتوزيعها، وأطلق ماركس أحيانا عبارة (نقد الاقتصاد السياسي)، أى نقد المذاهب المتعلقة بما يعرف باسم الاقتصاد السياسي الكلاسيكي، وهو ما يقترب من استعمال النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت لهذا المصطلح.

الامبيريقية Empiticism

اتجاه في نظرية المعرفة يرد المعرفة الى الاحتكام للواقع، بواسطة ملاحظته واختباره.

وتفترض الامبيريقية أنه باستطاعة الانسان أن يعرف الأشياء الناتجة مباشرة عن ادراكه الحسيّ وخبرته فقط، ويسود هذا الاتجاه في ظل قناعات شخصية للباحث، يمكن أن تعبر عن نفسها باستقلال عن التصورات السائدة.

وفي علم الاجتماع، يستعمل هذا المصطلح غالبا على سبيل النقض أو القصور، ليعني غياب الاطار النظري، والتركيز الضيق المنغلق على مشكلة بعينها، والاعتماد الغالب على تقنية الاستمارة، وحساب النسب والمتوسطات، بما يبدو وأن حضور الرقم كاف في حد ذاته لاثبات العلمية.

وقد اهتم مفكرو فرانكفورت بنقض هذا الاتجاه، لما رأوه من مبالغته في الاحتكام للواقع، وتقليله من أهمية دور التجريدات والنظريات العلمية في المعرفة، وانكار الدور الايجابي والاستقلال النسبي للفكر، خاصة مع عدم وضوح المعطيات المتوفرة، أو عدم التأكد من قياسها.

الأممية Internationalism

واحدة من أهم مبادئ أيديولوجية وسياسة الأحزاب الماركسية، وهي تنعكس في التضامن الطوعي للطبقة العاملة وكادحي كافة الأمم، في وحدة أفعالهم والتنسيق بينهم ومساعدة ودعم بعضهم.

وكان ماركس وانجلز أول من صاغا مبادئ الأممية البروليتارية في (البيان الشيوعي)، الذي برهن على وحدة مصالح عمال جميع البلدان في الكفاح من

أجل التحرر من الرأسمالية، وحماية أمن المجتمع الاشتراكي، والكفاح من أجل السلام ضد الحرب، ومساعدة شعوب العالم النامي لتطوير اقتصادها وثقافتها، ودحض كل سعي يهدف الى تقسيم الشعوب على أساس قومي أو عنصري.

وقد تأسست الأممية الأولى في لندن عام 1864 باسم (الرابطة الدولية للعمال)، وشارك فيها ماركس، وهدفت أن تكون الحزب العالمي للعمال وليس اتحادا للأحزاب الوطنية. وظهرت الأممية الثانية في باريس بين عامي 1889 - 1891 كاطار عام لاتمام اللقاءات الدورية والمؤتمرات. أما الأممية الثالثة، أي الأممية الشيوعية، أو الكومنترن، فقد أنشيءت في موسكو عام 1919، وكان الهدف من انشائها أن تكون أداة للثورة ليس بيد الطبقة العاملة فحسب، بل أيضا بيد كل عمال العالم، وحددت لها أشكالا تنظيمية دقيقة. ونشأت الأممية الرابعة من قبل تيار يساري معارض ظهر عام 1923 في الحزب الشيوعي الروسي، هو التيار التروتسكي، وتأخر انشاؤها حتى عام 1938، وكان التأسيس في باريس، غير أنها لم تتمكن من الانتظام بسبب الانشقاقات داخل صفوفها.

ويمكن القول أن النظرية لمدرسة فرانكفورت حاولت الابتعاد عن التفسيرات التي قدمها مفكر والأممية الثانية والثالثة للنظرية الماركسية، دون الوصول الى حدّ التعارض مع هذه التفسيرات.

الظاهراتية Phenomenology

مذهب فلسفي يقوم على دراسة الأشكال المختلفة للوعي، وتنوعاته، والطرق التي بها يعي الناس العالم الذي يعيشون فيه.

وقد جهد ادموند هوسيرل E. Husserl رائد هذا المذهب، في أن يبرهن على أن تحليل بنى العقل ليست علما فحسب، بل انه بالضرورة (العلم الأول) باعتبار أن جميع التخصصات الأخرى، بما فيها المنطق والفيزياء، تعتمد على مفاهيم الظاهراتية، والتي ليس في امكانها أن تكشف عن بنية الجهاز المفاهيمي لدينا فحسب، ولكنها كذلك تكشف عن الطرق التي نمارس

بها نحن وجودنا كآدميين نختلف عن الكائنات الأخرى.

مثال ذلك، أنه اذا كان علم النفس التجريبي معنيا بالارتباط بين (صورة الطعام) و (الجوع)، فان للظاهراتية اهتماما مسبقا بمسألة أعم، هي:

ما الذي يمكن على وجه التحديد أن نعتبره (صورة)، أو اهتماما بمسألة (التذكر) وما شابه ذلك، ولهذا فان مهمة الظاهراتية هي الوصف المسبق للبنى والطرق التي يفكر بها الناس و يفعلون ويعيشون في العالم.

من هنا يشكل مفهوم (القصد) ملمحا مركزيا في الظاهراتية، حيث كل شكل من أشكال الوعي هو دائما وعي بشيء ما.

وقد أدى تعامل علم الاجتماع مع الظاهراتية إلى نتائج متنوعة، وهو ما يتضح على سبيل المثال في قراءة ألفريد شوتز A. Schuts أحد أعلامها، لأعمال ماكس ڤيبر، فيما يتصل بقضية الفهم، والعقل الاجتماعي.

ولدى منظّري مدرسة فرانكفورت، كان ماركيوز من أهم من انتقد ظاهراتية هوسيرل في حديثه عن مفهوم (الماهية) في العصر الحديث، والتمييز بين الماهية والوجود، بحيث أزال عن هذا التمييز أهم وظيفة له، تلك الوظيفة التي تؤدي الى الوقوف من الواقع موقفا نقديا، وهو ما أخذه ماركيوز على الظاهراتية. التي رآها تبتعد عن أية دلالة نقدية، الى حدّ أنها تنظر الى الأساسي وغير الأساسي، وموضوع الخيال فضلا عن موضوع الادراك الحسّي، على أنها جميعا وقائع.

انسان البعد الواحد The One - Dimensional Man

مصطلح صاغه ماركيوز، وقدمه كعنوان لكتابه المشهور (انسان البعد الواحد - دراسة عن أيديولوجية المجتمع المتقدم).

ويرى ماركيوز أن هناك مرضا أصاب المجتمعات الصناعية المتقدمة، بشقيها الرأسمالي والاشتراكي، اسمه (البعد الواحد)، انطلاقا من أن التكنولوجيا في هذه المجتمعات تعزز وتطور أشكالا جديدة ومبتكرة من الرقابة الاجتماعية التي تسحق الانسان كلية وتحرمه من حريته. وتسفر هذه الأشكال القمعية عن تحويل الانسان الى حيوان منتج مستهلك بالدرجة

الأولى، الى حدّ أنه يخنق في نفسه كل حاجة غير حاجة الانتاج والاستهلاك. وهذا الواقع ينعكس سياسيا على حركة التناقضات التي تميل نحو التوحد أو الصراع الشكلي، وان كان في الحقيقة يستبعد كافة أشكال الصراع الكامنة في هذه المجتمعات، عن طريق احتواء هؤلاء الذين كانوا يمثلون في ظل النظم الاجتماعية السابقة عناصر الرفض والاحتجاج، حين نقلت القمع من خارجهم الى دواخلهم، وزيفت حاجاتهم المادية والفكرية واحتوت معارضتهم.

من هنا يضحى الانسان في هذه المجتمعات انسانا متشيئاً ذا بعد واحد، هو البعد المتمثل، المتكيف، المتصالح مع الواقع، لأنه يفقد قدرته على المعارضة، وحتى على مجرد احساسه بالاغتراب، فيما التفكير النقدي هو أهم ما يميز الانسان الحرّ، الذي يمتلك الجرأة والقوة على أن يقول (لا) في وجه النظام القائم.

ويصف تومبسون R. Thompson انسان البعد الواحد، كما عرضه ماركيوز، بأنه: "نصْف أبْله، حسن التغذية، ضحْل في عواطفه، فقير في علاقاته الانسانية، دمية سوقيّة، يسيطر عليه الخداع من ميلاده الى وفاته".

أنطونيو جرامشي A. Gramsci :

منظر ماركسي ايطالي. ولد كطفل رابع لعائلة تنتمي الى الطبقة الوسطى الدنيا في جزيرة سردينيا عام 1891، لأب كان يعمل في السجن، وهو المكان الذي مّثل أيضا النهاية المحزنة للابن.

أصبح عضوا في الحزب الاشتراكي الايطالي حين كان طالبا في جامعة تورينو وعضوا نشطا في الحركة العمالية، وشخصية قيادية في المناصب الصناعية بجنوب ايطاليا عام 1920. وعمل عضوا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الايطالي منذ تأسيسه عام1921، وأمينا عاما له عام 1924، وهو نفس العام الذي اختير فيه عضوا في البرلمان.

سجنته الحكومة الايطالية الفاشية عام 1926، لتضع حدّا لنشاطه الثوري، ولتقمع العقل الذي وجد فيه موسوليني تهديدا لنظامه. والمفارقة أن استجابة

جرامشي قد تمثلت في مؤلفه (مذكرات سجن) أعظم ما أبدع.

ذلك العمل الناجح الذي نسخه على شكل دفاتر في السنوات الأخيرة قبل وفاته عام 1937.

حظيت أفكاره ومفاهيمه بشهرة داوية منذ الخمسينيات، وبخاصة ما يتصل بنظرته الى التعليم بوصفه عملية عامة في الصراع من أجل الهيمنة، ومحاولته تحرير الماركسية الأورثوذكسية من النزعة الاقتصادية المفرطة، وتصنيفه للعلم الاجتماعي بوصفه شكلا من الأيديولوجيا، وتحديده للأيديولوجيا بوصفها تصورا أو رؤية متماسكة ومتطورة للعالم، وأن وظيفة المثقفين هي انتاج مثل هذه التصورات والرؤى، عن طريق تقديم الوعي الأيديولوجي والتبرير العقلاني لكتلة تاريخية بعينها، وتلك وظيفة رآها لا يقوم بها إلا المثقفين العضويين.

كذلك قدم في بحوثه عددا من المفاهيم، مثل (الكتلة التاريخية) كتجميع لأكثر من طبقة، و (المجتمع المدني) بوصفه المجال الأساسي للصراع الاجتماعي، و (المثقفين العضويين) و (الهيمنة)، و (التنبؤ). واستخدم مفهوم (النزعة الاقتصادية المفرطة) بشكل انتقاضي، لكي يحط من قدر التفسيرات التي تركز على الأساس الاقتصادي.

أوجست كونت A. Comte

هو مؤسس الفلسفة الوضعية وعلم الاجتماع، ومؤسس الاتجاه الوضعي والاتجاه الامبيريقي في تقاليد هذا العلم.

ولد عام 1798 في مدينة مونبلييه بفرنسا لأسرة أرستقراطية، والتحق بالمدرسة التقنية في باريس عقب الثورة الفرنسية، وعمل سكرتيرا لسان سيمون، وقام بتدريس الرياضيات. وفي عام 1848، قام بانشاء الجمعية الوضعية، ومات عام 1857.

اقترح تصنيفا ثلاثيا للمعرفة والتاريخ، هو: المرحلة اللاهوتية، والمرحلة الميتافيزيقية، والمرحلة الوضعية. وقد رأى بأنه لا بد من السعي الى تكريس الرأسمالية، باعتبارها لديه تتوج تاريخ تطور الانسان. ورأى أنه يمكن تحقيق

الانسجام الاجتماعي بالدعاية لدين جديد أسماه (الدين الوضعي)، يستعاض فيه عن الايمان بإله، بالاعتقاد في كائن فائق هو الانسانية.

وقد حرص على تأكيد مدى أهمية الملاحظة والمقارنة والتجربة بالنسبة لعلم الاجتماع. وفي نطاق هذا العلم، عمل على التمييز ما بين دراسة الاستاتيكا (القوانين الحاكمة للنظام الاجتماعي) والدنياميكا (القوانين التطورية الحاكمة للتغير الاجتماعي).

كان لوضعيته تأثير واسع على كل من الفلسفة وعلم الاجتماع، في رفضها للأمور الميتافيزيقية، وتأكيدها على وحدة العلوم الطبيعية والاجتماعية، وسعيها إلى ارساء القوانين الاجتماعية العلمية، وان تعرضت من قبل مفكري فرانكفورت للنقد الحاد.

الأيديولوجيا Ideology

الكلمة مشتقة من اللفظتين اليونانيتين: Idea بمعنى فكرة، و Logos بمعنى علم، أي أنها تعني علم الأفكار، وكان الفرنسي ديستون دوتراس هو الذي صاغها في نهاية القرن الثامن عشر كمقابل للعالم المحسوس، ولكنها تحولت لدى ماركس وانجلز في مؤلفاتهما الأولى، باعتبارها الوعي الخاطئ الذي ينجم عن الموقف الطبقي للأفراد، أو مجموعة الأوهام والأفكار الزائفة التي تشكل صورة عقلية مشوّهة للظروف المادية للحياة الاجتماعية، وهي في نفس الوقت نظام للفكر تخلقه الطبقة الحاكمة.

وقد انتقد ماركس منحى بعض المفكرين الألمان، الذين أقاموا للأفكار والبنية الفوقية سلطانا خاصا ومستقلا عن البنى التحتية، أي عن الحقائق الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية المترتبة عليها.

كذلك يعرّفها جرامشي كنظرة الى العالم، تتجلى ضمناً في الفن والقانون والنشاط الاقتصادي في جميع نواحي الحياة الشخصية والجماعية. واليوم تستخدم بمعنى منظومة القيم التي تتعامل مع التنظيم الاجتماعي والسياسي للمجتمع، وهو ما يجيز التمييز بين أيديولوجيات تطمس الواقع، وأخرى تزيد الوعي به.

وثمة مستويات ثلاثة أساسية للأيديولوجيا، هي: تصوير العالم، والصياغة الاجرائية للمارسة، والاثارة العاطفية للمشاعر: فكل أيديولوجيا تحتوي على مجموعات معينة من المصطلحات والمفاهيم التي يعتقد أنها تقوم بتصوير العالم السياسي بطريقة مناسبة لجماعة معينة. ويحتوي التصوير على عبارات تصف الفاعلين المهمين، وأساليب ممارساتهم، وطبيعة العلاقات التي تربطهم بالجماعة المعينة، وتفسير هذا كله.

كذلك فان كل أيديولوجيا لا بد وأن تقوم بصياغة اجرائية للأهداف والقيم والمصالح التي تراها مناسبة للجماعة المعينة بدرجة من الوضوح، وكذلك اثارة عواطفها، عن طريق عبارات وبيانات تدمج في صلب المقولات التصويرية أو الاجرائية التثمين المتساوي أو غير المتدرج لموضوعات التقويم.

البيان الشيوعي Communist Manifeste

بيان مشهور صاغه ماركس وانجلز، وأصدراه في لندن عام 1848، ويعتبر أهم وثيقة صدرت على شكل بيان متضمنة برامج ومبادئ الشيوعية. وقد ظهر منه حتى الآن أكثر من ألف طبعة، نشرت بنحو مائة لغة مختلفة.

وينقسم البيان الى أربعة أقسام: الأول، يفضح الجوانب السيئة من النظام الرأسمالي. والثاني يكشف دور البروليتاريا في القضاء على شرور الرأسمالية ويصور مستقبل مصيرها. والثالث يتضمن هجوما على مدّعي الاشتراكية الذين يعارضون الماركسية. أما الرابع، فيوضح الحاجة الى اقامة أممية عمالية بوصفها برنامجا عالميا لاقرار النظام والسلام، ووضع استراتيجية ينهجها العمال في صراعهم ضد البورجوازيين، أي الطبقة الرأسمالية الحاكمة.

وينتهي البيان بنداء يعتبر من أشهر ما عرفه التاريخ من نداءات، اذ ترد فيه عبارة: "ليس لدى البروليتاريا ما تخسره سوى قيودها.. ولكن أمامها عالما لتكسبه. يا عمال العالم جميع الأقطار، اتّحدوا".

التحليل Analysis

أسلوب في دراسة الموضوعات يعارض الحدس، ويقوم على تقسيم

الكل، عمليا أو ذهنيا، الى أجزاء، باعتباره مرحلة ضرورية على طريق معرفته، حيث يوفر امكانية دراسة أجزاء منفردة منه، والكشف عن مكوناته والعلاقات بينها، فيتم بذلك الوقوف على خصوصيات ظهور وتطور الكل المدروس.

وقد صار التحليل مدرسة فلسفية قائمة بذاتها مع فلسفة التحليل المعاصرة، التي تطلق بصفة أساسية على رواد الواقعية الجديدة التي أسسها مور، وكان من مشاهيرها هوايتهد ورسّل، والوضعية عند جماعة ڤيينا. وتتحدد مهمة الفلسفة في هذه المدرسة بأنها التحليل المنطقي للمدركات والقضايا العلمية، بهدف التوضيح وليس بهدف اضافة معرفة جديدة.

أما مفكري مدرسة فرانكفورت، فيمنحون (التحليل) مدلولا منهجيا وظيفيا، عبر قيامهم بعملية تحليل جدلي مقترن بالنقد. فالتحليل عندهم هو تحليل نقدي للواقع، ذو منهج جدلي في تعامله مع التشابكات المتعددة الأبعاد لما هو شاخص من مظاهر عينية.

التحليل النفسي Psycho - analysis

هو منظومة الأفكار والاجراءات التي تتصل بالنظرية العامة والمنهج في معالجة الأمراض العصبية والنفسية، واللذان اقترحهما فرويد، وهو بهذا المعنى يمثل العقيدة النظرية والاجرائية للفرويدية والغرض الأساسي الذي يقوم عليه التحليل النفسي، هو أن ماقبل الشعور، والذي يسيطر على النفس، تحتله في الأعماق رقابة، وهي معادلة نفسية تتشكل تحت تأثير نظام المحرمات الاجتماعية. وفي حالات صراعية خاصة، تفلت الميول اللاشعورية من الرقابة و تظهر أمام الشعور، كالأحلام وفلتات اللسان أو القلم والأعراض العُصابية.

من هنا يتم تفسير مواقف المريض بطرائق متعددة، من مثل تداعي المعاني الحر، والكتابة الآلية، وتحليل الأحلام وفلتات اللسان، وترمي الى استكشاف الذكريات النفسية والرغبات المكبوتة، ونقلها من العقل الباطن الى منطقة الوعي.

ويعتبر دخول التحليل النفسي، كموضوع بحث في معهد البحوث الاجتماعية بفرانكفورت، من أهم ما يميز مرحلة هوركايمر عن فترة جرينبرج، لأنها فتحت أمام منهج التحليل الاجتماعي النقدي للمجتمع آفاقا أخرى أكثر تماسكا مع النتائج النهائية لفعالية البحث، وبالذات ما يتصل بمنهج هذا التحليل النفسي حول الاعتقاد بأهمية السمات اللاواعية في الحياة النفسية، وهو ما أكد عليه اريك فروم.

التشيؤ Reification

مصطلح صاغه لوكاش ليصف ما سماه ماركس (التشيؤ السلمي)، الذي يذهب الى أن الانتاج في النظام الرأسمالي يركز اهتمامه على السلعة المنتجة، من حيث أنها حصيلة عمل مبذول وأدوات انتاجية، وبالتالي تصبح قيمتها كامنة في سعرها، أو ما يسمى بالقيمة التبادلية وليس في قيمتها الاستخدامية.

وقد وسّع لوكاش من هذا المصطلح، حيث ذهب الى القول بأن هاتين القيمتين تعبران عن مرحلتين اجتماعيتين في تاريخ الغرب: ففي المجتمعات (البدائية) والاقطاعية، كان الانتاج يهدف الى اشباع الحاجات، وبالتالي كانت قيمة السلعة تكمن في قيمتها كأداة لاشباع احتياج، ومن ثم كانت هناك علاقة اتّساق بين الانسان والمنتجات التي يحتاج اليها. أما في المجتمع الحديث، فإن السلعة تفقد قيمتها التبادلية وتصبح شيءا، بالتالي يفقد الانسان علاقته معها، وتصبح هناك فجوة بينه وبين العالم المحيط به، لانه يعيش في عالم تحكمه قيم التبادل، ويظل هو يبحث عن قيم الانسان.

وظاهرة التشيؤ من الظواهر المهمة التي اضطلعت مدرسة فرانكفورت بتحليلها وتفسيرها ونقدها. وهي ترفض تشييء المعرفة الانسانية بوصفها كيانا مفارقا للفعل الانساني ومجاوزا له. ويترتب على ذلك استحالة اقامة بحث علمي غير ملتزم في اطار النظام الاجتماعي الراهن، حيث لم يحصل الانسان بعد على استقلاله وحريته. وعلى ما يذكر هوركايمر، فان الباحث يظل على الدوام جزءا من الموضوع الاجتماعي الذي يسعى الى دراسته، ومن ثم فمن

الخطأ النظر اليه بوصفه بالكامل من المتغيرات الثقافية والاجتماعية المحيطية به.

التنوير Enlightenment

اتجاه اجتماعي سياسي وفلسفي، ساد أوربا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ويتميز بفكرة التقدم، وعدم الثقة بالتقاليد، والتفاؤل والايمان بالعقل، والدعوة الى التفكير الذاتي. وقد حاول ممثلوه أن يصححوا نقائض المجتمع القائم، وأن يغيروا أخلاقياته وأساليبه وسياسته وأسلوبه في الحياة، بنشر آراء في الخير والعدالة والمعرفة العلمية.

من بين ممثليه: كانط، وفولتير، وروسو، ومونتسكيو، وديديرو، وهيردر، وليسنج، وشيلر، وجوته وغيرهم. وقد شاركوا في النضال ضد الاقطاع وأيديولوجيته، وفي التغلب على نفوذ الكنيسة، وعلى مناهج التفكير المدرسية التي كانت سائدة وقتذاك في أوربا. لكنهم كانوا مثاليين في فهم المجتمع، حين اعتبروا أن الأداة الرئيسية للتخلص من مثالب النظام القائم هي نشر المعارف العلمية، وترويج أفكار الخير والعدالة، بما يعني أن أساس التنوير يكمن في الزعم المثالي بأن الوعي يلعب الدور الحاسم في تطور المجتمع، والرغبة في نسبة الخطايا الاجتماعية الى جهل الناس وافتقادهم الى ثقتهم بطبيعتهم، فلم يضعوا في اعتبارهم الدلالة الحاسمة للشروط الاقتصادية للتطور، ومن ثم لم يستطيعوا كشف القوانين الموضوعية للمجتمع. ورغم ذلك، فقد لعبوا دورا تقدميا ملحوظا، وكانت لأفكارهم بعض التأثير على الاشتراكيين الطوباويين.

ولا شك أن أفكار التنوير لم تأت من فراغ، فلقد ارتبط ظهورها ونموها بحوامل موضوعية، مثلتها التحولات العلمية والصناعية الكبرى التي عرفها تاريخ الانسانية لأول مرة، وصحبتها قاعدة تغيير في طبيعة الانتاج والتسويق والعلاقات الاجتماعية الناجمة عن التغيرات الطبقية.

ولدى مدرسة فرانكفورت، فقد حاول هوركايمر وأدورنو صوغ مشروع تنوير آخر، يختلف عن المشروع الأول، حيث ارتأيا أن هذا المشروع الأول

يتماثل مع المشروع الثقافي الغربي المعاصر، في هيمنة النظم الكلية عند كليهما، برغم مفاهيم الحرية والاخاء والمساواة والعقلانية التي قدمها.

الثقافة الجماهيرية Mass Culture

هي جملة قيم الثقافة التي تروج عبر وسائل الاعلام، من صحافة وتلفزيون واذاعة وسينمان، بين الفئات العريضة من السكان، والتي درج على تميزها عن ثقافة النخبة، أو ثقافة القلة غير المتاحة للجمهور.

وتقترن الثقافة الجماهيرية عادة بسيكولوجية المستهلك وتكون حافزا اضافيا لها، وتنشر معايير مبسّطة وقيما نمطية وارتباطات رمزية غير مباشرة. وكلها تنتقص من قيمة الثقافة وتفرغها من مضمونها الحقيقي، وتحيلها الى مجرد نوع من التسلية الخالصة والاستهلاك المُتعي، بل وتهبط بها أحيانا الى مستوى الهاب الغرائز واستثارة نزعات العنف والجنس، ومن ثم تخلق انسانا نمطيا.

وهي بهذه الكيفية تشكل أداة للتأثير الأيديولوجي والنفسي على الجماهير العريضة، وبخاصة في البلدان الرأسمالية، وتستخدم في الترويج لسلع الاستهلاك العام، بغرض غرس النزعة الاستهلاكية وقيم نمط الحياة البورجوازي، وهو ما يعني أنها تهدف في البلدان النامية الى الحيلولة دون نمو ثقافتها الوطنية.

جشطلتية Gestaltism

الكلمة ألمانية وتعني الصيغ، وهي نظرية سيكولوجية في أساسها، تمثل أرقى صورة للبنيوية في علم النفس، بادخالها مفهومي (الصيغة) و (البنية) في تفسيراتها. وتتناول بالبحث النظري والامبيريقي العمليات العقلية ولاسيما عملية الادراك، كما تهتم بالمشكلات الفلسفية الخاصة بنظرية المعرفة.

وقد نشأت هذه النظرية في الربع الأول من القرن الحالي في ألمانيا، وأسهم في انشائها ماكس فرنهايمر، وكورت كوفكا، وفولفجانج كوهلر، وامتد تأثيرها الى مجال علم النفس الاجتماعي عن طريق أعمال كورت ليفين وتلامذته، ممن أسسوا اتجاها في هذا العلم، انتشر على نطاق واسع في

الولايات المتحدة، وكان أساسا للعديد من البحوث دينامية الجماعة.

وتقوم النظرية على مبدأ أن الكل ليس جمعا للأجزاء التي يحتويها، بل هو يمتلك خصائص ذاتية تؤثر في هذه الأجزاء، ومن ثم فإن ادراك الأشياء انما ينصب على كليتها لا على عناصرها وأجزائها. ويضاف الى هذا المبدأ، مقولات: التفاعل الأساس بين الذات والموضوع، والحقل الكلي المنظم، وابراز العلاقات بين الوقائع الفيزيقية والبيولوجية والعقلية.

صاغ ليفين مشروعا لتطبيق هذه النظرية على دراسة العلاقات الاجتماعية، وقام في هذا الصدد بتعميم مفهوم (الحقل الكلي) الذي يشتمل، اضافة الى عناصر البيئة، على نفسه بميوله وحاجاته.

جماعة فيينا Vienna Circle

هي جماعة تكوّن المركز الأيديولوجي والتنظيمي للوضعية المنطقية. وقد تطورت هذه الجماعة من حلقة دراسية تشكلت عام 1922على يدي موريس شليك أستاذ الفلسفة بجامعة ڤيينا، وقدمت ميثاقها عام 1929 باسم (الفهم العلمي للعالم)، وقد صاغه كارناب ونيوراث وهان، وتضمن أهداف الجماعة وبرنامجها العلمي في مجالات المنطق والرياضيات والعلوم التجريبية، وتلخصت في وضع أسس مضمونة للعلوم وبناء وحدتها والبرهنة على أن جميع قضايا الفلسفة الميتافزيقية لا معنى لها.

يضم أعضاؤها كارناب من عام 1926 ووايزمان ، وفايجل، ونيوراث، وهان، وكرافت، اضافة الى آخرين من تشيكوسلوڤاكيا وفنلندا و الولايات المتحدة والدنمارك وبريطانيا.

وقد أحرزت الجماعة شكلا منظما، وأقامت روابط دولية مع جماعات وضعية أخرى، ونشرت مجلتها (المعرفة) عام 1930، ولكن حركة التطهير التي قام بها النازي في الجامعة وغيرها دفعتهم إلى الهجرة جميعا.

وفي العقد الثالث، اشتغل أعضاؤها بشكل حيوي على الوضعية المنطقة، لكنها نهاية هذا العقد لم يعد لها وجود، بسبب رحيل معظم أعضائها عن ڤيينا، ومقتل شليك، وغزو هتلر للنمسا.

وتقوم مبادئها على مفهوم (التحليل المنطقي للمعرفة)، ومذهب الطبيعة التحليلية للمنطق والرياضيات، ونقد الفلسفة التقليدية باعتبارها لغوًا، وتركيز الهجوم على الميتافزيقا، بحيث بدا كما لو كانت حركة مقصودا بها الهجوم على الدين.

جورج لوكاش G. Lukacs

ماركسي مجري، اختلف الباحثون في تحليل أعماله، وفي تحديد اتجاهه الفكري. فباركنسون يراه ممثلا للماركسية الجيدة، وليختايم يعتبره ممثل الهيجلية الجديدة، وزيتا يتهمه بالمراجعة والتحريفية.

ولد في مدينة بودابست عام 1885، ودرس على يدي جورج سيمل ببرلين، وماكس ڤيبر بهيدلبرج، وكان في بدايته وجوديا، ثم تحول الى الماركسية، وانضم الى الحزب الشيوعي المجري عام 1918.

كتابه الرئيسي (التاريخ والوعي الطبقي) عام 1923 محاولة لاعادة صياغة الماركسية صياغة هيجلية، وكان أول الذين اكتشفوا امكان تفسير النظرية الماركسية باستخدام الجدل الهيجلي، وترسخت نظريته بنشر كراسات ماركس الاقتصادية والفلسفية عام 1944، لكن تفسيره المثالي لماركس تعارض مع تفسير لينين، وأساء اليه.

ولقد كاد لوكاش أن يكون واحدا من أعضاء مدرسة فرانكفورت لأسباب عديدة، أهمها الحرص على الانتماء الى التراث الهيجلي الماركسي بما يخدم في وعي ظروف المشروع الثقافي الغربي المتحولة بسرعة ضلال هذا القرن. غير أن ما أبعده عن تلك المدرسة، هو تراوحه بين الالتزام السياسي الأيديولوجي المباشر وما جرّ عليه من مشكلات ومتاعب شخصية، وبين الاخلاص للبحث الفلسفي الجاد الذي أتاح له أن يقدم بعض أهم الأعمال الفكرية في هذا العصر.

الحركات الطلابية Student Movements

مجموعة الأحداث التمردية التي قامت بها جماعات الطلاب المعادية للامبريالية وحرب ڤيتنام، والتي أدت الى أول محاولة ثورية انقلابية في

مجتمعات أوربا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية في شهر مايوم .1968 وقد لجأ الطلاب أثناءها الى بناء الحواجز والخنادق، وتحولت بفضل مشاركة اليسار الجديد والتروتسكيين الى حركة سياسية هدفها الاطاحة بحكم ديجول في فرنسا وبالنظام الرأسمالي.

وقد أبدى طلاب أوربا الغربية تضامنهم العملي، الى درجة إرسالهم مجموعات منهم للمشاركة في الأحداث.

وقد حققت هذه الحركة في فرنسا بعض الاصلاحات الجامعية ومطالب عمالية شملت ارتفاعا في الأجور، إلا أنها فشلت في تغيير النظام لأسباب كثيرة، منها قوة ديجول وقوة الطبقة الوسطى وتحالفه معها، وموقف الحزب الشيوعي الفرنسي المعادي للثورة والملتزم بالتغيير البرلماني والتدريجي، الى جانب صعوبة ايجاد أرضية مشتركة وتحالف ثابت بين الأحزاب الثورية واليسار الجديد.

ورغم أن أفكار ماركيوز، أحد أعلام مدرسة فرانكفورت، مثلت احد أهم مصادر الهام هذه الحركة، الا أنها مالبثت أن انطفأت وخفت جاذبيتها، لعجزها عن اعطاء أجوبة جدّية عن مشكلات العالم المعاصر، رغم طموحها في رسم الطريق نحو التحرر الانساني.

الحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني المستقل SDGIP

حزب وسط، تأسس عام 1917خلال المؤتمر التأسيسي بمدينة جوته، حيث روّج المستقلون بالوحدة مع الاشتراكيين الوطنيين، وانزلقوا الى العدول عن النضال الطبقي. وبعد تأسيس الأممية الشيوعية عام 1919، خرج المستقلون من الأممية الثانية. وفي عام 1920، وقع انشقاق في مؤتمر هذا الحزب بمدينة هال، فاتحد قسم كبير منه نفس العام مع الحزب الشيوعي الألماني، وشكلت العناصر اليمينية حزبا منفردا، وأخذت الاسم السابق (الحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني المستقل). وقد دام هذا الحزب حتى عام 1922، وأثر في فكر بعض من أعضاء مدرسة فرانكفورت، وعلى رأسهم ماركيوز الذي كان عضوا مؤسسا به ليستقيل بعد ذلك.

الجدل Dialectic

الكلمة مشتقة من اللفظة اليونانية Dialektike بمعنى أناقش أو أتحدث، وتعني تلك الطريقة في بحث تطور الفكر والواقع، التي وضع هيجل أسسها النظرية، وأعاد ماركس النظر فيها، وتقوم على الكلية والتطور والنفي والإثبات.

وتعني في الفلسفة الماركسية علم القوانين العامة لتطور الطبيعة والمجتمع والفكر، ونظرية ومنهج دراسة ظواهر الواقع في تطورها وفي حركتها الذاتية النابعة من تناقضاتها الداخلية، وهي بذلك تعارض المنهج التحليلي الذي يرتكز على استخلاص النتائج من أشياء دون الاهتمام بكيفية تغير هذه الأشياء وبحركاتها وتحولاتها وعلاقاتها بأشياء أخرى.

والكلمة في أول الأمر كانت تعني، وبخاصة لدى السفسطائيين، فن التحاور والسجال، أي تصادم الآراء المتقابلة، الذي يؤدي الى الحقيقة، ثم فن البرهنة والنقض. أما النظرة الجدلية العلمية الى الواقع، فلم تظهر دفعة واحدة، وانما مهّد لها تطور ممتد للمعرفة البشرية. ففي البداية كانت على هيئة تصوّر عفوي وساذج قائم على الملاحظة المباشرة، يرى أن كل ما في العالم يتغير ويتجدد على الدوام، وأن الأشياء في الطبيعة تعيش دورانا لامتناهيا من التكوين والفساد والتحول الى أضدادها. ولم يكن قدامى المفكرين يرون إلا اللوحة العامة لتغير الظواهر اللانهائي، فلم يتمكنوا من الكشف عن قانون هذا التغير.

ويرتبط التطور اللاحق في هذه النظرة بهيجل، الذي كشف بهذا المفهوم عن طابع الحركة والتغير المؤسس للواقع، ووهب الذات العارفة القدرة على رصد التناقضات وتتبع مسار الصيرورة. اذ كان أول من صوّر العالم كعملية من الحركة الصاعدة الشاملة، من التطور من الدرجات الدنيا الى العليا، وقال بأن مصدر هذه العملية وقوتها الدافعة هو التناقضات، التي تلازم كافة الظواهر، وتشكل القوة الحيوية لكافة الموجودات، كما صاغ قوانين هذا التطور الأساسية، وان على أرضية مثالية، ليخرج به ماركس بعد ذلك الى أرضية مادية، من خلال قوانين التبدلات الكمية الى كيفية، ووحدة

المتناقضات وصراعها، ونفي النفي.

الرأسمالية Capitalism

تكوين اقتصادي اجتماعي، يقوم على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، واستغلال العمل المأجور، واستخلاص فائض القيمة، والمنافسة، والحروب، والاستعمار.

وينعكس التناقض الأساسي في الرأسمالية، بين الطبيعة الاجتماعية للعمل والشكل الرأسمالي الخاص للتملك، في التطاحن بين الطبقتين الأساسيتين في المجتمع الرأسمالي، وهما: البروليتاريا، والبورجوازية.

وقد حدد ماركس بصورة دقيقة خواص هذه السمات، وحاول أن يبين الطبيعة الاستغلالية لهذا التكوين، وذلك من خلال نظريته عن (نمط الانتاج الرأسمالي).

وكان مثار الاهتمام الأساسي لدى علماء الاجتماع هو أصول الرأسمالية، وصلاتها بالامبريالية باعتبارها شكلا أعلى للرأسمالية يقوم على التوسع الاستيطاني أو الاستعماري، اضافة الى اهتمامهم بأحوال الطبقات المختلفة داخل المجتمعات الرأسمالية.

وقد نشأت الرأسمالية في القرن السادس عشر، ولعبت دورا تقدميا في تطوير المجتمع الأوربي، فحققت انتاجية عمل أعلى بكثير مقارنة بالاقطاع، وحلت محل الاقطاع، وساعدت على نشوء الدول القومية. لكن الرأسمالية دخلت في مستهل القرن العشرين أعلى مراحلها، والتي تتميز بسيطرة الاحتكارات، وتحكم الأقلية المالية، وتعاظم النزعة العسكرية.

وفي الوقت الحاضر، تتعدد مظاهر أزمة الرأسمالية، ما بين احتكار السيطرة على مراكز السلطة بشكل مباشر أو غير مباشر، وسيطرة البيروقراطية والعسكرية، وضعف دور المؤسسات النيابية، وضعف شرعية الحكومات، وغياب المساواة السياسية التي يعلنها مفكرو الرأسمالية، والتي تتنافى بفعل عدم المساواة الاقتصادية.

رايت ميلز W. mills

عالم اجتماع أمريكي راديكالي. ولد في مدينة واكو بولاية تكساس عام 1916 لأبوين من الطبقة الوسطى. وبعد تخرجه من جامعة تكساس، حصل على درجة الدكتوراه في علم الاجتماع من جامعة ويسكونسن. وبدأ حياته الجامعية بالتدريس في جامعة ميريلاند، ثم انتقل بعدها الى جامعة كولومبيا، حيث أصبح أستاذا عام 1956، بعد تأخر طويل نتيجة للتعصب السياسي ضده، ومات عام 1962.

وكان محور اهتمام ميلز هو استخدام السلطة واساءة استخدامها بصفة خاصة. فقد كان يرى أن الولايات المتحدة تحكمها نخبة صاحبة قوة وسلطة، مع جماهير لا تملك القوة أو السلطة، يهتم قادة النقابات العمالة فيها بجمع الثروة.

وفيما بين هاتين الطبقتين، تقف طبقة وسطى عاجزة بسبب العمالة البيروقراطية.

وفي كتاباته، يدلّل ميلز على وجود نخبة متوحدة من السياسيين ورجال الأعمال والعسكريين، وعلى تدهور المزارعين وصغار رجال الأعمال الذين يشكلون الطبقة الوسطى. وقد ظل طيلة حياته، يؤكد سخطه على هذه البنية الوظيفية، ويندّد بها، باعتبارها تجرد الجماهير من استقلالها، وغير ديموقراطية لأنها لا تعترف بحق الجماهير في المشاركة في اتخاذ القرارات التي تمس مصالحهم.

وكان ميلز يعتنق أساسا تلك القيم الشعبية الراديكالية السائدة في الجنوب الغربي للولايات المتحدة، والتي دفعته الى الهجوم على النخبة والمصالح الكبيرة المستغلة، ورغم هذا، فانه لم يطرح رؤية واضحة للمجتمع البديل، كما أنه لم يرتبط بأي جماعة سياسية، وهو ما يفسر عدم تواصله مع مفكري فرانكفورت خلال هجرتهم في الولايات المتحدة.

روزا لوكسمبورغ R. Luxemburg

شخصية بارزة في الحركة العمالية العالمية، وأحد زعماء الجناح اليساري

في الأممية الثانية. ولدت في بولندا عام 1871، وكانت من مؤسسي وقادة الحزب الاشتراكي الديموقراطي البولندي.

ورغم مولدها في بولندا، إلا أنها أمضت معظم حياتها في ألمانيا، حيث أصبحت هناك زعيمة الجناح اليساري في الحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني المستقل، والذي كان ماركيوز ضمن أعضائه وقتذاك.

شغلت منذ بداية الحرب العالمية الأولى موقعاً أمميا، وسجنت عام 1915، وكانت من المبادرين الى انشاء (اتحاد سبارتاكوس) الذي سعى الى اقامة نظام جمهوري على غرار النموذج السوفيتي. اعتقلت مرة أخرى بداية عام 1919، وقامت القوات البروسية بقتلها في مدينة برلين في نفس العام.

تميزت كتاباتها بالاصرار على الدعوة لسيادة الديموقراطية داخل الحركة الثورية، وبايمانها بالطاقة الخلاقة التي تتمتع بها الجماهير الثورية. مثال ذلك مقالها المشهور عن الثورة الروسية الذي قدمته عام 1918، ومثّل فحصا لقضايا هذه الثورة الرئيسية، حيث أكدت فيه العلاقة الوثيقة بين الثورة الاشتراكية والديموقراطية، وانتقدت البلشفية في تفتيتها للمجلس الدستوري، وفشلها في اقامة الانتخابات والقضاء على حرية الصحافة وحرية التجمع والتنظيم.

وخطأت لينين في الأساليب التي استخدمها، مثل المرسوم والمراقبة الديكتاتورية للعمال في المصانع والعقوبات القاسية، ورأت أن الطريق الوحيدة للثورة هي الديموقراطية الشاملة غير المحدودة.

من أبرز أعمالها: (الاصلاح أو الثورة) عام 1899، وهو نقد لبرنشتاين ومذهب التعديل، و (مسائل تنظيمية في الديموقراطية الاجتماعية الروسية) عام 1904، وهو نقد للنموذج الوسطي لتنظيم الحزبي الذي وضعه لينين، و (عصيان الجماهير) عام 1906، وهو تمجيد للمدرسة السياسية الحية في النضال الثوري، و (تراكم رأس المال) عام 1912، وهو عملها الاقتصادي البارز، و (كتيب جونيوس) عام 1916، وجاء بمثابة استنكار الحزب للنزعة العسكرية، وكلها أعمال بدت مثار ضيق وازعاج للشيوعيين المتشددين لعدة عقود.

العقل التواصلي Communicotional Reason

مفهوم صاغه هابرماس، كمحاولة لتنمية البعد الموضوعي الانساني للعقل، ولهذا يطلق على مفهوم (العقل) عنده: العقل التواصلي أو الاتصالي.

وهذا العقل التواصلي لديه هو فاعلية تتجاوز العقل المتمركز حول الذات، والعقل الشمولي المنغلق الذي يدعي أنه يتضمن كل شيء، والعقل الأداتي الوضعي الذي يفتّت ويجزّئ الواقع ويحول كل شيء الى موضوع جزئي، حتى العقل نفسه.

ويرى هابرماس أن العقل الأوربي قد شهد مراحل من الصعود والهبوط: فالعقل الذي أسسه كانط، أي عقل التنوير في أرقى تجلياته، لم يستخدم دائما في الطريق الصحيحة، رغم أنه فتح أمام الانسان الأوربي المجاهل، وحرّره من العُقد القديمة والوعي الخاطئ، وقذف به نحو اكتشاف أسرار الطبيعة والكون، وأدى الى تأسيس أكبر حضارة مادية وتقنية شهدها تاريخ البشرية. لكن هذا العقل كان ينحرف أحيانا عن مساره الصحيح، فيتحول الى عقل أداتي، بحسب تعبير ماكس ڤيبر، أي عقل حسابي بارد قادر على خلق المعجزات التقنية وعلى استئصال البشرية في وقت واحد.

واذا كانت النظرية النقدية لدى رواد مدرسة فرانكفورت لم تنجح في تطوير مفهوم العقل التواصلي، فهذا يعود كما يعتقد هابرماس الى دور العقلية الأداتية المستمر في فكر أدورنو وهوركايمر، نتيجة الشكوك والمخاوف التي سيطرت عليهما بسبب الفظائع التي تمت أثناء الحرب العالمية الثانية والتاريخ القريب.

من هنا فان هابرماس لا يتوقف عند حد اليأس والتشكيك كما فعل أدورنو، وانما يعتقد بوجود امكانات متضمنة في العقل لم تستغل حتى الآن، ويمكن عند كشفها أن تحقق قفزة جديدة تتجاوز مأزق النظرية النقدية.

علم الاجتماع الامبيريقي Empirical Sociology

أحد اتجاهات علم الاجتماع الحديث، الذي يتناول بالوصف جوانب معينة من الحياة الاجتماعية. وقد انتشر هذا الاتجاه على نطاق واسع في

الولايات المتحدة الأمريكية على أيدي لندبرج، ودود، ومايو وغيرهم.

ويقوم هذا الاتجاه على رفض وحدة وتكامل المجتمع والقوانين الموضوعية لتطوره، ورفض التغلغل في جوهر الظواهر الاجتماعية، والنظر الى المجتمع كتجمع آلي لظواهر اجتماعية منفصلة، يمكن تسجيلها ووصفها فحسب.

طبقا لهذا، تقتصر اجراءات هذا الاتجاه المنهجية على غلبة استخدام الاستبيانات والمقابلات والمعلومات الاحصائية. ويعتقد أنصاره أن هذا المنهج الكمي الخالص في البحث هو المنهج العلمي الوحيد.

والسمات الأساسية لهذا الاتجاه، هي افتقاره الى أساس فلسفي عام، وتغاير عميق بين الدراسات الاجتماعية، مما يسفر عن خلق فروع مختلفة لعلم الاجتماع، كل منها مستقل عن الآخر، من مثل علم الاجتماع الحضري، وعلم الاجتماع الريفي، وعلم الاجتماع العائلي، وعلم الاجتماع الصناعي.... الخ.

ويمكن حصر نطاق القطيعة نحو هذا الاتجاه لدى مدرسة فرانكفورت، في أن اهتمام علم الاجتماع الامبيريقي بالتأكيد على التناول الجزئي لنطاقات محدودة للبحث، أو لقضايا بسيطة أو محدودة، أدى الى افتقاده ادراك الكلية الكامنة، حتى ولو من خلال التركيب، لأن اطارها مفتقد أساسا.

وهكذا ففي حين ركز أوجست كونت على العلاقات السببية بين الأجزاء، ركزت النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت على الرؤية الكلية التي تشكل اطارا لهذه الأجزاء.

علم الجمال Aesthetics

يتحدد في منظوره الماركسي بدراسة المبادئ العامة للموقف الجمالي الانساني ازاء الواقع، وهو مايعني محاولته كشف علاقة الوعي الجمالي والفنون، باعتبارهما شكل خاص لتمثل العالم، بالوجه الاجتماعي، أي الحياة الانسانية، وهو بذلك يتميز عن العلوم التي تدرس الفنون، والتي لا يعنيها سوى بناها الجمالية.

ويحتل الفن والأدب مكانة متميزة في النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت،

باعتبارهما المجال الوحيد الذي تتكشف فيه الثقافة في تجاذبها، وفي مقاومتها لهيمنة النظم الشمولية.

وتنطلق نظرة مفكري هذه المدرسة في هذا المجال عبر موقفين ترفضهما: الموقف الذي يقلّص الفن الى مجرد انعكاس بسيط للواقع الاجتماعي، والآخر الذي يرى في الفن وسيلة هروب غامضة. وهكذا يرفض أدورنو نظرة لوكاش الى الواقعية، مؤكدا أن الأدب لا يتصل اتصالا مباشرا بالواقع على نحو ما يفعل العقل، فتباعد الفن عن الواقع هو الذي يكسبه قوته ودلالته الخاصة. ويتوقف أدورنو عند الطرائق التي يستخدم بها المسرحي صمويل بيكيت الشكل، والموسيقار شوبنبرج الثورة اللانغمية، ليصور خواء الثقافة الحديثة. ويذهب هوركايمر الى أن الجماهير ترفض أدب الطليعة، لأنه يعكر من صفو اذعانها الغافل والآلي لوضع الاستغلال الذي يمارسه عليها التكوين الاقتصادي الاجتماعي. وينظر ڤالتر بنيامين، وكانت أفكاره قريبة من أفكار برتولت برخت، الى الثقافة الحديثة نظرة مناقضة لنظرة أدورنو، فيذهب الى أن الاختراعات التقنية الحديثة، من سينما واذاعة واسطوانات، قد أسهمت بعمق في تغيير مكانة العمل الفني.

علم النفس الاجتماعي Social Psychology

هو دراسة مظاهر سلوك الفرد وخبراته من ناحية تأثرها بالمواقف الاجتماعية، وهو بهذا المرمى يشكل مركزا بارزا متقاربا مع الدراسات الاجتماعية، برغم أن مدرسة ديركايم التي اهتمت بتأكيد استقلال علم الاجتماع، حرصت على تبديد الخلط المحتمل بين الطرح الاجتماعي والطرح النفسي. لهذا حاولت تجاهل أو نقد محاولات جبرابيل تارد عام 1890، وجوستاف لوبون عام 1895، وهو ما أدى الى عدم تطور علم النفس الاجتماعي. لكن الأمر اختلف في الولايات المتحدة، التي شهدت منذ عام 1950 تطور هذا العلم، الذي فرضته المشروعات الصناعية والظواهر النفسية الاجتماعية، من مثل المشاعر والأمزجة والعادات الاجتماعية، وعلاقات النفوذ، والصراع النفسي المتولد عن الحراك الاجتماعي، والهويات الاجتماعية، والصراع في المؤسسات، وظاهرة الزعامة وغيرها.

ولدى مفكري مدرسة فرانكفورت، يحتل هذا العلم مجالا دلاليا جديدا باعتباره المجال الاجتماعي العام الذي يشهد هيمنة مؤسسات الدولة الحديثة في اتجاه سلب الوعي الفردي وتحويله الى نمط مجرد من الفردية لصالح نزعة جمعية مشتركة، تسهم في صوغ الذوق والحس والقيم الشخصية، بخلق سمات نفسية جديدة.

الفاشية Fascism

مصطلح مشتق من الكلمة الايطالية fascio بمعنى تجمع. استخدم في أول الأمر وصفا للحزب الفاشي الذي ألفه موسوليني في ايطاليا عام 1919، وسرعان ما أصبح المصطلح علامة على وصف عام ومايزال يستخدم كذلك الى اليوم، على الرغم من وجود فروق مهمة فيما تعنيه الفاشية في البلدان المختلفة.

ومن المهم التمييز بين الفاشية بوصفها حركة ، وبوصفها شكلا من أشكال الدولة، وبوصفها أيديولوجيا: فالحركات الفاشية تتميز بالعداء العنيف لمنظمات الطبقة العاملة، وبدرجة أقل لكبار رجال الأعمال. كذلك تتميز هذه الحركات بالعسكرية، وبالتطرف القومي، وبتكوينها الذي تختلط فيه شرائح البورجوازية الصغيرة بعناصر غير مؤثرة من جميع الطبقات.

وتتميز الفاشية كشكل من أشكال الدولة عن أشكال الدكتاتورية الأخرى بالتأليف بين الوسائل الشرعية والعنف الجماهيري الخارج عن الشرعية، وباستعمال هذا التوليف لحيازة السلطة وتحطيم منظمات الطبقة العاملة.

وتتميز كأيديولوجيا بتوجهاتها العنصرية، وتأليه الزعيم، والعداء للماركسية، وتزييف سياسة وأهداف الأحزاب اليسارية.

فالتر بنيامين W. Benjamin

يبرز كأحد المنضوين تاريخيا في مشروع مدرسة فرانكفورت، دون أن ينتمي تماما اليه.

ولد في مدينة برلين عام 1892، وساهم بعد تعرفه على جوستان فينكن

G. Wgnecken، الذي مارس تأثيرا كبيرا عليه، في حركة الشبيبة المناهضة للبورجوازية، وشارك في مجلة (البدء).

تابع دروسا في جامعة برلين عام 1912 ، وفي جامعة فرايبورج عام1913 ودرس فيها الفلسفة قبل أن يعود الى برلين. وفي فترة الحرب العالمية الأولى، ناضل ضمن حركة الطلاب الأحرار. تعرف الى أرنست بلوخ E. Block خلال اقامته في سويسرا عام 1917، وكرس أطروحته لدراسة حول مفهوم النقد الفني في الرومانسية الألمانية، باشراف الفيلسوف ريشار هربرتز R. Herbertz: ، وعاد الى برلين عام 1920.

اكتشف الماركسية من خلال قراءته لوكاش، وتعرفه على آسيا لاسيز A. Lacis مديرة المسرح الروسي، التي قدمته الى برتولد بريخت عام 1929.

لم يستطع الحصول على درجة التأهيل من جامعة فرانكفورت. وفي عام 1935، قبل كعضو دائم في معهد البحوث الاجتماعية، في حين كان هو نفسه والمعهد منفيين في باريس، وكان قد تعرف في فرانكفورت الى هوركايمر وأدورنو، وعمل بالأخص مع الثاني. حصل على تأشيرة دخول الولايات المتحدة بفضل مساعدة أدورنو، ولحق بجماعة من اللاجئين عام 1940 يعملون على قطع جبال البرانس للعبور الى أسبانيا، الا أنه قبض عليه، وهُدّد بتسليمه الى الجستابو، فأقدم على الانتحار أحد أيام عام 1940.

قدم في حياته واحدة من أفضل الصيغ في الفكر النقدي للأدب، والتي أسست بعد ذلك الاتجاه البنيوي التوليدي في أعمال لوسيان جولدمان.

فرانز بوركيناو F. Borckinow

من الأعضاء المهمين في معهد البحوث الاجتماعية، وان لم يتواصل معه، ولد في مدينة ڤيينا عام 1900، ثم انتمى الى التنظيمات الماركسية واليسارية، حتى نشوء الحزب الشيوعي الألماني على يدي روزا لوكسمبورغ فدخله وكان عضوا فعالا فيه، لكنه ما لبث أن تركه عام 1929 بسبب خلاف مع مواقف الحزب.

تخصص داخل المعهد في القضايا الاقتصادية والتاريخ الاقتصادي، وكتب

بحوثا عديدة أهمها كتابه (من التقديم الاقطاعي للعالم حتى التقديم البورجوازي)، وقد انتقد الكتاب بشكل عنيف من قبل أحد الباحثين العاملين معه، مما أدى الى قطيعة بينه وبين المعهد.

فردريش هيجل F. Hegel

فيلسوف ألماني يعد الشخصية المحورية في الفلسفة المثالية الألمانية، وفي فلسفة القرن التاسع عشر بوجه عام.

ولد في مدينة شتوتجارت عام 1770، ومات بالكوليرا عام 1831 في برلين. وفي حياته حصل على دبلوم في اللاهوت من مدرسة توبنجن حيث زامل شيلنج وهولدرلن، واتجه بعد تخرجه الى التدريس لدى بعض العائلات، وتحرير صحيفة محلية، حتى ألف كتابه المشهور (موسوعة العلوم الفلسفية) التي أدخلته الى التدريس في جامعة برلين عام 1818.

قدم محاولة فلسفية متكاملة للبحث في كافة المشكلات الفلسفية، ومنها تصور العقل ذاته، انطلاقا من مبدأ الجدل، حيث يرى أن التفكير الجدلي هو قانون يشمل جميع مستويات الوعي، وأن كل ما يحيط بنا يؤكد الطابع الجدلي، وأن الدولة هي الشكل الكامل الذي يتحقق فيه العقل والحرية، مما حدا به أن يبّرر للدولة البروسية والدين المسيحي ، وأن ينظر الى أوربا، وبالتحديد الى ألمانيا، باعتبارها خاتمة التاريخ.

وفي أعماله، جعل المطلب الأول من الفلسفة هو الفكر المحض، وألا يكون لها من موضوع مباشر سوى التصّور المحض، وارتبط بدعوى أن التصور هو كل شيء، وأنه لا مكان خارجه لأي شيء. ومنهجه جدلي، اعتبره ماركس أساس الجدل، وان أخذ عليه مثاليته.

ويمكن القول أن الفكر النقدي لم يشحن بطاقة احيائية مستديمة وقوية الحضور، إلا بفضل البناء الفكري الهائل الذي شيدته الفلسفة الهيجلية، تلك التي أخرجت النقد من مداره الفلسفي البحث الذي مثلته الكانطية من قبل، ونقلت الطاقة النقدية وامكاناتها نحو الموضوعات التي تمسّ الوجود الخارجي والداخلي للإنسان: الدولة والقانون وعلم التاريخ وعلم الجمال.

ومن هذا البناء الفكري، انطلقت التيارات الفكرية التي كونت محتوى القرن العشرين وأكثرها أهمية: الماركسية، والفرويدية.

الفلسفة الاجتماعية Social Philosophy

اتجاه في المعرفة الاجتماعية، نشأ نهاية القرن التاسع عشر في ألمانيا، اثر تطور الأفكار الاجتماعية، كميدان جديد للبحث، لم تكن الفلسفة أو علم الاجتماع قادرتين كل منهما منفردا على الالمام به، أو تقديم أجوبة كافية لما يطرحه ذلك الميدان من تساؤلات.

ومن هنا ظهر نمط جديد للتفكير، يقع على الحدود بين الفكر التأملي والملاحظة الاجتماعية. وقد أعطى هذا النمط أدبيات غزيرة يختلط فيها علم الاجتماع مع الفلسفة والتاريخ. وتغذت هذه الادبيات من عدة مصادر تتراوح بين الأفكار الاجتماعية والأخلاق وفلسفة القيم. وشارك فيه أسماء مشهورة من مثل: ماكس فيبر، وماكس شيلر، وكارل ياسبرز وغيرهم. ومن خلال الجمع بين العلوم الاجتماعية والأخلاق وفلسفة التاريخ وعلم النفس الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، نشأ المشروع الشامل للفلسفة الاجتماعية.

ولدى مدرسة فرانكفورت، تمثل الفلسفة الاجتماعية مشروعها العلمي، حيث حدد هوركايمر منذ البداية في بيان 1931 حول (الوضع الحالي للفلسفة الاجتماعية والمهام الملقاة على عاتق معهد البحوث الاجتماعية)، بأنه نظرا للجهل بالمسار المستقبلي لمختلف التخصصات العلمية، يبدو أنه: "من المستحسن عدم محاولة تقديم تعريفات نهائية لميادين البحث". ومع ذلك، حاول هوركايمر وزملاؤه في المدرسة صوغ نظرية نقدية في مواجهة النظريات التقليدية السائدة.

الصنمية Fetishism

مصطلح مشتق من اللفظة البرتغالية fetitico بمعنى سحر أو تعويذة أو تميمة، وأطلق أول الأمر على ما كانت تقدسه بعض شعوب افريقيا، حيث يسود الاعتقاد بأن لبعض الأشياء المادية الصغيرة قوى سحرية خارقة للعادة.

ويظهر هذا المفهوم لدى ماركس في كون الناس يتصورون قوانين الاقتصاد والاجتماع على أنها نتاج قوي خارقة تسيطر عليهم، وتبدو حركتهم الاجتماعية في نظرهم على أنها حركة أشياء، أي أشياء تتحكم فيهم بدل أن يتحكموا فيها.

وفي الاقتصاد السلعي، القائم على الملكية الخاصة، تنشأ الصنمية السلعية حيث تنجم التصورات حول السلع كأشياء لها بطبيعتها قدرة خفية، هي القدرة على التبادل، وعلى الدخول في علاقات فيما بينها وبين الناس. أما في حقيقة الأمر، فان قدرة السلع على التبادل تعود الى كونها منتجات للعمل البشري، وليست حركتها إلا نتيجة العلاقات بين الناس في مجرى الانتاج.

وتتجلى الصنمية السلعية على أشدّها في عبارة المال والذهب، الشائعة في المجتمع الرأسمالي، وفي الايمان بأن كل شيء في العالم يباع ويشترى.

ولدى مدرسة فرانكفورت، يمتد استعمال الصنمية من صنمية السلعة وترميزها، التي حددها ماركس، الى جعل النتاج الرسمي المؤسس نموذجا، وكذلك المؤسسة نفسها ومصادرها المرتبطة بأصولها العليا المحتواة من قبل الدولة، معكوسة ومضخمة، عبر وسائل السيطرة المتاحة لأجهزة الاعلام.

وتتعدى حدود مجالها الاقتصادي المحصور ضمن تشييئ السلعة، الى ميدان أكثر رحابة، هو انتقال الترميز السلعي لواقع رأسمالي الى كل المظاهر اليومية المحيطة بوعي الفرد والجماعة.

القطعية Dogmatism

المصطلح مشتق من اللفظة اليونانية dogma بمعنى رأي أو قرار، ويعني الجمود المذهبي والوثوقية، وادعاء القدرة على المعرفة وامكان الوصول الى اليقين. ويعتبر مدخلا جامدا للتعرف على مشكلة معينة، بتجاهل ظروفها المكانية والزمانية، والاعتماد على العقائد الجاهزة، أي الموضوعات المجردة، المعزولة عن الحياة، والتي تؤخذ على أنها حقائق مطلقة لا يرقى اليها الشك، ومن ثم تعتبر أساسا كافيا لادانة أو رفض ما يناقضها .

والسمة المميزة للقطعية هي الايمان الأعمى بالنصوص، ومناهضة

الاجتهاد، والدفاع عن الموضوعات غير المبرهنة، وتقديم أفكار مقطوع بصحتها، وكأنها حقائق يقينية لا تنازع، ولذلك اعتبرت القطعية المذهب المقابل لمذهب الشك والفلسفة النقدية.

وقد سادت هذه النزعة في فلسفة العقليين ابان القرنين السابع والثامن عشر، ونحا نحوها التجريبيون الذين أكدوا امكان المعرفة عن طريق التجربة، ثم ضعفت اثر النقد العنيف الذي وجهه كانط اليها، ليستعمل اللفظ بعد ذلك للدلالة على التسليم دون تمحيص .

كارل بوير K. Popper

فيلسوف نمسوي، ولد بمدينة ڤيينا عام 1902 وتعلم بجامعتها، ليعمل مدرسا للفلسفة في جامعة نيوزيلاند بين عامي 1937 - 1945. بعدها اشتغل أستاذا للمنطق والمنهج العلمي بجامعة لندن ومدرسة لندن للاقتصاد، وحصل على حق المواطنة الانجليزية، ثم على لقب (سير) عام 1965.

ارتبط اسمه بجماعة ڤيينا من الوضعيين المنطقيين، رغم أنه لم يكن عضوا بها واختلف مع الكثيرين من أعضائها، الا أنه شارك الجماعة في اهتماماتها، وتوثقت صلاته بأغلب أعضائها.

نشر كتابه الأول (منطق الاكتشاف العلمي) عام 1935، ضمن السلسلة التي كانت تصدرها هذه الجماعة، وكان له تأثير كبير على كارناب. واشتهر بكتابه (المجتمع المفتوح وأعداؤه) عام 1945، و (فقر التفسير التاريخي) عام 1957، انتقد فيهما محاولة تفسير التاريخ بواسطة قوانين التطور، من مثل تنبؤ ماركس بحدوث ثورة اشتراكية في المجتمعات الرأسمالية الأكثر تطورا، لأن التطور لديه لا يخضع لقوانين صارمة، وأن المجتمعات وان كانت تقوم في تطورها على قوانين، فهي كقوانين الوراثة لا يمكن التنبؤ بها.

لا اختلاف في نظره بين جمهورية أفلاطون والدولة المطلقة عند هيجل والمجتمع اللاطبقي عند ماركس، فكلها لديه نماذج للدولة الشمولية التي تسعى لخنق الفرد.

كذلك اشتهر بهجومه الساخر على النزعة التاريخية التي عرفها بأنها النزعة

التي تظن بأن العلوم الاجتماعية تهدف الى التنبؤ التاريخي واكتشاف قوانين تاريخية تساعد على ضبط مسار التاريخ واتباع طريق عقلاني للأحداث. ويرى بوبر أن أتباع هذه النزعة قد ساووا بين العلوم المعتمدة على التعميم كالفيزياء والبيولوجيا والاجتماع، والتي تبحث عن قوانين كلية، وبين التاريخ الذي لا يمكن أن يكون علما كليا. اذ يعتقد بوبر بأن مسيرة التاريخ تتأثر بنمو المعرفة، وبأنه من غير الممكن التنبؤ بما سوف يسلكه هذا النمو في المستقبل. كما يذهب الى أن القول بوجود قوانين جامعة تحكم التطور التاريخي، يؤدي الى نشوء أيديولوجيات دكتاتورية كلية، وقد خطّأه في ذلك مفكرو فرانكفورت.

كارل جرينبرج K. Rnberg

أول مدير لمعهد البحوث الاجتماعية بجامعة فرانكفورت، في الفترة ما بين عامي 1923 - 1930. وقد تميزت ادارته للمعهد بكونها ادارة ذات طبيعة دكتاتورية، حيث أكد أنه لا يمكن الاقتناع بامكانية أن يشارك في ادارة المعهد أو انجاز دراساته أشخاص ذوي مداخل منهجية متباينة، الى جانب أنه لم تكن لديه قناعة بأهمية البعد السيكولوجي في التفسير.

عمل أستاذا للاقتصاد الاجتماعي في جامعة ڤينا، ومديرا لأرشيف تاريخ الاشتراكية و الحركة العمالية، وكانت له علاقة مع أصحاب الماركسية النمسوية، وبخاصة مع ماكس أدلر. غير أنه لا يجب البحث عن هويته في موقفه النظري، فهو يؤمن أساساً بالمسعى الاجتماعي الامبيريقي، الذي تقدم له المادية التاريخية مساعدة مميزة.

كماركس، كانت لديه قناعة أساسية، تتمثل في أن المجتمع المعاصر يشهد تحولا من الرأسمالية الى الاشتراكية، ومن ثم نجده من الناحية المنهجية يؤكد على التفسير المادي للتاريخ. فالظواهر الاجتماعية ليست لديه إلا انعكاسا للحياة الاقتصادية، وأن عمليات انتاج الحياة المادية هي التي تحدد عمليات الحياة العقلية والسياسية والاجتماعية.

ولهذا رسم المعهد أثناء ادارته له بالماركسية، كمنهج مفضل للعلم

الاجتماعي، وككفيل علمي للفكر التقدمي، وأقام تعاونا وثيقا بين المعهد وبين معهد ماركس وانجلز في موسكو، وهو ما جعله يركز على دراسة موضوعات بعينها، من مثل: المادية التاريخية والأساس الفلسفي للماركسية، والحركة العمالية والعالم الرأسمالي، وأعمال فيلكس ڤايل حول مشكلات الاقتصاد المخطط، وبولوك حول النظرية النقدية والتخطيط السوفيتي، وفيتفوجيل حول نمط الانتاج الآسيوي، وجروسمان حول الاقتصاد الماركسي، الى غير ذلك من الدراسات التي قدمت خلال فترة ادارته للمعهد.

كارل فيتفوجيل K. Wittfogel

ولد في مدينة ڤولتير ستدروف Voltaire - stdorf عام 1896، لأب يعمل مدرسا و يعتنق المذهب اللوثري، وانتمى الى الحركات الطلابية في الفترة السابقة على نشوب الحرب العالمية الأولى، وكان عضوا فعالا بالجناح اليساري الثوري لهذه الحركة. وبعد عامين، انضم الى الحزب الشيوعي الألماني، وكرّس جهده وطاقته للعمل الحزبي، برغم حدوث مشكلات بينه وبين قيادات الحزب الشيوعي في موسكو، بسبب اتهامه بالهرطقة في بعض مواقفه السياسية.

ورغم هذا الانشغال، استطاع أن يستكمل دراسته الجامعية في لايبزيج وبرلين وفرانكفورت، ونشر دراسات مهمة حول العلم والمجتمعات البورجوازية، قبل أن يتجه بشكل متخصص نحو دراسة المجتمعات الآسيوية. وفي عام 1922، طلب منه ڤايل وكيرلاخ الاسهام بجهوده الفكرية في معهد البحوث الاجتماعية، الا أنه لم يقبل العرض إلا بعد سنوات ثلاثة.

وقد قدّر أعضاء المعهد دراساته التي عمقت المفهوم الماركسي للمجتمعات الآسيوية، وان نظر اليها هوركايمر بأنها لا تتصف بالعمق. وقد أصدر في هذا الصدد كتابا مهما حول (الاقتصاد والمجتمع في الصين) عام 1931، ونشر كذلك عدة كتب ودراسات حول علم الجمال الماركسي، وكتب خلال العشرينات بعض المسرحيات.

على أن تأثيره النظري والفكري كان شاحبا، كما أن عضويته في الحزب

الشيوعي الألماني كانت مصدر ازعاج للباحثين في المعهد، ممن شاءوا أن يكون مستقلا عن التيارات السياسية، مع ايمانهم بحق وحرية انتماء الأعضاء الى التنظيمات اليسارية.

كارل كورش K. Korsch

فيلسوف ألماني، ولد عام 1886، مات عام 1961. شارك في الأسبوع الأول للأعمال الماركسية عام 1922، والذي تطور عنه معهد البحوث الاجتماعية بجامعة فرانكفورت، وسلك دروب الهجرة مع استيلاء هتلر على السلطة.

صاغ مبادئ أساسية للماركسية بوصفها علما اجتماعيا وموجِّها فكريا للصراع الطبقي، هي: الخصوصية التاريخية، والواقعية الملموسة، والتغير الثوري، والممارسة الثورية، مناقضا بها أطروحات لينين، التي رآها تستعين باعتبارات النفع السياسي المباشر وحدها، ومستشهدا في ذلك بنصوص ماركس الشاب.

ولديه فان الفلسفة الماركسية لا تتحقق إلا كنقد وصراع سياسي. اذْ ليس المطلوب من منهجها الجدلي أن يتحجر في صورة فلسفة دولة. فهذا المنهج هو في الأساس ممارسة تحويلية، وهو في هذا يرى الماركسية كفلسفة مادية هي بمثابة التعبير النظري عن البروليتاريا الثورية، كما كانت الفلسفة المثالية الألمانية تعبيرا نظريا عن البورجوازية الثورية.

اكتسب علم الاجتماع في كتاباته شهرة كبيرة، حيث مّيز طابع هذا العلم الذي أنشأه كونت وسبنسر كرد فعل معارض للاشتراكية. وصاغ مبادئ أساسية للماركسية كعلم اجتماعي، وكوسيلة عملية لنضال الطبقة العاملة، وان مّيز بين علم الاجتماع والنظرية الماركسية، انطلاقا من أن هذا العلم يعالج نسق العلاقات الاجتماعية كمجال مستقل في البحث، بينما تتناول الماركسية هذا النسق من وجهة نظر التحليل المسبق للاقتصاد، والى هذا الحد فان العلم المادي للمجتمع لدى ماركس لا يعد علم اجتماع، وانما هو اقتصاد سياسي. ورغم أعماله ذات المنظور الماركسي، فقد تخلى كورش فيما بعد عن الماركسية.

كارل مانهايم K. Mannheim

عالم اجتماع مجري. ولد عام 1893 في مدينة بودابست، وشارك في احدى حلقات المناقشة التي قام بها لوكاش في المدينة. وبعد أن حاز شهادة الدكتوراه من جامعتها، هاجر عام 1920 إلى ألمانيا، حيث خلف فرانز أوبنهايمر كأستاذ لعلم الاجتماع في جامعة فرانكفورت عام 1929، وهي السنة التي أنتج فيها كتابه المشهور (أيديولوجيا ويوتوبيا) الذي يعد أحد المصادر الرئيسية في اجتماعية المعرفة. وبعد صعود النازية في ألمانيا، تم عزله من عمله عام 1933 و فسافر الى لندن بدعوة من مجموعة من العلماء البريطانيين، حيث قام بالتدريس لمدة عشر سنوات بأحد المعاهد ثم بجامعتها، ليشغل بها طيلة سنوات الحرب العالمية الثانية منصب أستاذ علم اجتماع التربية، حتى توفى عام 1947.

الانجاز الرئيسي الذي حققه مانهايم، كان في مجال علم اجتماع المعرفة، رغم أنه كتب أيضا في المسائل السياسية، خصوصا في التخطيط الديموقراطي، وفي التعليم. ومن أعماله (الانسان والمجتمع) عام 1940، و (الحرية والسلطة والتخطيط الديمقراطي) وصدر بعد وفاته عام 1950، وتمثل أعماله في مجال علم اجتماع المعرفة مزيجا يعوزه التماسك من المذهب التاريخي الألماني والماركسية، كذلك فان آراءه السياسية قد تميزت بمحاولة مزج الديمقراطية الليبرالية بالتخطيط الاشتراكي، بما يوحي بأنها محاولة لايجاد صيغ التصالح بين الاتجاهات الليبرالية والراديكالية.

الكانطية الجديدة Neo - Kantianism

تعبير يستخدم للتعريف بحركات فلسفية ظهرت في ألمانيا أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، تحت شعار (العودة الى كانط)، بهدف بعث ومواصلة أفكاره، وان أخذت عليها معاودة تقديم وتطوير العناصر المثالية والميتافيزيقية في فلسفة كانط، متجاهلة عناصرها المادية والجدلية.

وتذهب الكانطية الجديدة الى أن الأخلاق والعلاقات الأخلاقية بين البشر تلعب الدور الأساسي في المجتمع. وقد وضع كوهن وناتورب وآخرون

نظرية (الاشتراكية الأخلاقية) التي تصور الاشتراكية مثالا أخلاقيا، تسير نحوه البشرية من خلال تهذيب الأخلاق. أما المضمون الأساسي لهذه النظرية، فهو تحريف الماركسية بواسطة الترويج للتعاون الطبقي ونفي ضرورة الثورة.

وقد انطوت الكانطية الجديدة على تيارات مختلفة، أبرزها مدرستين ألمانيتين:

مدرسة ماربورج لدى كوهن وناتورب وكاسيرر، ومدرسة فرايبورج أوبادن لدى فندلباند وريكرت. المدرسة الأولى تولى انتباها خاصا لتفسير مثالي للمفاهيم الموضوعية العلمية وللمقولات الفلسفية، معتبرة اياها بمثابة بنى منطقية. أما المدرسة الثانية، فقد ركزت انتباهها على تبرير التناقض بين العلوم الطبيعية والاجتماعية، انطلاقا من المبدأ الكانطي حول العقل العملي والعقل النظري، وعلى أساس السعي الى اظهار استحالة المعرفة العلمية للظواهر الاجتماعية.

الليبرالية Liberalism

رغم أن المصطلح لا يشير الى عقيدة واحدة، فانه بمثابة اتجاه في الفلسفة السياسية يقترن بفكرة الحرية، ولذا اشتق اسمه منها. وتعني الليبرالية مجموعة من الأفكار والقيم تدور حول الفرد والسلطة، وترمي نحو تحرير الفرد من كل القيود، وهو ما يوحي أنها ظهرت كرد فعل ضد كل تحكم وكل سلطة مطلقة، وأنها تستهدف القضاء على كل امتياز موروث يتعارض ومبدأ المساواة بين الأفراد.

ويرجع انتشار هذا المصطلح إلى تكوين حزب سياسي في أسبانيا، سمّي الحزب الليبرالي Liberals، واعتنق أعضاؤه الأعراف البريطانية التي هدفت الى تقييد سلطة الحاكم وكفالة حقوق الأفراد، وسعوا نحو عام 1810 الى تطبيقها في الحياة السياسية الأسبانية. بعدها شاع استخدام المصطلح في أوربا، وقصد به أعضاء النظام البرلماني ودعاة حرية الفكر المصطلح في أوربا، وقصد به أعضاء النظام البرلماني ودعاة حرية الفكر وحرية التجارة وحرية الملكية الخاصة.

وتضرب الليبرالية بجذورها الفكرية في أفكار لوك والمنوّرين الفرنسيين خاصة. وفي القرنين السابع والثامن عشر، كانت تمثل البرنامج الأيديولوجي للبورجوازية الفتية، التي كانت تناضل ضد بقايا الاقطاع وتلعب دورا تقدميا نسبيا، وكانت تدعو الى حماية مصالح الملكية الخاصة، وتوفير المنافسة الحرة والسوق الحرة، وترسيخ مبادئ الديموقراطية، واشاعة الحياة الدستورية، واقامة النظم الجمهورية. ومع دخول الرأسمالية طوْرها الامبريالي، راحت الليبرالية تدافع باضطراد عن تدخل الدولة الواسع في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وتنمو صوب النزعة الاصلاحية الاجتماعية.

ليو لوفنتال L. Lowenthal

عضو معهد البحوث الاجتماعية بجامعة فرانكفورت. ولد في نفس المدينة عام 1900 من عائلة بورجوازية مثقفة، ودرس بجامعتها ثم بجامعتي هايدلبرج وجيانسن، متخصصا في الأدب والفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع، وليحصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة عام 1923.

اتصل خلال دراسته الجامعية بالأوساط الثورية، وعقد أثناءها علاقة صداقة متينة مع اريك فروم.

ولم يسهم لوفنتال في حياة معهد البحوث الاجتماعية إلا اعتبارا من عام 1926، في الوقت الذي كان يواصل عمله بالتدريس في المدارس الثانوية، وكمستشار فني لمسرح الشعب.

قدم للمعهد جهودا علمية كثيرة، وبحوثا في علم اجتماع الأدب والثقافة الشعبية، وأضحى عضوا دائما فيه بدءا من عام 1930. ورغم مساهماته التي قدمها للمعهد، إلا أن تأثيره لا يعتبر فعالا على صعيد بناء وتطوير القواعد النظرية للفكر النقدي لمدرسة فرانكفورت، ومقارنة بالجهود الفلسفية لهوركايمر.

ماكس فيبر M. Weber

عالم اجتماع ألماني، يعتبر مع ماركس وديركايم من أصحاب التأثير الأبرز

في علم الاجتماع المعاصر. ولد في مدينة ايرفورت عام 1864، وعاش معظم حياته المبكرة في برلين، والتحق بجامعات هايدلبرج وبرلين وجوتنجن، وحصل على درجة الماجستير في موضوع شركات التجارة في العصور الوسطى، ودرجة الدكتوراه حول التاريخ الزراعي لروما القديمة.

عمل أستاذا للاقتصاد وللاجتماع بجامعات فرايبورج وهيدلبرج وميونخ، وكان يرفض أن يطلق عليه وصف (عالم اجتماع)، حتى مات عام 1920 اثر اصابته بانهيار عصبي.

له دور واضح في المناقشات التي تناولت فلسفة علم الاجتماع بألمانيا مطلع القرن الحالي، عبر مفاهيمه حول (الفعل التفسيري) و (النمط المثالي) و (الموضوعية)، ومثلت أعماله التي قيل عنها أنها كانت (تتحاور مع شبح ماركس) أساس معظم المداخل غير الماركسية في علم الاجتماع، مما عرضه لانتقادات مفكري مدرسة فرانكفورت، برغم احترامهم له.

الماركسية الأورثوذكسية Orthozox Marxism

تعني الاستناد الى الافتراضات الماركسية التقليدية المألوفة، مثل فكرة الحتمية التاريخية، ومقولة أولوية نمط الانتاج في تشكيل التاريخ الانساني، ودراسات الطبقة والصراع الطبقي.

ولدى مدرسة فرانكفورت، فان هذه الافتراضات تقود الى فهم مشوّه وزائف لواقع المجتمع الرأسمالي، وتؤدي الى اغفال مخلّ للدور الذي يجب أن يلعبه الانسان لتغيير هذا الواقع. فرغم أن الماركسية الأورثوذكسية قد طرحت كثيرا من الأفكار والمقولات المعقولة منطقيا، فانها لديهم قد أغفلت قيمة النقد الذاتي، ولم توفّر له موقعا مناسبا في نظامها الفكري. ولذا فشلت، كما اعتقد رجال فرانكفورت، في صوغ نظرية موائمة للوعي الانساني، لأنها استبعدت الذات الانسانية من حساباتها النظرية، وهو ما جعلهم يولون جلّ اهتمامهم للقضايا المرتبطة بتكوين هذه الذات وبنائها، وللدور الذي تلعبه كل من الأبعاد الثقافية المختلفة ومحاور الحياة اليومية المتباينة، بوصفها حلقات جديدة يتم بواسطتها وفي أثنائها السيطرة على الانسان.

من هنا يمكن النظر الى تأسيس معهد البحوث الاجتماعية، أو ما أطلق عليه بعد ذلك مدرسة فرانكفورت، باعتباره استجابة للحاجة التي شعر بها المثقفون اليساريون نحو اعادة تقييم النظرية الماركسية في ظل الظروف المستجدة. وبهذا شكّل المعنى قسمة مهمة من حركة فكرية شاملة، أصبحت تعرف فيما بعد باسم (الماركسية الغربية) Western Marxism، والتي تميزت من ناحية باعادة التفسيرات المتنوعة، ذات الطبيعة الفلسفية الهيجلية أساسا، للنظرية الماركسية في علاقتها بالمجتمعات الرأسمالية المتقدمة، الى جانب تميزها من ناحية أخرى بالنظرة النقدية المتزايدة لتطور المجتمع والدولة في الاتحاد السوفيتي.

المثالية Idealism

توجّه فلسفي مقابل للمادية، تعدّ فلسفة هيجل أكثر نماذجه شيوعا وتأثيرا اضافة الى ظاهراتية هوسيرل. أما في النظرية الاجتماعية، فقد أخذ استخدام المصطلح عن ماركس، ليطلق على النظريات التي تضخم من دور الأفكار في الحياة الاجتماعية.

ويؤكد هذا التوجه على المثال الذي ينبغي أن يكون، والذي يجب على الواقع أن يتغير ليتطابق معه، وينطلق من أولوية الروح، أو الوعي، ويقول بتعالي القيم والمثل في الحياة العملية، وبدور الذات التأسيسي في الفعل المعرفي، وينظر الى المادة على أنها شيء ثانوي، مشتق.

وتكمن جذور هذا التوجه في المبالغة بجوانب معينة من عملية المعرفة بالنظر الى تعقدها وتناقضها، وعندها يتم وضع مفاهيم مجردة، تعقل صفات الأشياء في صورة عامة، بمعزل عن الأشياء ذاتها. ومن الجذور المعرفية الأخرى، يأتي التفسير الخاطئ باعتبار كون أشياء العالم الموضوعي وعملياته تنعكس في الوعي على صورة ذاتية.

ويعود تاريخ استعمال كلمة (مثال) الى القرن السابع عشر، حيث كان الفلاسفة، وبالأخص ليبنتز، يستعملونها في مقابل كلمة (مادي). أما اليوم، فيغلب على التداول، ترادف مثالي وطوباوي ومقابلته بواقعي.

وهناك من يخطئ اعتبار هذا التوجه مرادفا للمحافظة أو الرجعية، مستشهدا بأن الفكر المثالي في أساسه فكر ثوري يميل الى النقد والى التطور. ويضرب أمثلة على ذلك هيجل الذي أكد على أن العالم يتطور بناء على تطور الأفكار، استنادا الى المنهج الجدلي. ومن الأسئلة الدالة أيضا، تلك الجوانب المثالية عند ڤيبر، التي أكد من خلالها على قدرة الأفكار والقيم في بناء نظام اجتماعي اقتصادي شامل، والسعي بعد ذلك الى تقييده والسيطرة عليه.

المدرسية Scholasticism

يشتق المصطلح من اللفظة اللاتينية scholasticus بمعنى مدرسي، ويشير الى الفلسفة السائدة في أيديولوجية المجتمع الاقطاعي بأوربا الغربية، والتي تم تدريسها في مدارس وجامعات القرون الوسطى، بدءا من القرن العاشر الى القرن السادس عشر، واعتمدت على تلخيصات وموسوعات تضم كافة المعارف.

وكان أصحاب هذه الفلسفة يرون في الدفاع عن المسيحية هدفهم الرئيسي، برغم أنها كانت تضم تيارات غير متجانسة فكريا، وان غلبت عليها كلها سمة المثالية، وارتكزت على أفكار الفلسفة اليونانية لدى أفلاطون وأرسطو تحديدا، والفلسفة العربية الاسلامية المؤوّلة بروح المسيحية لدى ابن سينا وابن رشد.

لعب دورا كبيرا في تشكيل هذه الفلسفة كل من: اريجينا، وروسيلين، وأبيلار، وأنسلم، ووجدت صياغتها المتكاملة في أعمال ألبرت الكبير وتوما الأكويني، ودونس سكوت.

وقد تمحورت اهتمامات المدرسيين حول مشكلة العلاقة بين الايمان والمعرفة، الدين والعقل، فنشبت بينهم خلافات حول امكانية اثبات العقائد الدينية عن طريق العقل، وأية موضوعات الايمان تبرهن منطقيا، وأيها يتعذر اثباته بالسبل المنطقية وكان ثمة اتجاهان أساسيان داخل المدرسية: الاسمية، والواقعية. وكان الارتباط الوثيق بالدين وراء ايغالها في التجريد، وابتعادها عن الحياة الواقعية، لدرجة أصبحت معها مرادفة للتنظير الجاف العقيم.

النقد Critique

يرتد أصل الكلمة الى اللفظة الاغريقية xpiviev وتعني الحكم، وهو نفس ما يعنيه تعريفها القاموس في لغات أوربا القديمة والوسيطة. وللكلمة مصطلحان في اللغة الانجليزية: الأول هو Criticism ويعني النقد بمعناه الشائع، أي الاستهجان والكشف عن الخطأ، كما يعني كذلك الفحص الدقيق غير المتحيز لمعنى شيء ما، ولمضمونه، ولقيمته. أما المصطلح الثاني فهو Critique ، ويطلق على النقد المستند الى أسس منهجية واضحة المعالم.

ويعني النقد فعالية نظرية وأداة اجرائية رئيسية في النظر والتفكير، تستهدف مساءلة الطرق التي تتكون بها القناعات، باظهار زيفها ونقصها وتجريحها، وهي فعالية بنى عليها كانط مشروعه النظري والفلسفي الذي أسس للاتجاه النقدي في الفلسفة الغربية، ورآها هيجل كسلب جدلي يتجاوز الموجود دائما، وبعدهما ظلت هذه الفعالية مستمرة من خلال صيغ نظرية وعملية مختلفة.

ولدى مدرسة فرانكفورت، يتحدد هذا المصطلح في مشروعاتها النقدية الكبرى: نقد النظام الهيجلي، ونقد الاقتصاد السياسي، والنقد الجدلي وهو ما يعني انطلاقه لدى مفكري هذه المدرسة لتشخيص مشروعهم الهادف الى اقامة نظرية اجتماعية، تستمد مصادرها من الماركسية والتحليل النفسي والبحوث السوسيولوجية الامبيريقية.

فالنقد الذي أفرزه عصر التنوير هو اتجاه تأسيسي كوّن أرضيته الفلسفية دون اكتساب امتداده الاجتماعي، والنقد عند هيجل اكتسب بنيته الجدلية، وعبر ماركس بعده الجدلي الاجتماعي، ثم عبر مفكري مدرسة فرانكفورت شمولية المنظور النقدي، بواسطة اعادة تكوين الوعي النافي لواقع حالّ، أي محتويا لمفهوم السلب في محور حركيته المنصبّة في صراع المتناقضات، وان لم يعن أن السلب يتخذ لديهم مضمونا ودلالة سلبيين، بل يغدو ما هو سالب في الفكر ايجابيا في توظيفه النقْضي للواقع.

النظرية النقدية Critical Theory

العبارة مأخوذة أصلا من عنوان كتاب لهوركايمر، لتشير الى ذلك الركام النظري الذي خلفه أعلام مدرسة فرانكفورت، وتلخص تطلعاتها، وتشكل برنامجها الفكري عند بداية نشأتها.

وقد ظهر هذا المصطلح تحديدا عندما نشر هوركايمر عام 1937 دراسته حول (النظرية التقليدية والنظرية النقدية)، والتي تعدّ الوثيقة الأساسية في توضيح التوجه الفكري لهذه النظرية، حيث النظرية التقليدية لديه هي ما تعبر عنه الاتجاهات الوضعية في نظرتها للنشاط البشري على أنه شيء أو موضوع خارجي داخل اطار من الحتمية الميكانيكية، على حين ترفض النظرية النقدية النظر الى الوقائع الاجتماعية على أنها أشياء، ومن ثم ترفض طابع الحياد الذي تتسم به الوضعية، وتحاول في المقابل أن تطرح فكرا لا يفصل بين النظرية والممارسة.

وقد فهم هوركايمر، ومعه فلاسفة فراكفورت، الماركسية على أنها العلم النقدي للمجتمع، وأن مهمة الفلسفة بالتالي متابعة العملية النقدية والتحرّي عن أشكال الاغتراب الجديدة. وقد أخذت مساهمته الخاصة شكل تحليل نقدي للعقل. فلئن يكن العقل قد صاغ في الماضي مُثل العدالة والحرية والديمقراطية، فان هذه المثل حلّ بها الفساد في ظل هيمنة البورجوازية التي أدت الى تحلل حقيقي للعقل. ومن هنا بدت الحاجة إلى نظرية نقدية جدلية تستطيع أن تتعقل اغتراب العقل بالذات.

وترمي النظرية النقدية عند هوركايمر الى تحقيق مهام ثلاث: أولها، الكشف في كل نظرية عن المصلحة الاجتماعية التي ولّدتها وحددتها، وهنا يتوجه هوركايمر، كما فعل ماركس، الى تحقيق الانفصال عن المثالية الألمانية ومناقشتها على ضوء المصالح الاجتماعية التي أنتجتها.

والمهمة الثانية للنظرية النقدية عنده، هي أن تظل هذه النظرية على وعي بكونها لا تمثل مذهبا خارج التطور الاجتماعي التاريخي. فهي لا تطرح نفسها باعتبارها مبدأً اطلاقيا، أو أنها تعكس أي مبدأ اطلاقي خارج صيرورة

الواقع. والمقياس الوحيد الذي تلتزم به هو كونها تعكس مصلحة الأغلبية الاجتماعية في تنظيم علاقات الانتاج بما يحقق تطابق العقل مع الواقع، وتطابق مصلحة الفرد مع مصلحة الجماعة.

أما المهمة الثالثة، فهي التصدي لمختلف الأشكال اللامعقولة التي حاولت المصالح الطبقية السائدة أن تلبسها للعقل وأن تؤسس اليقين بها على اعتبار أنها هي التي تجسد العقل، في حين أن هذه الأشكال من العقلانية المزيفة ليست سوى أدوات لاستخدام العقل في تدعيم النظم الاجتماعية القائمة، وهو ما دعاه هوركايمر بالعقل الأداتي.

وتؤكد النظرية النقدية على انتسابها الى الماركسية، دون أن تضيع الاختلاف مع قراءاتها الكلاسيكية، وبخاصة تلك التفسيرات والأطروحات التي قدمها رواد ومنظّرو الأممية الثانية والثالثة، وعلى رفضها الاختيار بين التماثل المتناقض مع الفلسفة والعلم، بادعاء أن ما قدمته هو شكل جديد للموضوعية الاجتماعية التاريخية، وهو ما جعلها في تعارض مع الميتافيزيقية والوضعية.

وقد أخفقت مدرسة فرانكفورت في الالتزام بالطريقة القاطعة التي اقترحها هوركايمر للنظرية النقدية. مثال ذلك أن ماركيوز قد تحول خلال الستينيات الى ناقد لهذه النظرية، حين ذكر أنها لا تمتلك المفاهيم والأدوات التصورية القادرة على سدّ الفجوة بين الحاضر والمستقبل.

نمط الانتاج الآسيوي Asiatic Mode Production

وردت اشارات حول النظام الآسيوي ووجهه السياسي (الاستبداد الشرقي) في كتابات رحّالة ومفكرين ومؤرخين واثنوجرافيين أوربيين منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر، إبان تصاعد الرأسمالية التجارية في انجلترا وفرنسا وانتشار نفوذهما في الشرق والصراع معه، وما أعقبه من ازدياد اهتمام مفكريها بأحواله، مما أسفر عن التوصل الى صوغ سمات خاصة بحضارات الشرق، وخاصة الهند ومصر والصين، وهي اعتمادها على الري بالأنهار، مع ما يترتب على ذلك من معطيات اقتصادية وفكرية وسياسية

واجتماعية، صبغت هذه الحضارات بما أطلقوا عليه الحضارات المائية أو النهرية.

وقد استفاد بعض المفكرين والاقتصاديين البريطانيين (آدم سميث، جيمس ميل، ريتشارد جونز. . .) من هذه الأفكار، ليقوموا بملاحظات ومقارنات بين أوضاع بعض الدول الشرقية، وخاصة الهند، وبين الدول الأوربية، ليصلوا الى ما دعوه بالمجتمع الآسيوي أو الاقطاع الشرقي أو الاستبداد الشرقي.

ورغم أن هذه المسألة قد نالت حّيزا ضيقا نسبيا ضمن مجمل أفكار ماركس وانجلز، ومع عدم اطلاعهما الكافي على التاريخ الاقتصادي الاجتماعي لهذه البلدان، باستثناء الصين والهند، فانهما أفادا من هذه الأفكار حين انشغلا مع مطلع خمسينيات القرن التاسع عشر بدراسة قضايا ومشكلات عدد من هذه البلدان، اثر الموجات الأولى من التوسع الاستعماري الأوربي في آسيا وافريقيا، فقدما لمفهوم (نمط الانتاج الآسيوي) كاحدى التكوينات الاقتصادية الاجتماعية السابقة على نمط الانتاج الرأسمالي، وجاءت أفكارهما على شكل فرضيات وتعميمات نظرية لم يرفداها بالتفاصيل، وان أشارا الى مجتمعات هذا النمط على أنها تتميز بوجود نظام مائي قائم على الري الاصطناعي، وما يترتب عليه من ضرورة وجود دولة مركزية قادرة على تنظيمه، وغياب الملكية الخاصة للأرض التي تصبح ملكا للدولة كي تستطيع القيام بمهمتها في توزيع المياه، ووجود تجمعات فردية متماثلة ومنعزلة ومنتظمة حول القبيلة ونظام القرابة، وسيادة العبودية المعّممة على علاقات الانتاج في هذه التجمعات، نتيجة تبعية الجماهير ككل للدولة المالكة المركزية المستبدة.

والملاحظ أن فيتفوَجل قدّم في بدايات انشاء معهد البحوث الاجتماعية بفرانكفورت، دراسة حول (الاقتصاد والمجتمع في الصين) عام 1931، عمّقت المنظور الماركسي للمجتمعات الآسيوية، وان رأى أن الأبعاد الثقافية للمجتمع لا تتحدد فقط من خلال العملية الانتاجية السائدة، ولكن أيضا بالمدى الزمن الذي كان هذا النمط الانتاجي يعمل من خلاله.

النهضة Renaissance

حركة ثقافية بدأت في ايطاليا منتصف القرن الرابع عشر واستمرت حتى القرن السابع عشر، وامتدت الى بقية أوربا.

والبعض وخاصة من اللاهوتيين لا تعجبهم تسمية النهضة، لأنها تعني أن العصر الذي سبق عصر النهضة، والمسمى بالعصور الوسطى، كان عهد تخلف قياسا الى ما تلاه. ولذلك يؤثر عدد من المفكرين تسمية (الإحياء)، لأن الحركة كانت في الواقع احياء للتراث الاغريقي، وتمثل ذلك في احياء الفلسفة الطبيعية والعلم الطبيعي، فترجمت مؤلفاته لوكريتيوس، وأعيدت قراءة أرسطو بمنهج جديد، وباشر بيكون تطبيق منطق أرسطو ومنهجه، وقدم كوبرنيكوس ثورته الفلكية فيما سمّي بنظرية مركزية الشمس، وأقامها على أفكار وجدها عند فيثاغورس، وكانت نظريته أهم اسهامات عصر النهضة. تلى ذلك تطورات مستحدثة في الرياضيات، وترجمة أفلاطون، وظهور الدراسات الانسانية من بلاغة وشعر ونحو خطابة، ونمو حركة التجارة والرحلات البحرية، وتدعيم الاحساس بالفردية والقومية.

وقد كان وراء انبثاق هذه الحركة عوامل متآزرة، يقف على رأسها أفول الحضارة العربية، وبداية بزوغ المغامرة الحضارية التي قادتها أوربا، وتمثلت في تزعزع الاقطاع، وظهور الاختراعات والاكتشافات الجديدة، وبروز حركة الاصلاح الديني والنزعة الانسانية، وحركة الاكتشافات العلمية.

هنريش جروسمان H. Grossman

من الشخصيات العلمية التي طبعت معهد البحوث الاجتماعية ببصماتها الأكاديمية، نتيجة للسنوات الطويلة التي قضاها كباحث فيه بين عامي 1924-1926.

درس الاقتصاد قبل الحرب العالمية الأولى في كراكوڤيا وڤيينا، حيث كان تلميذا لباروك، وعمل في بولندا في وظيفة احصائي وكان مسؤولاً عن تعداد عام 1921، ثم أصبح أستاذا للاقتصاد في وارسو بين عامي 1922-1925. وفي العام التالي، أدخله جرينبرج كعضو في معهد البحوث الاجتماعية،

باعتباره باحثا على ثقافة اقتصادية وتاريخية واسعة، علاوة على المامه العميق بالفلسفة وعلم الاجتماع والسياسة، وكذلك بسبب اخلاصه للمنهج الماركسي والاتجاه السوفيتي.

هو من أصل نمسوي، ينتمي الى عائلة ذات ثراء واسع ومالكة لعدد من المناجم. عمل في المعهد بتوصية من صديقه جرينبرج الذي استدعاه من فيينا.

كان لديه اتجاه ماركسي أورثوذكسي واضح، مما جعله في خلاف جذري مع الاتجاه الماركسي الذي تبنّاه الجيل الجديد من باحثي المعهد، بل وحتى المنتمين الى الحزب الشيوعي مثل بوركيناو. تخصص داخل المعهد في الاقتصادي، حيث قدم بحوثا مهمة تتعلق بتعميق القضايا الاقتصادية في الماركسية، لكن بحوثه اصطدمت بأفكار الاقتصادي الثاني للمعهد فردريك بولوك، الذي لم يتفق معه حول طبيعة فهم هذه القضايا، وبقي الخلاف الفكري بينهما قائما طيلة السنوات التي عمل خلالها جروسمان في المعهد.

الهيجليون الشبان Young Hegelians

هم مفكرو الليبرالية الألمانية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر، وممثلوا الجناح المتطرف لمدرسة هيجل الفلسفية من أشهرهم: ديفيد شتراوس، وماكس شتيرنر، وموسى هيس، وادجارب باور، وميخائيل باكونين، وأنسلم فيورباخ، وبرونو باور، وتيودور فيشر، وريتشارد فاجنر وغيرهم، وكان خلافهم مع الهيجليين الكبار يقوم على اعادة تفسير فلسفة هيجل اجمالا، وبخاصة نظرتها الى الدين، حيث رأى الهيجليون الكبار أنها تتفق مع المسيحية كدين، بينما رأوها لا تتفق مع اللاهوت المسيحي، وهو أمر يرجع إلى انتقادهم الدين واعتباره شكلا زائفا من أشكال الوعي.

تركز اهتمامهم على مسألة كيفية ظهور المفاهيم الزائفة للمجتمع، وكيفية اكتساب هذه المفاهيم قوة القهر. وقد فسر شتراوس هذا بالاصرار على نقد الآراء الدينية، فيما ركز برونو باور مصدر هذه الظاهرة في اغتراب وعي الفرد بذاته.

انضم الى هذه الحركة ماركس وانجلز بداية الأربعينيات، ثم انفصلا عنها حين توصلا الى فهم جديد للتطور الاجتماعي هو نظرية المادية التاريخية.

تبدو السمة المميزة لهم في صوغ الشعارات الثورية، التي لم تكن تتضمن سوى تهديدات للطبقات الحاكمة التي كانت تحاول وقف التطور البورجوازي في ألمانيا.

وكانوا يعتبرون الجماهير عدوّ الروح والتقدم، وعندهم أن الفرد ذي التفكير النقدي هو القوة الدافعة للتاريخ.

لم يكونوا مجموعة متجانسة، بل كان الخلاف بينهم حادا وعنيفا، يبدأ من مجال التخصص المعرفي، حيث اهتم شتراوس بالتاريخ، وفيورباخ بالدين، وشبيتزر بالنقد الخالص، وفيشر بعلم الجمال، اضافة الى الخلاف في التصور الميتافيزيقي العام حول مسألتين: ذاتية النقد أو موضوعيته، والموقف النهائي من المثالية والمادية.

وقد عبرّوا عن وجهات نظرهم في عدد من الدوريات، أهمها: حوليات هال Hallische Jahvucher عام 1838، والجريدة الرينانية Kheinishetung zeعام 1841، الى جانب تأسيسهم لناد ثقافي عام 1842.

وكان عام 1848 حاسما في إنهاء حركتهم، حيث كان هو عام الثورة في أوربا، وعام الردّة أيضا، حين انتهى بسيطرة النظم الرجعية على كل أوربا.

النزعة العلمية المفْرطة Scientism

نزعة ترى بأن العلم قادر على معرفة كل الظواهر، وعلى وضع حلّ لكافة المشكلات الواقعية، وتهدف الى جعل العلم بمفهومه الامبيريقي هو الشكل الوحيد والمطلق للمعرفة.

وتعني هذه النزعة لدى هابرماس، الاستخدام المزدوج للعلم كوسيلة، عبر التطور التقني لوسائل الاتصال في الوصول الى الجمهور، بمضاعفة الحافز الذهني نحو الايمان بالعلم كنزعة نهائية، وبوساطة وسائل علمية، لتأمين هدف نهائي هو ابقاء الهيمنة الرسمية والفكر الرسمي للدولة وللمؤسسات، باعتباره نتاجا علميا يواكب نتائج الحضارة العلمية المزدهرة صناعيا.

الوضعية Positivism

تيار مثالي أدخل مصطلحة أوجست كونت، ولقي انتشارا في الفلسفة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. يفتقر البحث خلاله الى النظرية التي توجه نتائجه وهدفه، ومن ثم ينكر أن الفلسفة نظرة شاملة للعالم، ويرفض مشكلاتها التقليدية، من مثل علاقة الوعي بالوجود، باعتبارها ميتافيزيقية وغير قابلة للتحقق من صحتها امبيريقيا.

وأحد المبادئ الأساسية لمناهج البحث الوضعية للعلم هي النزعة الظاهراتية المتطرفة، التي تذهب الى أن مهمة العلم هي الوصف الخالص للوقائع وليس تفسيرها، وادعاء الحياد وعدم التحيز، اضافة الى وضع العلوم الاجتماعية على نفس مستوى العلوم الطبيعية في أساسها، واعتبارها تهدف الى صوغ قوانين علية عامة، وتقيم ادعاءاتها على المعرفة الصادقة وعلى تحليل الواقع الامبيريقي، وليس على الحدس الفلسفي. ولهذا تؤكد الوضعية على وحدة المنهج العلمي، وتضع تمييزا حادا بين القضايا العلمية وأحكام القيمة.

اتخذ أصحاب مدرسة فرانكفورت موقفا مناهضا لها، فانتقدها أدورنو لعجزها عن اكتشاف المصلحة الذاتية التي قد تسهم في تحقيق تقدم موضوعي، بسبب القصور الكامن في أسسها المنهجية، وفشلها في اقامة صلة قوية بين المعرفة من ناحية والعمليات الاجتماعية الحقيقية من ناحية اخرى. لذلك انتقدها هابرماس بسبب طبيعتها المحافظة، وقصورها عن فهم العلاقة الخاصة بين علم الاجتماع والتاريخ، انطلاقا من أن علم الاجتماع الوضعي لا يأخذ في اعتباره دور التحولات التاريخية في تشكيل المجتمعات.

وبشكل عام، هاجم مفكرو فرانكفورت سعي الوضعية الى تحقيق المعرفة العلمية وتكميم الحقائق، بما يؤدي الى ضياع المعنى الجوهري للظواهر الاجتماعية. وأنه ارتباطا بذلك، فقد أدى تمثل الوضعية لنموذج العلم الطبيعي في علم الاجتماع الى فصل المعرفة عن بعدها الأخلاقي، وهو ما يعني استبعاد الموقف الأخلاقي للباحث، عن طريق الادعاء بأن علم الاجتماع هو علم متحرر من القيمة، وهو ما يعني أيضا أن هذا العلم يمكن أن يكون أداتيا بالنسبة للقوى الاجتماعية المتسلطة، أو هو وسيلة للتحكم

والهيمنة كما حدث في الرأسمالية المتقدمة.

اضافة الى ذلك، يرى مفكرو فرانكفورت أن التراث الوضعي يميل للنظر الى البشر باعتبارهم كائنات لا قوة لها في مواجهة المجتمع، وهو ما يتضح لدى ديركايم الذي يؤكد أن الفرد يجد نفسه في مواجهة المجتمع كقوة أسمى منه عليه أن ينحني أمامها، أو ما يؤكد عليه ماكس ڤيبر حين يرى أن الفرد في المجتمعات البيروقراطية، رأسمالية أم اشتراكية، ليس إلا ترساً في آلة كبيرة.

وفي مواجهة ذلك، ترى النظرية النقدية أن ذلك ناتج عن العمق الداخلي للانسان، ومن ثم تؤكد هذه النظرية على العلاقة الجدلية بين الفرد والمجتمع، كذوات مستقلة غير خاضعة، تعكس جوانب الحقيقة الكلية.

الملحق الثالث

قراءات مقترحة

حظيت مدرسة فرانكفورت بتأييد حماسي، وتعرضت بالمثل لهجوم شديد. ويظل أهم مرجعين من الكتابات المتعاطفة معها للغاية هما:

- Jay , M. : The Dialectical Imagination - A History of the frankfurt school and the Institute of Social Research (1923 - 1950) , Little , Brown and Company Boston , 1973.
- Held , D. : Introduction to Critical theory - Horkheimer to Habermas , Hutchinson , London , 1980.

أما أكثر الانتقادات التي وجهت اليها، فيمكن العثور عليها في:

- Kolakowski , L. : Main Currents of Marxism, Oxford University Press , Oxford , 1978 , Vol. 3, Chapters x and XI.
- Tar , Z. : The Frankfurt School - The Critical Theories of Max Horkheimer and Theodor W. Adorno , Wiley and Sons , N.Y. , 1977.
- Lichtheim , G. : «From Marx to Hegel» in (From Marx to Hegel and Other Essays , Orbach and chambers , London , 1971.

كذلك وجهت الى المدرسة انتقادات جاءت بشكل مختصر، كجزء من نقد عام الى الماركسية الغربية في:

Anderson , P. : Considerations on Western Marxism , New Left Books , London , 1976.

وقد جرت مناقشة أعمال بعض أعضاء المدرسة، إما بمسحة من التعاطف أو من النقد. فيما يتعلق بأعمال أدورنو، أنظر:

Buck - Morss , S. : The Origin of Negative Dialects- Theodor W. Adorno , Walter Benjamin and the Frankfurt Institute , Harvester Press , Brighton , 1977.

- Rose , G. : The Melancholy Science - An Introduction to the Thought of Theodor W. Adorno , Macmillan , London , 1978.

وكلا الكاتبين السابقين متعاطف عموما مع أدورنو، ويجب مقارنتهما بالتقويم النقدي الحاد الذي وضعه كولاكوفسكي المشار اليه سابقا.

أما ماركيوز، فقد تعرضت أعماله لمناقشة نقدية حادة في:

Mac Intyre , A. : Marcuse , Fontana and Collins , London , 1970.

وهناك دراسة مهمة حول فكر هابرماس. أنظر:

- McCarthy , Th. : The Critical Theory of Jrgen Habermas , MIT Press , Cambridge and Mass., 1978.

- Keat , R. : The Politics of Social Theory - Habermas , Freud and the Critique of Positivism , Blackwell , Oxford , 1981.

وقد أشرنا في الملحق الأول (تراجم الأعلام) الى الكتابات الرئيسية لأعضاء مدرسة فرانكفورت البارزين. إلا أنه توجد أيضا بعض المجموعات المفيدة لمقتطفات من كتاباتهم، مصحوبة بتعليقات وتقويمات. أنظر بخاصة:

- Arato , A. and E. Gebhardt (eds) : The Essential Frankfurt School Reader , Urizen Books , N.Y. , 1978.

- Connerton , P. (ed.) : Critical Sociology - Selected Readings , Penguin Books , Harmondsworth , 1976.

ولمزيد من القراءات الاضافية باللغة الفرنسية عن مدرسة فرانكفورت أنظر:

- Zima , P. : L'école de Frankfort - Dialectique de la Particulaire , Citoyen , Paris , 1974.

- Vincent , Jean- Marie : La Théorie Critique de l'école de Frankfort , Galilée , Paris , 1976.

- Jay , M. : L'Imagination Dialectique - Histoire de l'école de Frankfort et de l'Institut de Recherches Sociales (1923 - 1950), Traduit de l'Amrican par Mareno , E. et A- Spiquel , Payot , Paris , 1977.

وهناك بعض الكتابات العربية التي عرضت لهذه المدرسة أنظر:

- السيد الحسيني: "النظرية النقدية - مدرسة فرانكفورت" في (نحو نظرية اجتماعية نقدية)، سلسلة علم الاجتماع المعاصر، الكتاب الحادي والخمسون، مطابع سجل العرب، القاهرة، 1982، ص ص 243 - 270.
- ابراهيم الحيدري: "النظرية النقدية وديالكتيك عصر التنوير" في (دفاتر العلوم الاجتماعية)، الجزء الأول، من مطبوعات معهد علم الاجتماع، جامعة عنابة، الجزائر، 1983.
- كمال نجيب: "النظرية النقدية والبحث التربوي" في مجلة (التربية المعاصرة)، العدد الرابع، يناير 1986، رابطة التربية الحديثة، القاهرة ص ص 71 - 139.
- نعمة عبد الكريم أحمد: دراسة نقدية للمفاهيم الأساسية عند ايريك فروم، رسالة دكتوراه لم تنشر، جامعة عين شمس، كلية الآداب، 1986.
- علاء طاهر: مدرسة فرانكفورت، منشورات مركز الانماء القومي، بيروت، 1987.
- عادل الهواري: "مدرسة فرانكفورت - نقد النظرية ونقد الواقع" في (النظرية المعاصرة لعلم الاجتماع)، عبد الباسط عبد المعطي وعادل الهواري، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1986، ص ص 353-297.
- محمد حافظ دياب: "مدرسة فرانكفورت - جدلية الوحدة والتنوع" في مجلة (المنار)، العدد (17)، فبراير 1988، القاهرة، ص ص 111-134.
- زكي عبد المجيد: النظرية الاجتماعية لدى مدرسة فرانكفورت، رسالة دكتوراه لم تنشر، جامعة عين شمس، كلية الآداب، قسم الاجتماع، القاهرة 1995.

وينوّه في هذا الصدد ببعض من الترجمات. أنظر:

- ماكس هوركايمر وتيودور أدورنو: "الحضارة والمدينة" من (دروس أولية

في علم الاجتماع - مساهمات مدرسة فرانكفورت)، ترجمة عن الألمانية وتعليق ابراهيم الحيدري، في (أطروحات في النظرية الاجتماعية والمجتمع)، من مطبوعات معهد علم الاجتماع، جامعة عنابة، الجزائر، 1983، ص ص 11-37.

- ماكس هوركايمر وثيودور أدورنو: "رؤية نقدية لمفهوم علم الاجتماع" من (دروس أولية في علم الاجتماع - مساهمات مدرسة فرانكفورت)، ترجمه عن الألمانية لابراهيم الحيدري، في (أطروحات في النظرية الاجتماعية والمجتمع)، من مطبوعات معهد علم الاجتماع، جامعة عنابة، الجزائر، 1984، ص ص 9- 25.
- جون/ماري فانسون: "مقدمة النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت"، ترجمة عن الفرنسية لجلال عبد الرزاق، في (أطروحات في النظرية الاجتماعية والمجتمع)، من مطبوعات معهد علم الاجتماع، جامعة عنابة، الجزائر، 1984، ص ص 27- 43.
- هربرت ماركيوز: "ملاحظات حول تحديد جديد للثقافة"، ترجمة بسّام بركة، في مجلة (الفكر العربي المعاصر)، العدد (29)، ديسمبر 1983ويناير 1984، مركز الانماء القومي، بيروت، ص ص 113-120.
- ماكس هوركايمر: "الطوبى وبورجوازية التاريخ"، اعداد خليل أحمد خليل، في مجلة (الفكر العربي المعاصر)، العدد (37)، ديسمبر 1985ويناير 1986، مركز الانماء القومي، بيروت، ص ص 58-64.
- يورغين هابرماس: "الحداثة: مشروع ناقص"، ترجمه بسام بركة، في مجلة (الفكر العربي المعاصر)، العدد (39)، مايو - يونيه 1986، مركز الانماء القومي، بيروت، ص ص 42- 49.
- يورغين هابرماز: "العلاقة بالعالم ومظاهر عقلانية الفعل في أربعة مفاهيم سوسيولوجية للفعل"، ترجمة جورج أبي صالح، في مجلة (الفكر العربي المعاصر)، العدد (46)، صيف، 1987، مركز الانماء القومي، بيروت، ص ص 18- 31.
- اريك فروم: "أسطورة أوديب"، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، في مجلة

(الفكر العربي المعاصر)، العدد 51-50، مارس - ابريل 1988 ، مركز الانماء القومي، بيروت، ص ص 65-75.

- يورغين هابرماز: "حول نظرية المعرفة عند نيتشة"، ترجمة جزيلا ڤالور حجار، في مجلة (الفكر العربي المعاصر)، العدد 59- 58، نوفمبر - ديسمبر 1988 ، مركز الانماء القومي، بيروت، ص ص 74- 84.
- جاك ووديس: نظريات حديثة حول الثورة، ترجمة محمد مستجير مصطفى، دار الفارابي، بيروت، 1978.

الملحق الرابع

ثبت المصطلحات

انجليزي - عربي

- A -

علم الجمال	Aesthetics
الاغتراب	Alienation
التحليل	Analysis
الاستباق	Anticipation
التحليل القبْلي	A prior Analysis
الملاءمة	Appropriateness
الخطاب السجالي	Argumentative Discourse
الفــن	Art
نمط الانتاج الآسيوي	Asiatic Mode of Production
التمثل	Assimilation
الشخصية الاستبدادية	Authoritarian Personality
الماركسية النمسوية	Austro - Marxism

- B -

البيروقراطية	Bureaucracy

- C -

رأس المال	Capital
الرأسمالية	Capitalism
الطبقة	Class
الفعل الاتصالي	Communicative Action
العقل الاتصالي	Communicational Reason
الشيوعية	Communism
الصراع	Conflict
التطابق	Conformism
الوعي	Consciousness
الثقافة المضادة	Counter Culture
التناقض	Contradiction
البيان الشيوعي	Communist Manifeste

Crisis — الأزمة
Corporation — التدامج
Critical Theory — النظرية النقدية
Critic — النقد
Criticism — المذهب النقدي
Critique — النقد المنهجي
Culture Industry — صناعة الثقافة

- D -

Democracy — الديموقراطية
Democratization — المقرْطة
Dialectical Imagination — الخيال الجدلي
Dialectic of Enlightenment — جدل التنوير
Dialectics — الجدل
Dogmatism — القطعية، الوثوقية

- E -

Economics — علم الاقتصاد
Economism — النزعة الاقتصادية المفرطة
Empirical Sociolgy — علم الاجتماع الامبيريقي
Elimination — الاستبعاد
Emancipatory — المصلحة التحررية
Empiticism — الامبيريقية
Enlightenment — التنوير
Epistemology — الابستمولوجيا
Eros And Civilization — الحب والحضارة
Evolutionism — التطورية
Existentialism — الوجودية
Explanation — التفسير

- F -

Fascism — الفاشية
Fetishism — الصنمية
Freudism — الفرويدية
Functionalism — الوظيفية

- G -

Genetic Structuralism — البنيوية التكوينية
Generation Gap — الفجوة بين الأجيال
Gestaltism — الجشطالية

- H -

Hermeneutics — التأويل
Hermeneutic pre - Understanding — الفهم التأويلي المسْبق
Historism — التناول التاريخي
Historical Materialism — المادية التاريخية
History — التاريخ
Hominids — أشباه البشر
Ideology — الأيديولوجيا

- I -

Idealism — المثالية
Identity Thinking — الفكر المتمحور حول الهوية

Imperialism	الامبريالية
Impersonal Forces	القوى اللاشخصانية
Individual	الفرد
Industrial Society	المجتمع الصناعي
Intellectualization	العقلنة
Intellectuals	الهجرة الثقافية
Intellectual Migration	المثقفون
Industrialization	الصناعية
Instrumental Mind	العقل الأداتي
Inequality	اللامساواة
Interest	المصلحة
Irrationalism	اللاعقلانية
Infrastructure	البنية التحتية

- L -

Labour	العمل
Language	اللغة المعَينة
Legitimation Crisis	أزمة الشرعية
Liberalism	الليبرالية
Logical Positivism	الوضعية المنطقية

- M -

Man	الانسان
Mandarins	الصفوة المثقفة
Maoism	الماوية (نسبة الى ماو تسي تونج)
Marxisant	مدّعي الماركسية
Marxism	الماركسية
Mass Society	المجتمع الجماهيري
Mass Culture	الثقافة الجماهيرية
Metaphysics	الميتافيزيقيا
Meta Theoritical	مابعد النظري
Methodology	المنهجية
Methods	مناهج البحث
Mode of Production	نمط الانتاج
Monoply Capitalism	الرأسمالية الاحتكارية
Motivation Crisis	أزمة الدافعية

- N -

Nation	الأمـة
National Socialism	الاشتراكية الوطنية
Negative Dialects	الجدل السلبي
Neo - Kantianism	الكانطية الجديدة
New Left	اليسار الجديد
Negation	النفـي
Notion	التصـور

- O -

One - Dimensional Man	انسان البعد الواحد
Orthozox Marxism	الماركسية الأورثوذكسية
Organized Capitalism	الرأسمالية التنظيمية

Ruling Class	الطبقة الحاكمة

- S -

Scientific Politics	السياسة العلمية
Scientism	النزعة العلمية المفرطة
Scientization	الصبغة العلمية
Scientific Self - understanding	الفهم الذاتي العلمي
Scholasticism	الفلسفة المدرسية
Sexuality	الجنسانية
Social Movements	الحركات الاجتماعية
Socialism	الاشتراكية
Social Psychology	علم النفس الاجتماعي
Social Philosophy	الفلسفة الاجتماعية
Social Criticism	النقد الاجتماعي
Social Theory	النظرية الاجتماعية
Social Revolution	الثورة الاجتماعية
Socialization	التنشئة الاجتماعية
Soviet Marxism	الماركسية السوفيتية
State Capitalism	رأسمالية الدولة
Student Movements	الحركات الطلابية
Stucturalism	البنيوية
Status Quo	الواضع الراهن
Superstructure	البنية الفوقية
Surplus Reprssion	فائض الكبت

- P -

Phenomenology	الظاهراتية
Philosophy of Science	فلسفة العلم
Pragmatism	البراجماتية
Positivism	الوضعية
Proletariat	البروليتاريا
Proletarian Internationalism	الأممية البروليتارية
Post - Industrial Society	المجتمع مابعد الصناعي
Production	الانتاج
Psychology	علم النفس
Psychoanalysis	التحليل النفسي
Practical Interest	المصلحة العملية

- R -

Radical Critique	النقد الراديكالي
Rationalization	الترشيد
Realism	الواقعية
Reason	العقل والثورة
Religion	الدين
Reflection	الانعكاس
Reformism	الاصلاحية
Reification	التشيؤ
Renaissance	النهضة
Revisionism	التحريفية

Sociology of Knowledge علم اجتماع المعرفة

Systems Theory نظرية الأنساق

- T -

Technical Interes المصلحة التقنية

Technoracy التكنوقراطية

Technology التكنولوجيا

Theory and Practice النظرية والممارسة

Theology of Liberation لاهوت التحرير

Theory of Communication Action نظرية الفعل الاتصالي

Totality الكلية

Totalitarianism الشمولية

Truth Content محتوى الصدق

- U -

Understanding الفهم

Unified Science العلم الموحّد

Universalization التعميم

- V -

Validity الصحة

Values القيم

Value Orientations توجهات القيمة

Vienna Circle حلقة فيينا

Vulgar Socialogism النزعة السوسيولوجية الساذجة

- W -

Western Marxism الماركسية الغربية

Working Class الطبقة العاملة

- Y -

Young Hegelians الهيجليون الشبان

Youth الشباب

المحتويات



مدرسة فرانكفورت

يعتبر معهد البحوث الاجتماعية الذي تأسس عام 1923، وانبثقت منه مدرسة فرانكفورت، مركزا مهماً في دراسة النظرية الاجتماعية.

وقد طوّر أعضاؤه المؤسسون: أدورنو، وهوكايمر، وماركيوز، شكلاً للنظرية الماركسية، عرف باسم النظرية النقدية، التي أصبحت ذات تأثير مهم في دراسة الطبقة والسياسة والثقافة والأيديولوجيا. أما أعمال الجيل الثاني لهذه المدرسة، وبخلصة هابرماس، فقد قوبلت بانتباه ملحوظ في أوروبا وأمريكا الشمالية.

وهذا الكتاب، يتخذ فيه مؤلفه عالم الاجتماع البريطاني توم بوتومور، نظرة جديدة وخلافية لأطروحات هذه المدرسة، حيث يختبر مقولات عديدة لها، لم تتم مناقشتها بشكل واف من قبل، إضافة إلى لفته الانتباه لإهمال التاريخ والاقتصاد السياسي في أعمال منظّريها.

علاوة على ذلك، يقوم المؤلف بمقارنة أفكار هذه النظرية النقدية، بأشكال أخرى في الفكر السوسيولوجي، وبخاصة ما يتصل بالوضعية والبنيوية.





موقعنا على الانترنت:
www.oeabooks.com